يوسف غازي

مَدخل إلى الألسُنيّة

إهداء ٢٠١٢

محمد صالح الضالع

جمهورية مصر العربية

مَدخــل
إلى
الألسُنيّة

يوسف غازي

مجـاز من المدرسة العمليـة للدراسات العليا في باريس

دكتور دولة في الآداب والعلوم

الأنسانيـة من السوربون

أستاذ الألسنيـة في جـامعـة دمشق

الطبعة الأولى ـ الفصل الرابع ١٩٨٥

PUMA

Presses Unversitaires du Monde Arabe

17 rue Thouin 75005 paris

Damas B.P. 579

منشورات العالم العربي الجامعية

دمشق ص . ب ٥٧٩

المقدمة

لمعرفة سرّ الألسنِ

«. . ولذاك
كليُّ السنّ بحديثه
بين الورى
ومسامعٌ إن حدّثوا . .»
«المكزون»

لماذا الاهتمامُ العالميُّ الحديثُ بالألسنية ؟

إنّ اهتمامات الألسنيين : جوهرية ، لأنّها تركزُ على جوهر اللغات الطبيعية ، وصفاً ، وتشغيلاً ، وماهيّةً . .

وأنشطة يوسف غازي الألسنية : تَعبقُ بشذى هذا الجوهريّ ، في مدى اختصاصٍ وموضوعيّة ، سمّاه : «مدخلاً إلى الألسنية» ؛ ودعا اليه بخمسة عشر رقماً ، اسميها ، إن أحبُّ ، منطلقات الألسنيّ لمعرفة سرّ الألسن . . ولكن : هل تُمكن هذه المعرفة . . وإلى أي مدى ؟

رافقتُ ، منذ عامٍ تقريباً ، منطلقات هذه المحاولة . . كما رافقت أخواتٍ لها ، عند شبابٍ وشيوخٍ آخرين[1] ، من قبل . . وأظل أبحث في الصحراء والأرجاء : عن طاقة الوفاء . . عن معادن الأنبياء والأذكياء[2] . .

وفي ما يلي : أبوح ببعض ما أثارته هذه المحاولة من أوجاد المجدّين لجوهريّ اللسان وتأثيره في حياة الانسان[3] . .

واذا كانت الألسنةُ واختلافها : من آيات الخلاّقِ العظيم[4] ، فإن السّعي في مداخلها مغامرة لها مباهجها ومواسِمُها . . وأول الطريق : البُنية . . ووسطه النيّةُ . . وبعدها يجيءُ المعنى صاحِبُ النيّةِ[5] ، وربما بمظاهر جديدة . . لذلك نظلُّ نسأل عن المطابقة بين البنية والنيّة . . بين اللسان والجنان . . بين اللغة والحياة . . بين الوعي والسعادة . . بين المتعدد والوحدة[6] . . بين البين والمفاجىء ، كما في مادة «لسن» : أمّ الألسنيّة ؛ إن قراءتها «القلبية» تجعلُها «نسلَ» ، وتلك مادة

الحياة . . إن التأمُّلَ المتناغم في أرجوحة القراءة : يطرح المسألة التي يراودها الاهتمام لمعرفة الحياة في اللغة واكتناه اللغة في الحياة . . كيف ؟!

هل طابَقَ الألسنيون : بين البُنْيَة والنيَّة ؟

يوسف غازي : يمارس الإجابة بأنشطتِه الألسنيَّة ، وهي تَعبِقُ بأنفاسِ **الاختصاصِ والموضوعيّة ؛**

من الأمثلة المؤيِّدة :

١ ـ تمهيدُه لمحاضرات «فردينان ده سوسُّر» ، في **«الألسنية العامّة»** ؛ فقد أوضح مركز صاحبه في «التيار الألسني البنيويّ» ؛ كما أكّد تأثير منهجه «في طرائق العلوم الإنسانيَّة كافة[٧]» . .

٢ ـ وها هو في كتابه الجديد ، «مدخل الى الألسنية» : يَسعى إلى **المطابقة بأسلوبيّ استيعاب ؛**

أولهما : ثقافي ؛

مثاله : في منطلق «المدارس الألسنية» ؛ وفي هذا المنطلق : عرَضَ حصائِلَ الألسنية في مدارسها المختلفة ؛ كمدرسة براغ ؛ ومدرسة كوبنهاغن ؛ والمدرسة الوظيفية الفرنسية ؛ والألسنية الأمريكية[٨] . . وفي معرضه ، هذا ، يظهر لون المثقّفِ المتأنيِّ ، ذي الاختصاص المتقصِّي . .

ثانيهما : اجتهادي ؛

مثاله : في منطلق «المفرداتية»[٩] ؛ وفي هذا المنطلق : عرَضَ حصائل اجتهاده الواعي . . **فكان اللون الشخصي : واضحاً بصورةٍ تؤثر وتثير ؛ . .**

في عناصر «المفرداتية» : ما يُثيرُ الخاطر ، تُراثاً ؛ وأملاً واعداً بما يمكن لهذه الطاقة المتوهجةِ بالنشاط . .

إنها تُثير في الخاطر : أوجاد المجدِّين ؛ مِنْ قُدامى ومحدَثين : توحَّدت اهتماماتهم بمثل «الاشتقاق ، والنحت ؛ والتقليص ، والاقتراض» . . الخ

ولكي لا نَقعَ في التعميم المغايرِ لما نُكرمُه من منهجيَّة التَّخصيص والالتزامِ الموضوعيِّ : نذكر من أسماء المهتمين القدامى من يمثلُ ميادينَ «الألسنية البنيويةِ . . . والمعنويةِ» . . جميعاً . .

فابنُ سينا ، في أربعِ آثاره اللغوية . . وابن جنّي ، في عديد لغويّاته . . وغيرهما : من قدامى الموجدين بالعربيّة . .

وزكي الأرسوزي . . وعبد الله العلايلي . . وغيرهما . . ممّن عملوا ، حديثاً ، أعمالَ الألسنيين مثل محمد عنبر في جدلية الحرف[10] . . .

من المنطلق الأوّل في «مدخل إلى الألسنية» : يتعرّف الداخل إلى «الألسنية[11]» ؛ فهي : «دراسة علميّة للسانِ البشريّ ، وللغاتِ الطبيعيّة» . . . وجديدها : في «قدرتها على تحديد غرضِ الدِّراسةِ وإدراك ما يمكن معايَنتُه» . . والألسنيُّ الدقيق : «يسعى إلى تحديد العَينة المستمدّة من المعايَنة ومن التسجيل الدقيق للغة في فعاليّتَيْ تحقيقها واستخدامها . . . ويركّز دراسته على جوهر اللغاتِ الطبيعية وماهيتها ، وطُرقِ تشغيلها ، وطرائقِ وصفها» . . .

والألسنية ، من وجهة نظرٍ أولى «وصفٌ للغةٍ مّا . . واللغة منظومة علاماتٍ لغويّة ، ليس غير . .»

وهي ، أي الألسنية ، من وجهة نظر أخرى : «دراسة تشغيل اللسان . . وهو ، أي اللسان ، واحدٌ لدى البشرِ جميعا ؛ وما ينجم عنه : إنما هو جميعُ اللغات كظاهرة خاصة ؛ وما تحليل الكلمات : سوى دليلٍ رافدٍ على أنّ لها كلياتٍ ألسّنية مشتركة . . و . . . ما يتباين في اللغات : إنما هو نتيجة لتغيرُات سطحيّة ؛ أمّا بُناها العميقة : فإنها واحدة ومتشابهة . . و . . اللغة : منظومة قواعد ، لا منظومة علامات لغوية» .

ألا يشعر المتأمّلُ ، هنا ، أن وجهة النظر الأولى : تعددية ؛ وأن الثانية : توحيدية ؟!

لذلك فكرتُ بتعريفِ الألسنية من طبيعتها ؛ فهي ، وفق ما يبدو لي من اللفظة : نِسبة طامحة إلى جمع الألسن» . .

وفي أصول الصرفِ العربي : لا ننسبُ إلى الجمع ؛ إنما إلى المفرد ؛ فيقال : اللِّساني . . ولا يُقال : الألسني . . إلا نادرا . .

وهذا الإصرار على النسبة إلى المفرد : يَنسجم مع وجهة النظر الثانية ، التي ترى «اللسان واحدا لدى البشر جميعا» . . بمعنى أنه : «قدرة الإنسانِ على التواصل

عبر أداته ، اللغة . . » ؛ وهو ، أي اللسان : «يشكل سمة عامّة ، كونيّة ، للإنسان ؛ لا تحولَ فيها ، ولا تبدُّل ؛ . . » . . وسمته اللسانية ، هذه : لا تتمتّعُ بها اللغة ؛ **فهي : منظومة علامات صوتية ، يتميّزُ بها أبناءُ طائفةٍ لغويّةٍ واحدة** . . «واللغاتُ : تتبدّل وتتغير ، على الرّغم ممّا تتمتع به من خصوصيّةٍ مطلقة» . .

فاللسانيُّ : متمسّكٌ بالأصلِ الواحد ، متجاوز للمظاهرِ المتعدّدة ؛ ينفذ إلى فمِ النبع . . بل كأنه يُبديء منه . .

والألسنيُّ : «مأخوذٌ بأسرار اللغة» . . التي هي تفتحات لسانيَّة . . ومن التفتحات المتعدِّدة . . إلى كوامن الأسرار . . «**إلى درجةٍ من العمومية**» : ذات جواذب ؛ «**تسعى جاهدة إلى إقحام اللسانِ في إطارها ، بل في العمق منها**[١٢]» . .

وما هي هذه الدرجةُ العموميةُ التي تترقّى **إليها القضايا التي تطرحُها دراسةُ اللغة** . . ؟

إن هيلمسلف : **يَفترضُ اللُّغَةَ بنية** ، بمعنى ؛ وبمعنى آخر ، وقبل كلِّ شيء ، يفترضُها : **ماهيةً مستقلة ، مكوَّنة من ارتباطاتٍ داخليَّة**[١٣]

وهذه إجابة الألسنية البنيوية ومنطلقها في «محاضرات سوسير» . . فكأن هذه العمومية : تلوح له وراء الارتباطات الداخلية . .

أمّا كريماس : فيراهِنَ على **تحويل الحركية العفوية** إلى حركية دالّة ؛ إذ أنَّ **النشاط اللهويَّ : يُقيم مرمى لبروز معنى** يمكن أن يظهر مستقبلا . . لأن المسعى الدلالي : يهدف إلى الكشف . . ولا قيمة له إذا كان لا يسمح باكتشافِ مالم نبحث عنه ، ولم نتوقّعهُ ، مُقدّما . . وبمعنى آخر : يرى **ابتداعَ المعنى في القراءة الدلالية** ، التي تشرح القاعدات شرحا بسيطا : أكثر منها اكتشافا للموضوع . .

وهذه إجابة الألسنية المعنوية ؛ كما في : «**مراهنات دراسة الدلالات اللغوية» ، لآن إينو** ؛ التي ترى «**أن قدر اللغة الطبيعي : أن تكون مجهولة ، متهرِّبة**[١٤] . . »

إنَّ درجة العمومية التي ترقى إليها أطروحاتُ دراسةِ اللغة ، **جعلت دارسي**

اللُّغة ينقلون البعد المقدَّس إلى صدر موضوع علم اللغة ، حيال مظاهر المعنى هذه المرة ؛ كما تقول صاحبة المراهنات[١٥] . .

لكن مظاهر المعنى : أليستِ اللغة ، التي يؤدِّي بها اللِّسانُ نشاطه اللهويَّ ، أي الصوتيَّ[١٦] . . ؟

يجتهد يوسف غازي في الإجابة ، بما سماه : «ميادين الألسنية . . والصوتية . . والتصويتية . . وآلية التواصل[١٧]» . .

وجرَّبَ أن يَظلَّ ألسنيًّا : تَعبق من تجربته أنفاسُ الاختصاصِ والموضوعية ؛ كما بدالي من متابعته في فصول كتابة ، منذ أكثر من عام ؛ فقد أطلعني عليه ، جزءا . . جزءا . . أو : منطلقا ، منطلقا . . كما سمَّيتُ أبوابَ كتابه ؛ **فهي خمسة عشر منطلقا ؛ إذا شاءَ أن يرضى بهذه العنونة . .**

في أيٍّ من هذه المنطلقات ؛

بل في أيِّ عنصرٍ من عناصرها : يُستطاعُ الوقوف للتأمُّل بأسلوبي استيعابه ، ثقافة واجتهادا . .

لقد ذكرت «المفرداتية» ؛ وهي العُنصر الثالث ، أو الواجهة الثالثة من **واجهات المنطلق الثالث عشر** ؛ وسماه ؛ **مقارباتِ الفهرس ومسائِله** . .[١٨] وعناصره أو واجهاته الأربع ، هي : إشكالية الوحدة الفهرسيَّة . . الفهرس والمنظومة اللغوية . . المفرداتية . . المعجميَّة . .

عارفو هذا العلم : يدركون خطورة هذه العناوين ؛ وقد يكون مفيدا أن نتأمَّلَ بالواجهة الثالثة ، أعني : المفرداتية ؛ لنرى وجوه الشخصيات التي دعاها للاحتشاد ، ونظمها في رتلين :

الأول للبنى الشكلية للمفردات ، وفيه : الاشتقاق ، النَّحت ، التعقيد ، التقليص ، أشباه المفردات ، الاقتراض . .[١٩]

والثاني للبنى الدلالية للمفردات ؛ وفيه : حقول الدلالاتية ، المعانية ، والتسمياتية[٢٠] . .

إنَّ التحديقَ بأي من شخصيات الرتلين : يُثير خاطراتٍ ذات خطَرٍ شكليٍّ ودلاليٍّ ؛ **والخَطرُ ، هنا ، لابتعاثِ الاهتمامِ بقَدْرِ المسألة . . فالاشتقاقُ :[٢١] كلمة**

واحدة لكنها عند الألسنيين : شقّت وتَشقُ سبُلا غنيَّة التنوُّع بين البنيةِ الشكلية وبين النيَّة المضمرة فيها ؛ ويمكن القول ، مجازا ، بين البنية وضميرها النيَّة . .

وهذه الملاحظة : تصحُّ ، عند التدقيق ، على العربيَّة وغيرها من اللغات ؛ كما نبَّهتُ إلى ذلك في مواطِنَ أخرى[٢٢] . .

ومن المرجوِّ : أن تكونَ لصاحب هذا «المدخل إلى الألسنيَّة» عودة دخول يتجوَّل ، بل يُقيم مع كلٍّ من هذه الشخصيات حوارا يحُرِّر مواسيم جديدة من المعنى المضمر في المبنى ، لكل من عناوين هذين الرتلين ؛ بل لكل منطلقاته . .

أكتفي ، هنا ، بالإشارة إلى مفردةٍ واحدةٍ ؛ أحاورها وفق طبيعتها الواقعيَّة وأصغي لما تظهره لنا من علاقة بنيتها بالمعنى ، شيئا تمثلهُ من أشياء الكون ، أو مشيئة تُصوِّرها من طباع النفسِ . .

وهذه المفردة : شعبيَّةٌ ، في الكتاب ، جدًّا ؛ لأنَّ الكتاب ينطلقِ بالمدخل إليها من خمسة عشرَ منطلقا ؛ فهي : الألسنية . .

الألسنية : مفردة واحدة ؛ «متتالية صوتية ؛ تشكلُ واقعا مادّيا ، يُسمَّى : الدال . . وهذا الدال يَستدعي فكرة أو تصوُّرا ، يُسمَّى : المدلول . . .

وهذه المفردة : علامة ؛ «لا تربط شيئا باسم ، بل تصورا بصورةٍ سمعية . . هي ، أي الصورة السمعية ، الطبع النفسيُّ للصوتِ المادي ؛ أو هي التمثُّل الذي تهبنا إيَّاه شهادة حواسِّنا . .»[٢٣] . .

ومن الألسنيين : مَن يبينُّ العلامة والشيء . بما يُسمِّيه : مثلث الدلالة . . أو : المثلث السِّيميائيّ . .[٢٤] . .

ومنهم : مَن يقول بالمربَّع الدلاليِّ ، ويعترف بخفائه . .[٢٥]

إنَّ المثلثين والمربعين : قدموا حصائلهم الوفيرة ، بنيويًّا ودلاليًّا . .

وأفكِّر بمحاورة المفردة بأسلوبٍ طبيعيٍّ ، لا أتجاوز فيه طبيعتَها البنيوية ؛ لأنَّ ذلك سبيلٌ أقومُ إلى اكتشاف النيَّةِ الطبعية لمعناها ومغازيه . .

فالألسنية : مفردة ؛ علامة ؛ وفق التصويت الصرفي . . لكنها مفردة مركبة ؛ فقد طبقت عليها : قاعدة النسبة ، بعد قاعدة الجمع ؛

لذلك تحلل إلىَ مفردها : لسان ؛ والنسبة إليه لسانيّ . .
واللسان : اسمٌ اشتق ، إذا شئنا ، من فعلٍ مجرّد ، هو : لَسَنَ . . ويقولون : اللِّسْن ، هو : اللسان ؛ وهو : اللغة ؛ وهو : الكلام ؛ وهو : الحجة ؛ وهو : الثناء ؛ وهو : الجارحة الفموية ؛ للنطق ، والتذوق ، والبلع . . ولكلٍّ تسمية أو صفة : تفاصيلها عندهم . .[٢٦]

في الأصواتية العربيَّة : يفتحون عين هذا الفعل في الماضي ويضمونها في المضارع . . أو يكسرونها في الماضي ويضمونها في المضارع ؛ فيقولون :
لسَنَه يلسُنُه : إذا تفوَّق عليه لسانا ، أو ملاسنَة . . .
لسِنَ يَلسَن : لمن تناهى في الفصاحة والبلاغة . .
وقواعد الزيادة على البنية المجـردةّ : معروفة ؛ للدلالة على مظهَـر جديد للمعنى ؛ أو لنيته ومغزاه . .
لكن المراد ، هنا ، هو : الاشتقاق ، وفق ما يُسمَّى : قاعدة القلب[٢٧] . .
في هذه القاعدة : تدور مادة «لسن» ستٌّ دوراتٍ ، تطابقُ فيها الجهات الست[٢٨] ؛ الأمام ؛ الوراء ؛ اليمين ، اليسار ؛ الفوق ؛ والتحت . . فتعطي ست بُنى فعلية : تتحد بجامعٍ معنويٍّ رغم تنوُّع مظاهرها المعنوية في البُنى الحروفية المختلفة ؛ وهذه البنى ، وفق أعمارها الزمانية ، كما يقال ، هي :
سلن ، لنس ، نسل ؛
سنل ، نلس ، لسن ؛
كلٌّ من هذه الأفعال الثلاثية : يُعاد إلى ثنائيه ، **حيث جذور البنية الأولى ؛ وما تلابِسَه ، أو تزمّله من أغراضِ المعنى ونواياه . .**

ففي مادة : سلن ، الأولى ؛ نجد الثنائي : سَلَّ ؛ فهو ، دائما ، يُشدَّدُ ثانيه ؛ ومعناه : الاستخراج برفق ؛ ومنه : السُّلالة ، أي الخلاصة المصفّاة من الكدر ؛ ولذلك فهي أصل الوراثة ، تقال : للنسل والولد[٢٩] . .
وفي آياتِ الخلق : أنَّ الإنسان خُلِقَ من سلالةٍ من طين[٣٠] . .

وفي الشعر القديم : ما يؤكد أن «السلن» ، يعني استخلاص الجوهري من عناصر متعدِّدة وإسراره في صميم الشيء المسلون ، أو المستل ، أو المسلول[٣١] . .

لكنه مع النون : أكثر تمكينا للمعنى ، بحيث تظهر أعراضُه على كلِّ الأجزاء ، كما يخفِقُ قلبٌ في جزئيات الجسد كلِّها . . . أو كما يكون الحزن شاملا لأجزاء المحزون ؛ والمقصود ملاحظة الوزن[٣٢] . .

المادة الأولى : سلن ؛ تعني الخلق الحيويَّ ؛ التكويني

المادة الثانية : لنَس : **تعني الخلق البيانيّ ؛ اللِّساني . .**

وهذه المادة : خاصة بالأوروبيات ؛ والحكاية طويلة معها[٣٣] ؛ لأن عِدّة قواعد أصواتية تطبَّقُ عليها ؛ ليبرز المعنى الذي نريده . .

في الفرنسية ، يقال لِلّسان ، ولِلّغة : Langue . .

وعندما يُطلق هذا الصوت على اللِّسان : يَفهم الألسني أنَّ المقصود بذلك قدرة الإنسان التوصيليَّة . .

وعندما يطلق على اللغة : يفهم ما تعنيه اللغة من كونها «منظومة علامات صوتية ، يتميَّز بها أبناء طائفة لغوية واحدة»[٣٤] . .

نريد من هذه الإثارة : **شدَّ الانتباه إلى الصوت[٣٥] الإنسانيّ المتموِّج بين الوحدة والتنوُّع ، عبر مظاهر المعنى في البُنى . .**

فصوت «السِّين» العربيَّة : يتنوَّع في لغاتٍ أخرى كالفرنسية ؛ فتارة : يلفظ في مثل سي ، Ci ؛ أي يحافظ على نغمته العربيَّة ، وتارة : يلفظ في مثل كا ، Ca ؛ أي يتغيرَّ النغم ؛ فيأخذ موسيقى الكاف العربيَّة . . وهذه النغمة تخفف في مثل كلمة «Langue» ؛ بمعنى : اللسان ، وأداته ، أو ما يؤدَّى به من علامات صوتية منظومة ، أي مترابطة ، وفق علائق جوهرية ؛ كعلاقة المسند إليه بالمسنداتِ مثلا . .

في المادة الثالثة : **نسل** ؛ نصل إلى تأسيس حيوي مترقٍّ إلى النوع الإنساني ، بعد أن رأيناه مجذّراً في الطبيعة مع المادة الأولى «سلن» . . .

ونقفز إلى **المادَّة السَّادسة «لسن»** ؛ وهي أمُّ الألسنية ، من وجهةِ الصوتِ عموما ؛ ومن وجهة منطلقاتِ «مدخل إلى الألسنية» ، خصوصا . .

فما الفرق بين : لنس . . لسن . . ؟

الأولى : أقدمُ من الثانية ظهوراً ، وأدلُّ على المعنى القائم في البنية ، مباشرة ؛

أي أقرب ما يكون من ظهور العلاقة ، كقولنا : شجرة ؛ فالعلامة الألسنية : دالٌ يدلُّ إلى هذا الكائن النباتيّ المعروف بالشجرة . . .

الثانية : أحدث من الأولى ، وأرقى ؛ لأنها تحرِّك مستويات متعدِّدة من مظاهر المعنى ؛ فالمعنى : يُعبِّرُ عن نواياه ومغازيه من وراء حجب ؛ فالشجرة ، هنا ، قد تكون : رمزاً يومىء بالمعنى وفق السِّياق البنيوي[٣٦] ؛ في أيِّ ميدانٍ ألسنيٍّ . . .

وعند هذا المستوى : تصير الممارسَةُ البيانيَّة أولى ؛ لأنَّ الإصغاء إلى كيفيات التعبير عن اللسان وبه : يجعل الحالَ مغنياً عن المقال ؛

شعريا : يُعتبر اللِّسانُ أغلى ما يخزنه الإنسان ، عند أمريء القيس . . ويُعتبر الغناء ، أي التصويت بالشعر ، مضماراً للشعر ، عند حسَّان بن ثابت . . أمَّا جبران خليل جبران : فيعتبر الغناءَ سرَّ الوجود[٣٧] . . .

فلسفياً : ذكرت ابن سينا ، وأشرت إلى آثاره الأربعة في مجال الألسنية ؛ وهي : أسباب حدوث الحروف . . العبارة . لسان العرب . . والنيروزية ؛ وفي هذه الأخيرة : يُرتِّب الموجودات والدلالة على خاصيَّةِ كل مرتبةٍ من مراتبها . . ثم يبحث في الدلالة على كيفيَّة دلالة الحروفِ عليها . . . وينتهي إلى غرض الرسالة الإعجازي ، فيما يتعلَّق بالحروف المقطَّعة ، في أوائل سور القرآن[٣٨] ، مثل «ك هـ ي ع ص» ، فاتحة سورة : مريم . . . وترسم ، قرآنياً ، «كٓهيعٓصٓ»[٣٩] . . .

دينيًّا : على ذكر سورة مريم ؛ لو بقينا في جوها : ماذا نجد ؟

تكاد المسألةَ أن تكون مسألةً لسانية ، أو ألسنيَّةً ؛ حتى أنَّ عيسى روحٌ من الله وكلمة منه ألقاها إلى مريم . . وموسى : أليس كليمَ الله . . ؟ . . وابراهيم الخليل وُهِبَ الأبناء . . ووهبت لهم الرحمة . . «وجعلنا لهم لسان صدقٍ عليا» . . ويُمدح الأنبياء بصدقِ الوعد والتصديق بالحقِّ ؛ وذلكَ منسوبٌ إلى اللسان :

«واذكر في الكتاب ادريس إنه كان صدِّيقا نبيا . .
ورفعناه مكاناً عليّاً . .
«واذكر في الكتاب اسماعيل إنه كان صادق الوعد . . .

وكان رسولاً نبياً . . .

وفي فاتحة السورة وخاتمتها ، كما في ثناياها : تظلُّ المسألة ألسنية ؛ أو تواصلا باللسان بين زكريا وربِّه ؛ فقد ناداه نداءً خفيا ؛ واستوهبه يحيى ؛ فيحيى : ثمرة حياة النداء الخفيّ . . .

وفي خاتمة السورة : يجيءُ التواصل من الربِّ إلى محمد ، خاتم الأنبياء ، (ص) ؛ فيقول له :

«فإنما يسرنا ، بلسانك ؛ لتُبشِّرَ به . . .[40]» . .

أخلاقياً : في خطبة «اللسان»[41] ، من «نهج البلاغة» نلاحظ الخطورة الجامعة لقيم الإنسانِ في لسانه ؛ وأختار مقطعاً منها ؛ لتكون بنيته : موضوعا للتأمّلِ والتحليلِ الألسنيين ؛ يقول ذو نهج البلاغة عليه السلام :

«. . ثم ، إياكم وتهزيعَ الأخلاقِ وتصريفها ؛

واجعلوا اللسان واحداً ؛ وليخزنِ الرَّجلُ لسانَه ؛ فإنَّ هذا اللسان : جموحٌ بصاحبه ؛

«والله ما أرى عبدا يتقي تقوى تنفعه : حتى يخزُنَ ، لسانه »

«وإنَّ لسان المؤمِنِ من وراء قلبه ؛ وإنَّ قلب المنافِقِ من وراء لسانه ؛ لأنَّ المؤمِنَ إذا أراد أن يتكلَّم بكلامٍ تدبَّره في نفسه ؛ فإن كان خيرا أبداه ، وإن كان شرا واراه ؛ وإنَّ المنافِقَ يتكلم بما أتى على لسانه : لا يدري ماذا له وماذا عليه !!

«ولقد قال رسول الله ، صلى الله عليه وآله وسلَّم ، لا يَستقيم إيمانُ عبدٍ حتى يستقيمَ قلبه ؛ ولا يَستقيمُ قلبه حتى يَستقيمَ لسانه[42]» . . .

(١٧٤ : ٢٢-٢٥)

هذا النصُّ : يثير قضيَّة المطابقة بين بنيةِ الكلامِ ونيَّةِ المتكلِّم ؛ ويُلحُّ على توحيد اللِّسانِ لتوحيد الأخلاق . . والقسَم باسِم الله الجامع : ذو دلالة أعمق وأعلى من الإبانة ؛ فما من تقوى تنفع إلاَّ بخزن اللِّسانِ على المنهج الذي رُسِم بالنصِّ ؛ والقسم : رغبةُ محبَّةٍ لاتباع الحكمة ؛ وإن كان القسم : يضمر انفعالا مطابقا لنية صاحبه . .

ولبنى الصادقين مع نواياهم[٤٢] : صداقات وعلائق تجتذب الألسنيين إلى «البعد المقدّس[٤٣]» ، كما تقول صاحبة المراهنات . .

ومن البعد المقدّس : أن يكونَ الجهاد لإنقاذ الإنسانِ وخلاصه ؛ وفي عبارة المسيح ، وهو الحليم : ما يُشعر بوجهي القضيّة ؛ انفعالاً صادقاً للمطابقة بين النية والبُنيَةِ[٤٤] ؛ وغضباً ثائراً على خائنيٍّ هذه المطابقة[٤٥] ؛ ونصُّه مشهور : «من الثمرة تعرفُ الشجرة . .[٤٦]»

ان اهتمامات الألسنيين : جوهرية[٤٧] ؛ ونشاط يوسف غازي : يعبق بشذى هذا الجوهريّ[٤٨] ، في مدى اختصاص وموضوعية[٤٩] . .

أسعد علي
دكتور في الأدب وفي الفلسفة
مجاز في الحقوق وفي التربية
استاذ دراسات عليا في الجامعة اليسوعية
استاذ محاضر في الجامعتين اللبنانية والعربية
استاذ في جامعة دمشق

١٤/ ١٢/ ١٩٨٥ - ربيع أول ١٤٠٦

إشارات وهوامش المقدمة «لمعرفة سر الألسن»

١) لاحظ أ ـ د . أسعد علي ، تهذيب المقدمة اللغوية للعلايلي ، ط ١٩٨٥

ب ـ خليل أحمد : دور اللسان . . والأرسوزي ، ط ١٩٨١

ج ـ عصام نور الدين ، أبنية الفعل في شافية ابن الحاجب ؛ بيروت ١٩٨٢

د ـ آن إينو ، مراهنات دراسة الدلالات اللغوية ؛ دمشق ١٩٨٠

٢) لاحظ : مقدمة اسطورة الصحراء أولائك حبيبتي ؛ بيروت ١٨٧٤

٣) لاحظ : أ ـ د . أسعد علي قدمية الصدق ، في فن الحياة فن الكتابة ؛ دمشق ١٩٧٧

ب ـ أسعد علي ، أساسيات النحو العربي ؛

ج ـ أسعد علي ، قصة القواعد ؛

د ـ أسعد علي ، اللغة والحياة ؛

هـ ـ أسعد علي ، من عام المرأة إلى عام اللغة . . وأمثالها . . . .

٤) لاحظ أ ـ سورة الروم : ٣٠/٢٢

ب ـ التخيير والعالمية في منهج الرضي ؛ في ذكراه الألفية ١٩٨٥

٥ ـ ٦) نلاحظ مستويات هذه المباهج في «علم المعاني ومقتضى الحال» ؛ وفي آياتِ الكينونة الناتجة عن الإرادة والقول «مثل : النحل ١٦/ ٤٠ . . ومثل : يس ٣٦/٨٢ . . . . ومثل مريم ١٩/ ٣٥ . . والنساء ٤/ ١

(٧) سوسير ، محاضرات في الألسنية العامة ص ٤

٨) غازي ، مدخل إلى الألسنية ، المدارس ص ٢٥٥

٩) غازي المرجع نفسه ؛ المفرداتية ص . ١٧١

١٠) لزكي الأرسوزي : ثلاثة أعمال لغوية ، جمعت في مجلد واحد ؛

وللعلايلي : مقدمة لدرس لغة العرب ؛ وتطبيقاتها المعجميّة . .

ولمحمد عنبر : جدلية الحرف العربي ؛ ومناقشات لنقدتها . .

١١) غازي ، «مدخل» ص ١٧

١٢) غازي ، «مدخل» ؛ ص ١٧

١٣) سوسير ، «محاضرات» ص ٤

١٤ ـ ١٥) «مراهنات» الغلاف

١٦) «مراهنات» ٣١ ـ ٣٢

١٧) غازي ، ١ ـ «مدخل» ص ١١٧ ، ص ١٢١ ، ص ١٤٥ ، ص ٤٣ .

١٨) نفسه ص ١٥٧

١٩) نفسه ص ١٧٢

٢٠) نفسه ص ١٩٣

٢١) نفسه ص ١٧٤

٢٢) الصوت العربي في الكلمة الأوروبيّة : نظرية تحاول المطابقة فيها بين المعنى وبنية الصورة . . ولاحظ مقدمة مراهنات : ٨

٢٣) غازي ، «مدخل . . .» ص ٦١

٢٤) غازي ، نفسه ص ٦٢
٢٥) اينو ، «مراهنات . . . .» ص ٧
٢٦) لاحظ مثلاً: سرّ صناعة الاعراب لابن جني ؛ . . الخ
وصناعة الكتابة في الفصّاحة والموسيقى : ص ١٥٥ ـ
٢٧) في تهذيب المقدمة : جمعت أطراف النظرية ؛ ص ٥٧ ـ ٧٠
٢٨) لاحظ تعاملنا مع الجهات ، في : الإبداع والنقد . . الثقة بالتراث والمستقبل . . المقدمة الجديدة لفن الحياة . .
وفي : سعدي الشيرازي ؛ حديث مباشر في مؤتمره : ص ١٥٠
٢٩) معجمات اللغة ؛ كلسان العرب
٣٠) تلاحظ آيات الخلق ، تحت مادة : سَلّ . .
٣١) لاحظ تعاملنا مع سرّ البيان في مثل قول كعب بن زهير ، في سياق حديثنا المولدي : «حواضن طهر» .
إن النبيّ لنور يُستضاء به
مهند من سيوف الله مسلول . . .
٣٢) لاحظ : تخصيص الموازين ؛ في : تهذيب المقدمة ص ١٩٣ ـ ٢٤١
٣٣) الصوت العربي : نظرية باثنتي عشرة قاعدة ؛ تُطبّق فيبرز التماثل اللساني في الاختلافات العالمية المتنوعة . .
٣٤) غازي ، «مدخل . . . ص١٧
٣٥) الصوت العربي ؛ لاحظ الحاشيتين : ٢٢ ، ٣٣
٣٦) يستأنس بنظرية النظم ، عند الجرجاني ، لمسألة السياق . . بحالاتٍ معيّنة . .
٣٧) نلاحظ في شعرهم هذه الوجهات :.
أ ـ إذا المرء لم يخزن عليه لسان
فليس على شيءٍ سواه بخزّان
ب ـ تغَنَّ بالشعر إمّا كنتَ قائله
إن الغناء لهذا الشعر مضمار
جـ ـ إعطني الناي وغنّ فالغنا سرُّ الوجود . . . .
٣٨) لاحظ الفصل الثالث من الرسالة ؛ ص ٤٠ وما بعدها
٣٩ ـ ٤٠) نلاحظ سورة مريم عموماً ؛ فهي سورة اللسان ودوره في العلائق . .
٤١) تلاحظ : خطبة اللسان ؛ في : نهج البلاغة ذي الفِقر ، فهي في ترتيبها : ٣٨ فقرة ، ويلاحظ فتح بنيتها عن نية ذي النهج ، في : شرحنا الحديث لنهج البلاغة .
٤٢) الخطبة ، في إخراج الشيخ محمد عبده ، مفتي الديار المصرية : ١٧٤ ، جـ ٢/ ١٠٩ .
٤٣ لاحظ الاشارات : ١٥ ، ٤٤ ، ٤٥ .
٤٤) لاحظ نصّ الإنجيل بلسان المسيح : متى ١٢/ ٣٢ ـ ٣٨ ولاحظ نص القرآن بلسان المسيح وصدقه : المائدة ٥/ ١٠٩ ـ ١٢٠ .
٤٥) لاحظ خصوصاً : متى ١٢/ ٣٤ .
٤٦) متى ١٢/ ٣٣ .
٤٧) لأنها : واقعية ، وموضوعية ، وحيوية . . وخادمة عميمة النفع للانسانية .
٤٨) لأنه في منطلقاته «المدخلية» : يحدد اهتمام الألسنيّ ، ويلتزمه . .

٤٩) التشديد على مدح الاختصاص والموضوعية معاً : بنيةً أرمز بها الى نية نعانيها من الصميم ؛
أ ـ وقد صرخ منها الجرجاني من قبل ، دلائل الاعجاز ، ص ٦
ب ـ كما صرخ منها أكابر الشعراء ، قبل الجرجاني ، وبعده . .
جـ ـ وماذا نقول في توجع المسيح ، وهو الحليم المتسامح ، يضطره ادعاء المدّعين الى إظهار التأثر البالغ من أولئك : «العلماء بالجهل» . . والمحسنين بالأذى . . اذا صح التعبير . . لاحظ متى ١٢/ ٣٤ . . ولاحظ : الأمثلة التي تميّز الموضوعية والاختصاص حقاً . . في : علم المعاني ومقتضى الحال» . . وفي : «نظرية الأدب ومبادىء النقد» .

مَدخل

إلى

الألسُنيّة

فهــرس المــواد



تمهيد

ما انفكت موضوعات اللغة واللسان تستأثر منذ قرابة نصف قرن باهتمام العاملين في حقل الألسنية الذين بلغوا بالبحوث شأوا لم تبلغه بعد أي من العلوم الانسانية الأخرى . والألسنية علم ناشىء جديد ظهرت بوادره مع اطلالة القرن العشرين عندما ألقى فردينان دوسوسير **«محاضراته في الألسنية العامة»**[1] واضعا بذلك حجر الاساس لهذا الصرح المعرفي البارز الذي قدّر له فيما بعد أن يقلب رأسا على عقب طرائق البحث والدراسة في العلوم الانسانية كافة .

واذا حاولنا تعريف الألسنية ولو على جناح السرعة لقلنا انها العلم الذي يقودنا الى الكشف عن آليات اللغة والتعرف على ماهيتها من حيث كونها منظومة او لنقل بنية متماسكة الاطراف ، قوامها علامات ألسنية مكتوبة او محكية يستخدمها أفراد المجموعات اللغوية المختلفة لنقل أفكارهم وتبادل معلوماتهم بغية إقامة التواصل فيما بينهم .

واذ نقول أن سوسير هو مؤسس الألسنية الحديثة فما ذلك الا لأنه كان مصيباً في **«محاضراته»** بوضعه يده على اشكالية المسألة الألسنية برمتها وهي ميزة تفرد بها القرن العشرون اذ صدف اللغويون من قبل عن دراسة اللغة من جانبها العام . ويرجع فضل سوسير على سابقيه الى تأطيره المشكلات المطروحة على بساط البحث تأطيرا يتصف بالعمومية والشمولية ، ناهيك عن رفضه تصورات اسلافه من ألسنيي القرن التاسع عشر أولئك الذين نظروا الى اللغة

---

١) فردينان دو سوسير ، «محاضرات في الالسنية العامة» تعريب يوسف غازي ومجيد النصر ، دار نعمان للثقافة ، جونية لبنان ١٩٨٤ .

من حيث كونها آلية تاريخية وراحوا يتخذون معايير خارجة على الألسنية ذاتها وذلك كمسوغات نظرية وكمبادىء تفسيرية دون النظر اليها من حيث وظيفتها التواصلية داخل المجموعات البشرية .

غير أن تأثير سوسير على الرغم مما أحدثه من انقلاب فكري بقي ، والحق يقال ، محصورا ضمن حلقة صغيرة من طلابه ، ولم يُقدر لأفكاره ان تنتشر الا في الثلاثينات حيث طفق التيار البنيوي يطوّر الطروحات التي أبرزها الى حيّز الوجود وأهمّها قوله «ان اللغة منظومة لا قيمة لمكوناتها أي لعلاماتها اللغوية الا بالعلاقات القائمة فيما بينها ، وبالتالي ، لا يمكن للألسني اعتبار مفردات لغة ما كيانات مستقلة بل ان لزاماً عليه وصف العلاقات التي تربط هذه المفردات» .

واذا نحن أنعمنا النظر ملياً في الأبعاد العملاقة التي امتدت اليها الألسنية والتطورات العريضة التي أصابتها فأثرتها ايما اثراء في هذا الحيّز القصير من الزمن ، لقلنا دون ريبة أو حذر وبشكل يقطع عرق النزاع أن الألسنية انما هي المنحى الاساسي الذي نستدل به على درجة المعرفة الرفيعة التي بلغها الانسان حول ذاته الخاصة .

وليس من شأننا هنا التعرض باستفاضة الى المكتسبات التي حققتها الألسنية تاركين القارىء يعكف بنفسه على دراسة هذا «المدخل» ليتبين من خلاله المبادىء النظرية والمفاهيم المنهجية التي عصفت بالحقل الألسني فأثارت من حولها زوبعة من التساؤلات سرعان ما اجتاحت العلوم والمعارف الانسانية الأخرى . ويكفينا القول أن الألسنية طورّت سلسلة من التقابلات ـ من مثل : اللغة/ الكلام ، التزمن/ التزامن ، الدال/ المدلول ، المعنى/ القيمة ، التركيب / التبديل ردت على دراسة اللغة طابع الصرامة العلمية فغدت الألسنية علما قائماً في حد ذاته ، متمتعاً بنظريات وطرائق بحث خاصة متميزة . وانطلاقا من هذه الاسس ، راحت الألسنية تنظر الى اللسان على أنه واقع ذاتي واجتهدت في دراسة وتحليل طريقة عمله لا من حيث كونه مجموعة

من العلائق وحسب ، وانما كمنظومة قواعد ذهنية ووسائط تعبيرية في آن واحد تستثمر في خدمة التواصل الاجتماعي .

وبفعل هذا الانقلاب الفكري الخطير ، سرت المفاهيم الألسنية وتصوراتها الرئيسية سريان الكهرباء في الاسلاك واجتاحت الحقول المعرفية للعلوم الأخرى غير الألسنية ، فارتبطت الصوتية بالفيزياء ارتباطا وثيقا ، والتقى علم الدلالة بالرياضيات ، وتواشج علم القواعد والمنطق ، كما تشابكت التغيرات اللغوية مع علم الاجتماع ، والتغيرات اللغوية ـ الاجتماعية وعلم الأقوام . وعبر هذا الاحتكاك ، تولدت اختصاصات ألسنية فرعية مثل : الألسنية الرياضية والاخرى الاجتماعية ، والثالثة العصبية ، والألسنية النفسية والألسنية الأقوامية . وفضلا عن كل هذا وذاك ، بات من المحال دراسة قطاعات النشاط الفكري للانسان دون الاستعانة بالألسنية ، مثال ذلك قطاعات تعليمية اللغات الأم والاجنبية ، والتحليل الآلي للغات ، والذكاء الصناعي ، والتوثيق ، والترجمة والتخطيط اللغوي وغيرها . وغدت الألسنية ونحن على مشارف قرن جديد عنوان المعرفة الاجتماعية وعلوان الثقافة الانسانية .

وعلى الرغم من هذا المد الفكري العريض الذي شهدته بلدان الغرب ، ما يزال العالم العربي يفتقر الى مؤلفات حديثة يعتد بها في هذا المجال ، اللهم الا بعض العجالات والترجمات المبعثرة والتي لا تلج الألسنية من بابها الواسع . اما ما يتعلق ببحوث القدماء في اللغة ، فاني على اجلالي لمصنفاتهم ، أرى في جُل مباحثهم نواقص لاأطيق الاغضاء عنها ، فهي على استفاضتها وتقصيها الكثير من أوجه البحث لم تسلم من مثالب ومطبات لن اتي على ذكرها هنا ، انما اكتفي بالقول انها تعاني فقدان النظرة الشمولية في التحليل ، واضطرابا في المنهجية ومغالاة في النتائج ، غير ان ظروف محيطها الفكري وعامل بعدها الزمني عنا يصفح عن عيوبها وهي ليست بالكثيرة اذا ما قيست بما يكتب وما يقال في عالمنا العربي اليوم .

ان هذه البوادر البواده أهابت بنفسي ـ وقد وقفت قسطا وافرا من وقتي

وجهدي على هذا العلم انهل منه ما تيّسر لي في أروقة السوربون وقاعاتها ـ الى وضع مؤلف أعدّه عملا متواضعا في نشر طرف من المعرفة الألسنية المعاصرة . في وقت نجد فيه اللغويين التقليديين يشيحون عن الاجتهادات الحديثة ولا يأبهون لها ، بل يجهدون جاهدين بترقيع أمزاق الماضي ظنا منهم وتوهماً انهم يخدمون بصنيعهم هذا اللغة العربية في حين ان انصرافهم عن حديث البحوث وجديدها ينحر اللغة نحراً جهيزاً . وربما رجع السبب في ذلك الى عادات دراسية خاطئة اكتسبتها وما زالت تكتسبها الاجيال العربية فجعلتها تتلهى بالقشور عن اللباب .

لكل هذا وذاك ، بادرت الى عقد بعض حصيلة تفكيري في هذا «المدخل» الذي اقتضاني ليالي مؤرقة في اصلاحه وتهذيبه قبل وضعه بين أيدي القراء . وكنت أروم ان اتسع بالكلام على الألسنية فأتناول فصولها ومدارسها وأعلامها بالتفصيل ، لكني أقصرت بعد ان آثرت أن أفرد للمواد الألسنية المختلفة مؤلفات مستقلة . ولم آل جهدا وأنا أسعى لفك مغاليق هذا العلم في التوفيق قدر المستطاع بين طي الحديث ونشره من جانب ، وبين تفجير القابليات المكنونة في العربية وتطويعها للتعبير العلمي وحفظ بُنى اللغة نقيّة غير ملوثة بأكدار الكلم الدخيل المقترض من جانب آخر . لذا ، رأيتني منساقاً في عملي التعريبي الى انتقاء صيغ وبُنى ـ ربما لم أوفق في بعض منها ، لذا أدعو القراء الى موافاتي بمقترحات من شأنها تثقيف ما أعوج منها ـ أقول الى انتقاء صيغ وبُنى يستشف القارىء من خلالها جذورا عربية بدلا من تقديم مواد فيها من الرطانة والعجمة ما تنفر منه الاذان ولا تميل اليه القلوب .

وقبل أن نختم الكلام ، تاركين القارىء يعكف على التعرف على الألسنية ، لا بد من الاشارة الى أن الجهاز الاصطلاحي المقدم في هذا «المدخل» مستمد من معجم ألسني أضع لمساته الاخيرة قبل أن أدفع به الى المطبعة آملا أن يجد فيه الجمهور العربي المثقف ما يساعده على تفهم هذا العلم الذي أغنى ذاكرة الانسان اللغوية والمعرفية ، راجين له النجاح وللغتنا العزيزة التقدم والازدهار .

باريس ؛ ايلول ١٩٨٥ — يوسف غازي

0.
مـــا الألســـــنية ؟

إذا قدر لنا ان نُعرف الألسنية قلنا : انهـا الدراسـة العلمية للسـان البشري وللغات الطبيعية ، ولعلّ هذا التمييز بين اللسان واللغة والذي لـم يوف حقه من الدارسين ملحٌ وموجب وضروري في نطاق بحثنا هذا ، فاللسان langage ان هو الاّ قدرة الانسان على التواصل عبر أداة له : انهـا اللغـة langue ، تلك التـي عرّفهـا العلماء : انها منظومة علامات صوتية يتميز بها أبناء طائفة لغوية واحـدة . ثم ان اللسان يشكل سمة عامة كونية للانسان ، لا تحول فيها ولا تبدل على حين تتبدل اللغات وتتغير على الرغم مما تتمتع به من خصوصية مطلقة .

إن الألسني مولعٌ باللغة مأخوذٌ بأسرارها مهتـمٌ بهـا اهتماماً بعيداً ، غـير ان الالسنية هي قبل كل شيء نظرية تستقطب عالم اللغات ومجاهله ، بكل ما فيه من أسرارٍ وكوامن ، ولكن ماأن تسمو وترقى القضايا التي تطرحها دراسة اللغة حتى تصل الى درجة من العمومية ، الأمر الذي تسعى جاهدة معه الى اقحام اللسـان في اطارها بل في العمق منها .

هذا ، وقد تصدرت الالسنية ـ وذلك منذ الخمسينات ـ العلـوم الانسـانية كافة ، إذ أنها اتخذت دورا طليعيا رائدا استجرت به العلوم الأخرى ، ومردُّ ذلك يعود الى تلك الاهمية المتبلورة والمتميزة في آن ، من خلال رصدها وتقديمها نماذج منهجية ذات صياغة اكثر اتقانا ، وشكلانية اكثر دقة من تلك التي تستخدمها تلك العلوم عبر مجالاتها بكل مافيها من اختلاف ، ونقصد بذلك : الانتربولوجيا ، علم النفس ، التحليل النفسي ، علم الاجتماع ، العلوم الاقتصادية . . الخ ولا شك انه لاعداد هذه النماذج المعرفية بشكل اصيل و متكامل فقد كان على الألسنية ان تطور وتنمّي مصطلحات تقنية جديدة تتواءم بشكل اكبر ومتطلبات البحث مع الأعتراف

بان هذه الكوكبة من المصطلحات ضرورية كل الضرورة اذ انها تعمل على تبديد مناطق اللبس والغموض حيثما وجدت .

ربما لا نقوى على القول ان الألسنية الحديثة هي علم او دراسة علمية او تكاد ، فذلك يدفعنا ، الى توضيح بعض التضمينات . ان مهمة الالسنية تنهض - قبل كل شيء - على تقديم وصف لغرضها : اللغة langue ، وهو وصف يعتمد معاينة الوقائع بشكل محض صافٍ بعيداً عن المواقف الأمرية القسرية أي المعيارية ، وبهذا المعنى يحق لنا ان نقول : ان الألسنية علم دقيق يتمتّع بغرض ومجال وطبيعة . وفوق ذلك ، فعندما نصف دراسة ما بأنها علمية فما ذلك إلاّ لاعتمادها معاينة الوقائع بما هي عليه ، من غير اللجوء او السعي الى خيارات بين الوقائع المعاينة ذاتها ، ومن هنا فلا ضير اذن أن يتقابل العلمي والأمري ويتعارضا في وقت واحد .

وفضلاً عما تقدم ، فالألسنية تنأى عن البحوث ذات الطابع التاريخي او الفلسفي ، فذلك ليس من شأنها الآن ، انها ترمي الى دراسة تَشكُّل حالة لغوية ما . وفي هذا المقام لا بد من التذكير بأن الجديد الذي قدمت به الألسنية انما هو قدرتها على تحديد المادّة corpus او العينّة المستمدةمن المعاينة ومن التسجيل الدقيق للغة في فعاليتّي تحقيقها واستخدامها . وفي هذا الخصوص يركّز الألسني دراسته على جوهر وماهية اللغات الطبيعية وطرق تشغيلها وطرائق وصفها .

0.1 وجهتا نظر الألسنية :

انطلاقاً من دراسة اللسان كأداة تواصل ، فان الألسنية تذهب الى اهتمام خاص باللغة ، ونتيجة لذلك يمكننا تصورّها من وجهتي نظر ثنتين :

1 ـ الأولى وهي تلك التي نسعى بها الى تعريف الألسنية انها وصف للغة ما ، ومن هنا فهي تنهض على ما يعرف بالمعاينة الموضوعية لسلوك المتكلمين اللغوي ، ولا شك ان هذا الوصف يرمي الى عرض كل ما تتمتع به اللغة المدروسة من خصائص

مقدرّة في ذاتها ، ولهذا فنحن ازاء وجهة النظر هذه نعتبر اللغة منظومة علامات لغوية ليس غير .

2 ـ أمّا الوجهة الثانية فهي تلك التي ترى في الألسنية دراسة تشغيل اللسان ، فهي تُقدر بحزم واصرار أن اللسان هو واحد لدى البشرٌ جميعاً ، وما ينجم عنه انما هو جميع اللغات كظاهرة خاصة ، وما تحليل اللغات سوى دليل رافد على انّ لها كليات ألسنية مشتركة ونعني بذلك ما يعرف بـ : السمات ، المقولات والمفاهيم المتشابهة من مثل التمفصل المزدوج وخطية السلسلة التركيبية الخ (6.2أ) ان كل هذا يؤدي الى الاعتراف بأن ما يتباين في اللغات انما هو نتيجة لتغيرات سطحية ، أمّا بُناها العميقة فانها واحدة ومتشابهة ، ان وجهة النظر هذه تقودنا الى الاعتراف بأن اللغة منظومة قواعد لامنظومة علامات لغوية .

▲ ▲ ▲

1.
تـــاريــخ الألســـنيـــة

ربما كان طبيعياً لفهم وادراك مجال معرفي ما ان نمّر ولـد باقتضـاب وايجـاز بجملة المراحل التاريخية التي مرّ بها وصولاً الى رصد بعض الافكار التي تنامت في مفهومه عبر دورة الزمن .

ان الالسنية ـ كما نشهدها اليوم ـ انما هي بنت مخاض تاريخي طويل ، واذا قدر لها أن تكون ـ بمفهوم حديث ـ علما وليدا فإن ذلك لايعني اطلاقاً بأن التفكير في جوهرها ومفهومها حديث ، بل على العكس من ذلك ان جذوره قديمة جداً ، عانى منها أهل اللغة عبـر كل الأزمان والأمكنة ، الكثير الكثير شغفاً منهم في الوصول الى شيء من حقيقتها .

1.1. المراحل الرئيسية

لم تكن المعرفة الألسنية يوماً سوى خلاصة وعصـاره تفـكير طويل فيهـا ، مخترقة في ذلك جدار الزمن والأشياء ، على الرغم من مرورها بمراحل مختلفة يتفق اهمها واختراع الكتابة وتشكل القواعد المقارنة .

1.1.1 الكتابة

غير جديد ان نقول ان الكتابة تمثيلٌ للغة طبيعية (محكية) بعلامـات خطية منقوشة . ففي البدء لفظ الانسان علامات صوتية ثم عمد لاحقاً الى تمثيلها ضمن منظومة علامات ، وهذه الاخيرة ان هي الاّ رامزة تواصل من الدرجة الثانية في حين ان الكلام يشكل رامزة تواصل من الدرجة الأولى .

يقول المثل اللاتيني : «الكلام يفني ويتلاشى ، أمّا الكتابة فباقية حيّة»(1) ، ان الكلام يجري مع الزمن ومن خلاله ثم ينتهي بانتهاء دورته ، أمّا الكتابة فانها تحدث وتتم في المكان (الفضاء) . وفي الحق ، ان للكتابة حاملاً فضائيا ، ماديا يعملْ على حفظها ، ثم ان شكلها مقصور حدوثه على هذا الحامل المادي الذي اتينا على ذكره هنا : ان الشكل قد تتعدد صوره فهو اما منقوش على حجر ، أو على لوحات خزفية او شمعية ، او مرسوم على ورق البردي مثلاً او مطبوع .

ان نظرة واحدة الى اختراع الكتابة ليدلّ على تفكير الانسان وتحليله لبنى لغته الأم ، هذا ، وللوصول الى تمثيل الكلام بكتابة ابجدية فقد كان لزاماً على الانسان ان يعي بشكل تجريبي ويدرك وجود وحدات صغرى تجسدها الحروف تلك التي نسميها اليوم بـ « **الصوتيات** » phonèmes

اننا اذا ما عمدنا الى لغة التعميم فاننا قادرون على الاعتراف أنه بفضل هذه الثورة الأولى التي جسّدها اختراع الكتابة قد تم تطوير التفكير بفلسفة اللسان ذاته .

1.1.2 القواعد المقارنة

يمثل تشكل القواعد المقارنة منعطفاً ثانياً مشرقاً في تاريخ الألسنية . ان ولادة هذه القواعد يرجع الى اكتشاف السنسكريتية على يد المستشرق الانكليزي **وليام جونز** (١٧٨٦) W.Jones فقد اظهر الاتصال بين أوربا والهند، وبصورة تسترعي الانتباه ، اظهر تقارباً حقيقياً او يكاد ان يكون كذلك بين معظم لغات اوروبا وعدد كبير من لغات آسيا ، وفوق ذلك فقد قُدر لـ **فرانز بوب** Franz Bopp في كتابه « **منظومة تصريف الافعال السنسكريتية** » (١٨١٦) ، وذلك فضلا عن اكتشاف السنسكريتية ، نقول قُدِّر له اظهار العلائق الرحمية التي تربط السنسكريتية بغيرها من اللغات الأخرى الجرمانية واليونانية واللاتينية والانكليزية والألمانية والاسبانية

(1) «verba volant scripta manent»

والروسية والفرنسية الخ . . وبفعل هذا الاكتشاف اطلق ـ مذذاك ـ على مجموعة هذه اللغات اسم اللغات الهندو اوروبية ، وهكذا نجد ان ظهور ولادة القواعد المقارنة كان متفقاً وظهور كتاب بوب نفسه .

ان كتاب « بوب » يطلق افقاً السنياً جديداً وحقبة لغوية بكراً ، فهو يشير الى بدايات البحوث الفعلية والدقيقة ، تلك التي تعتمد مقارنة نصوص قديمة ومختلفة جداًمنطلقا لها ، وما سعت اليه هذه الأبحاث انما كان قائماً على بناء تطابقات بين اللغات ، وبلغة اخرى تشييد علاقات حقيقية ومنتظمة ، أياً كانت ، صوتية ام صرفية ، وهي تهدف فيما تهدف اليه اثبات وجود اصول وراثية فيما بينها . هذا ، واذا ما تساءلنا عما جاءت به من جديد وخطير قياساً الى بحوث القدامى فاننا نجد أن الباحث يحاول بطريقة او بأخرى معرفة حقيقية لأصل الأسرة اللغوية وتطورها يسانده في ذلك منهج السني صرف بعيدا عن وثبات الخيال او طرائق التفسير الميتافيزيقي ، وفي طوقنا تبيان ما بين الانكليزية والألمانية من تشابه كبير شكلا ومضمونا عبر الامثلة التالية :

mother : Mutter .brother : Bruder. son : Sohn. must : Muss. six : Sechs. seven : sieben.... (أي : ام ، اخ ، ابن ، وَجَبَ ، ست ، سبع . .)

وفي الحق ، ان اكتشاف السنسكريتية يتفق وانتشار الدراسة المقارنة وخاصة في العلوم الطبيعية اذ درجت العادة آنذاك على اقتراض مبادئها وطرائقها ، وقد كان النموذج البيولوجي هو المطبق على اللسان طوال خمسين عاما ، : ان اللغات هي اجسام حية تولد وتنمو وتموت . هذا ، ومما تجدر الاشارة اليه هو ان الكلمة التي اهتزت بها شفاه الالسنيين وكتبهم انما هي كلمة جسم لا كلمة منظومة ولا بنية .

ان المكتسب الاكثر اهمية وخطورة الذي تمخضت عنه هذه الحقيقة هو صياغة المبادىء والمناهج المستخدمة لبناء الأسر اللغوية ، واهم من ذلك تشييد نظرية عامة للعلائق القائمة بين اللغات وللتغيير الالسني .

ربما يقودنا اغواء التساؤل الى ما يمكن ان نلقيه على الالسنية المقارنة من تبعات ومثالب ونواقص ، اذا قدر لهذه او لشيء منها ان يحدث .

باقتضاب شديد يمكننا ان نضع ايدينا اولاً على الطابع التجزيئي للوثائق المحللة ، وعلى كل ، فاذا كان حجم هذه الاخيرة هاما ، فان المقارنة لم تكن تتم الآ عبر اجزاء محددة من اللغة وخاصة على مستوى الكلمات والصرف والنحو . وفوق ذلك يمكن ان نشير الى ان أوجه الشبه هي ما كان يثير ويقوي الباحث لانقاط التباين والاختلاف .

ان الأمر الثاني الذي يمكن اخذه على الالسنية انما هو غياب تحديد حقيقي للحقبة الزمنية المدروسة ومن هنا ، فقد كانت المقارنات تبدأ بنصوص متباينة زمانا ومكانا الى حد مذهل ، كأن تتم مثلا بين سنسكريتية الألف الأول ويونانية القرن الثامن ولاتينية القرن الخامس (قبل الميلاد) مع غوطية القرن الرابع وسلافية القرن التاسع وفارسية السادس عشر في عصرنا هذا .

1.1.3 الألسنية التاريخية

قديما أبرز الالسنيون المقارنون تطابقات نظامية جزئية بين أصوات كلمات متعادلة في لغات مختلفة ، ومع الالسني الدانماركي راسموس راسك R. Rask (١٧٨٧ - ١٨٣٢) ومن بعده الالماني جاكوب غريم Jacob Grimm (١٧٨٥ - ١٨٦٣) أمسى التحليل المنهجي والتاريخي لوقائع اللغات ضرورة ملحة ، وفي عام ١٨٢٢ كشف غريم واحدا من أشهر القوانين الصوتية ، وهو معروف باسمه أي بـ « قانون غريم » وهو يذهب الى تفسير التطابقات القائمة بين اللغات الجرمانية عبر تحول طارىء عليها في فترة سابقة على تاريخها ، كما أنه يعقد علائق نظامية بين تطور الصوامت الهندواوروبية في اللاتينية واليونانية والسنسكريتية .

ولاقامة علائق القربى بين اللغات ، لم تكن القواعد المقارنة تأخذ في حسابها العمر التاريخي للحالات اللغوية المدروسة ، وعلى كل ، وفيما يخص بعض اللغات الجرمانية ، فان نصوصا موزعة على خمسة عشرةقرنا كانت واقعة تحت يدي القواعد المقارنة (من القرن الرابع وحتى التاسع عشر) ان هذا التسلسل الزمني كان داعيا

الى زحزحة وتغيير منظور الابحاث ، وهكذا تم الانتقال من دراسة القوانين التي كانت ترصد مرور حالة لغوية في لغة ما ، الى حالة اخرى تالية عليها حتى غدت هذه القواعد المقارنة الألسنية التاريخية ونعني بها : دراسة التطور المستمر للغات .

من الملاحظ انه في حيز الحركة العامة للعلوم والمعارف ان العلم الذي يمسح زمنا ما ويهيمن عليه انما هو نفسه الذي يطبع ويسم بميسمه العلوم الأخرى . ومن هنا ، ومع القواعد المقارنة كان البحث الالسني يتجه نحو العلوم الطبيعية ، ومع الأخرى التاريخية كان يحدق في التاريخ ، ذلك ان هذا الاخير (علم التاريخ) قد أمسى العلم الرائد في فكر ذلك الزمن ، ثم سرعان ما أصبح مركز ومحرق الاهتمامات الالسنية . ومع كل هذا لم تعد اللغة تشبه بجسم بيولوجي كما كان الأمر مع القواعد المقارنة ، بل غدت تشبه بمؤسسة ، بعلم تاريخي .

وهذا الانتقال من النزعة المقارنة الى النزعة التاريخية تم بين السنوات ١٨٧٦ - ١٨٨٦ مع مدرسة النحويين المحدثين néo-grammairiens فما هو اسهام هذه المدرسة الالسني ؟

انه لمن الممكن تمثيل المكتسبات الالسنية الجديدة بمواضيع ثلاثة : القوانين الصوتية ، الصفة التاريخية للالسنية واللجوء الى علم النفس .

1.1.3.1 القوانين الصوتية

كان غريم قد أقر ان قانون التحول الصوامتي الذي ابرزه لا يطبق بشكل تام . وعلى العكس من ذلك ، فإن النحويين المحدثين يؤكدون ان كل تغير صوتي يمكن تفسيره بقوانين لا تتضمن اي استثناء ، وذلك استنادا الى طروحاتهم على الطبيعة العامة للغات القائمة على تصورات وضعية وآلية . وصاغ فيلهلم شيرر Wilhelm Scherer المبدأ على هذا النحو : « ان التغيرات الصوتية التي بوسعنا ملاحظتها في وثائق التاريخ الالسني تصدر عن قوانين ثابتة لا تقبل تغيرات الا بالتوافق وقوانين اخرى ، » وهذا الطرح حول شمولية وثبوت القوانين الصوتية كان آنذاك موضع نقاش .

1.1.3.2 الالسنية علم تاريخي

ان الطرح الثاني لمدرسة النحويين المحدثين كان يقدم الالسنية كعلم تاريخي . وطرح هرمان بولH.Paul (١٨٤٦ ـ ١٩٢١) ان «دراسة اللسان العلمية والوحيدة هي الطريقة التاريخية » وان « كل دراسة السنية علمية لا تكون تاريخية في اهدافها وفي مناهجها لها ان تفسر وحسب ، إما بتقصير الباحث وإما بنقص المصادر التي يملكها » وتتفق هذه الفرضية وانتصار التاريخ الذي كان يعتبر اذ ذاك العلم الرائد في فكر القرن التاسع عشر .

وقد أدى تصور اللغة العام كنتاج تاريخي يمكن تحليله من وجهة نظر تاريخية قائمة على منهج وضعي انطلاقا من جمع استنفاذي للوقائع ، نقول : أدى هذا التصور الى تشتت الدراسات الالسنية ، غير ان حصيلة المنهج التاريخي ذاك إنما هي ذات شأن وأي شأن ! اذ انها ساعدت اوسمحت للالسنية بأن تتكون كعلم ، وان ترفض كل تفسير ذاتي وكل خيال تأثيلي .

1.1.3.3. اللجوء الى علم النفس

والطرح الاخير لمدرسة النحويين المحدثين هو اللجوء الى علم النفس . وهذا المنحى بدأ يبرز بعد ان اخذ علم النفس يحتل مركزا اكثر فأكثر اهمية في العلوم الانسانية . وفي نظر الالسنيين ، ان علم النفس هو اداة بحث مقبولة ، تمكنهم من معارضة المنطق القديم لتحليل العلاقات بين اللغة والفكر . عندئذ بدأ الالسنيون يقترضون فرضيات علم النفس وتركيباته ونتائجه ، تماما كما تقترض اليوم العلوم الانسانية من الالسنية . هذا وقد كان التشديد يتم على العوامل النفسانية للفرد .

1.2. الالسنية والقواعد

القواعد والالسنية الحديثة مفهومان يجب عدم الخلط بينهما خاصة إذا ما عرفنا

ان هناك نزاعا مضمرا بين النحويين (المعلمين) والالسنيين اذ يعتقد النحويون ان الالسنية انما تهدف الى تدمير القواعد ورفض حصيلة عشرين قرنا من التفكير اللساني . ولاسباب علمية فإن الألسنيين ينزعون الى زيادة حدة الفوارق ونقاط الاختلاف بين القواعد والألسنية . غير أنه ليجدر بنا تجاوز هذه الرؤية ، طلبا للتأكيد على المساري الطبيعية بين الواحدة والأخرى .

ولكن ما القواعد ؟ انها كلمة شائعة يصعب ـ على سهولتها ـ تحديدها اذ انها تكتنف تعاريف شتى . وفي المعنى الشائع والتقليدي هي الدراسة التي تسعى لاظهار ترتيب الكلمات في الجمل ، وفيها نميز مجالين اثنين : الصرف والنحو فالصرف يهتم بدراسة اشكال الكلمات وصيغها (الاعراب والاشتقاق) بينما يعمد النحو الى وصف العلاقات بين الكلمات وقواعد بنائها .

لا شك ان لمصطلح القواعد قيمة تخفيضية ، لا بل ويحتوي احيانا تضمينات دونية (وخاصة عندما يشير الى القواعد المعيارية) وهذا الموقف الذي يفسر جزئيا الخلاف بين الألسنية والقواعد ، ـ ناجم من اعتباره القواعد غير علمية ، ذاتية ، معيارية ، ناقصة وهي تقتصر على الكتابات الأدبية وعلى استعمال يحدد بالرجوع الى طبقة اجتماعية معينة من المتكلمين . وبالمقابل ، فإن الألسنية تظهر كمنحى علمي ، موضوعي ، وصفي يدمج في دراسته الاشكال الشفهية للغة ، ويحدد غرضه ومناهجه بوضوح ، ويسجل جميع الوقائع اللغوية المعاينة ويحللها دون أي استثناء ، جماليا كان ام اجتماعيا .

وهدف القواعد تعلم اللغة ، غير ان القواعد التقليدية والحال هذه ، لا تقدم تحليلا متماسكا كافيا للمنظومة اي للغة ، وغالبا ما يغيب الأمر المهم وراء سلسلة ملاحظات يصعب على القارىء الكشف عن الخيط الرابط بينها ، هذا ان قدر لهذا الخيط ان يوجد .

وعلى كل ، تظل القواعد المعيارية ، في أيامنا هذه ، جانبا أساسيا وأصيلا في تعليم اللغة في المؤسسات التربوية المدرسية . غير ان القطيعة مع القواعد جاءت مع فرديناند دو سوسير اذ كتب : « بدأ الموضوع بما يسمى بالقواعد grammaire وهذه

الدراسة التي شيدها الأغريق وتابعها الفرنسيون من بعد ، تعتمد المنطق بشكل جوهري ، وهي خلو من أية نظرة علمية سامقة على اللغة ذاتها ، وتهدف الى تقديم قواعد لتمييز الصيغ السليمة من غيرها . إنها منحى معياري بعيد جدا عن الملاحظة الصرف وله رؤية ضيقة محدودة . » (2)

بيد ان تأكيد سوسير هذا لا يمكن قبوله حاليا من دون ابراز بعض ظلال من الفروق المتأتية بفعل التطورات النظرية الحديثة . ولا شك أنه بفضل اعمال نوام شومسكي ظهر ولوع متجدد تجاه دراسة القواعد المعيارية .

وعلى كل حال فإن الالسنيين قد تبنوا موقف سوسير تجاه القواعد المعيارية ، مع ان نقدهم ينصب مرة الى طرق التحليل فهي (غير صريحة ، تعاريف غير دقيقة ، تفسيرات ذاتية) وأخرى إلى طرق الوصف ونعني بها ـ طرق التحليل والوصف ـ تلك التي تستعملها القواعد التقليدية (وصف قائم على خيار اعتباطي وضمني ، يقتصر على مجموعة فرعية من اللغة ، ويولي اهتمامه معايير اجتماعية وثقافية ، وهو فوق ذلك منصب ايضا على اللغة المكتوبة) .

وهكذا ، وإزاء المجموعة الأمرية (صحيح / غير صحيح) التي تتشكل منها القواعد المعيارية هناك المجموعة الوصفية التي تقترحها الألسنية . غير ان الألسنية لم تزح تماما دراسة النواحي التقليدية لتحل محلها بشكل كامل . إذ مازال الناس وحتى يومنا هذا ينهضون بابحاث منوطة بالقواعد المقارنة وبالقواعد التاريخية او حتى بفقه اللغة .

1.3. الالسنية وفقه اللغة

كثيرا ما يتحدث الدارسون عن الالسنية وفقه اللغة philologie وكأنهما شيء واحد ، وليس هذا بصحيح اذ ليسا بمترادفين . وهما فوق ذلك ، لا يقيمان الروابط

(2) فردينان سوسير : «محاضرات في الالسنية العامة» نعتمد فيما يلي الترجمة العربية وهي للدكتورين يوسف غازي ومجيد النصر ، دار نعمان للثقافة ، جونية لبنان ١٩٨٤ ص ١١٢ .

نفسها مع العلوم ذاتها . ونحن نرى ان هذا التمييز واجب وحتمي ذلك ان الالسنية قد تطورت في نهاية القرن التاسع عشر بينما فقه اللغة أقدم منها بكثير إذ نشأ في عصر النهضة كواحد من العلوم الانسانية الأولى ، ثم سرعان ما انفصل عن كوكبة هذه العلوم كمنحى مستقل بنفسه في نهاية القرن الثامن عشر .

وفي عام ١٧٧٧ وضع فردريك اوغست ولف F.A.Wolf ما يعرف بالنقد المقارن للنصوص القديمة ، هادفا إعادة بناء تلك النصوص وتفسيرها . وفوق ذلك ، وتحت تأثير الحركة الرومنسية التي استقطبت الماضي بحضاراته ، استطاع فقه اللغة هذا ان يتطور وحلمه الكبير ان يسعى الى تفسير جماع الآثار الادبية القديمة وبناء بعض جوانب العادات والحضارات التي تشهد عليها هذه الآثار . ان هذه الدراسة لم تكن لتمت الى الالسنية بأدنى صلة ، وشفيعنا في ذلك ، ان تلك الدراسة الالسنية لم يكن في طموحاتها العكوف على اللغة من حيث هي لغة بل قد اتخذت النصوص مجالا لها ، فضلا عن وقوفها على لغة الادباء والكتاب بغية اكتشاف الغازهم النفسية ، وسحرهم الادبي بله تفهم تكون مؤلفاتهم بشكل افضل . زد على ذلك ، ان اهل فقه اللغة لم يكونوا يعيرون اللغة المحكية ادنى اعتبار ، اذ انها ليست من همومهم ، ان اللغة المكتوبة وحدها هي المستراح الخصب الذي أشرعوا عليه راياتهم اللغوية وحسب .

اننا نطلق حاليا مصطلح فقه اللغة على العلم التاريخي الذي يسعى جاهدا الى تشييد صحة الوثائق وأصالتها ، ثم ان بين يدي « فقيه اللغة » مجموعة طرائق هدفها تحقيق النصوص التي يعمل عليها بحثه : تأريخ ، فك رموز بعض الكلمات ، مقارنة النصوص بعضها ببعض بما لها من نسج مختلفة ، كما تزود هذه الطرائق النص بجهاز ارجاعي يساعد على قراءته وآخر نقدي يحقق أصالته .

هكذا تختلف الالسنية عن فقه اللغة وتباينه ، وهذا الأخير (فقه اللغة) يسعى فيما يسعى إليه إلى ارجاع النصوص إلى الزمن الذي تنتمي إليه كما يضع نصب عينيه الأصول والتأثيرات ومناخ العصر ، عاملا في كل هذا وذاك على اعادة النصوص إلى حالتها الأولى وكشف التشوهات ، ان وجدت ، وتبيان اهميتها .

أما الالسني فمجاله يغاير الاول كليا ، ومن هنا إذا نجد أن الألسنية تعكف

على دراسة اللسان دراسة الاشياء الحسية وتطمح إلى وضع علوم اللسان القديمة في دائرتها ونعني بذلك القواعد ، فقه اللغة والتصويتية phonologie

1.4. الالسنية البنيوية

وفي هذا المناخ العام (نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين) برزت تساؤلات جديدة سرعان ما طرحت على ساحة التفكير الالسني . كيف تعمل اللغة ؟ ما واقعها ؟ ما طبيعة الواقعة الالسنية ؟ كيف تبقى اللغة هي نفسها مع تبدلها ؟ ما علاقة الاصوات بالمعنى ؟

لقد أظهرت الالسنية التاريخية عجزها عن الاجابة عن هذه التساؤلات وذلك وببساطة لأنها لم تطرح قط مثل هذه الاشئلة .

وفي الوقت نفسه ، ابدى الالسنيون اهتماما باللغات غير المكتوبة ، اي تلك التي ينقصها تاريخ ، وخاصة اللغات الهندية الامريكية . ونتيجة لذلك ، اكتشفوا ان الأطر التقليدية المستخدمة لدراسة اللغات الهندية الاوروبية لا تصلح للتطبيق على هذه اللغات الشفهية كما ان غياب وصف تاريخي لهذه اللغات قادهم الى اقامة منهج تحليل جديد ومجموعة تعريفات جديدة ايضا .

وعبر تاريخ الالسنية ، فان التطور لم يتم بشكل خطي متواصل . فتقدم هذا العلم عرف روادا ومتأخرين ، واذا ما بسطنا الموضوع قلنا ان ألسنية متأثرة بقوة بنجاح العلوم الطبيعية ، ثم بالتاريخ ، قد افسحت المجال لألسنية أخرى وضعها قدوم علم النفس ثم علم الاجتماع في مصاف العلوم الطليعية .

1.4.1 وأخيرا جاء سوسير

بعيدا عن أي تردد ومساومة نقول إن فردينان دوسوسير (١٨٥٧ - ١٩١٣)

هو وحده مؤسس الالسنية الحديثة . فهو بحق وجدارة حامل هذه الرؤية الالسنية وذلك منذ ان جمع طلابه المحاضرات التي القاها عليهم ، وقد قدر لها ان تنشر فيما بعد عام ١٩١٥ تحت عنوان « محاضرات في الألسنية العامة(3) .

لقد انتشرت آراء سوسير انتشارا بعيدا وشعبيا ، ولكن وعلى الرغم من دعوانا السابقة بأن سوسير هو مشيد هذا العلم فإننا حراص كل الحرص أن نشير الى تأثير الآخرين فيه . فمنهم مثلا ميشيل بريال Michel Bréal (١٨٣٢ - ١٩١٥) الـذي ترك بصمات راسخة في كتابة سوسير . وفوق ذلك لا بد من الالماح الى التيار السوسيولوجي الذي يمثله دوركهايم Durkheim باعتباره كان السائد آنذاك ، ثم تيار علم النفس الجماعي ممثلا بـ تارد Tarde ان كل هؤلاء كان لهم - ولا شك - مسارب في اعمال سوسير الالسنية ولكنه هو الذي جمع خيوط المسألة الالسنية في كتابه المشهور .

وقصارى القول : ان اهم ماتميز به القرن العشرون هو الرجوع إلى نبع الالسنية العامة ، وبمعنى آخر العودة إلى تعميات وشموليات حول اللغة مع اعترافنا هنا ان سوسير وحده من كان قادرا وجريئا على تقديم محاضرات في الالسنية العامة .

اننا لا نريد أن نوغل في مجاهل البعد التاريخي للمسألة إذا ان لنا عودة أخرى يوم نتحدث عن المدارس والمذاهب الالسنية (أ . 15) .



(3) تمت ترجمة هذا الكتاب ونشرته « دار نعمان للثقافة » راجع الحاشية رقم 2 .

2.
اللســـان والتـــواصـــل

2.1 فائدة اللسان

رأينا سابقا أن الألسنية هي الدراسة العملية للسان ، ولكن علينا بادىء ذي بدء أن نتفق على ما نعنيه بهذا المصطلح : اللسان . وفي الواقع ، انه انطلاقا من تعريف صحيح للمصطلحات يمكننا تشييد الألسنية على أسس سليمة وتفهمها تفهما دقيقاً .

وبهذا الخصوص فان خير عمل نقوم به هو استشارة مختلف المعاجم والكتب التي تناولت تعريفه ، وانطلاقا من هذا نجد أن أكثرها كان يحوم حول المعاني التالية :

- «ان اللسان المحكي ليس طبيعياً بالقياس الى الانسان ، بل القدرة على تشكل لغة ما ، أي منظومة من العلامات المتميزة مماثلة لأفكار متميزة» (فردينان دوسوسير ، «**محاضرات في الألسنية العامة**») .

- «كل منظومة علامات قابلة أن تستخدم كأداة تواصل بين الأفراد» (ماروزو ، Marouzeau : «**معجم مصطلحات الألسنية** ») .

- «اية وسيلة للتعبير عن أفكار» **معجم لاروس القرن العشرين**

- «كل منظومة علامات يمكن استخدامها كوسيلة تواصل» (لالاند Lalande : **مفردات الفلسفة التقنية والنقدية**») .

- «أية أداة تواصل بين الكائنات الحيّة» (جسبرسن Jespersen : **الموسوعة البريطانية**») .

واذا ما توقفنا عند هذه التعاريف وتفحصناها مليا ، لتبين لنا ولاستنتجنا

بشكل مشروع أن مجال اللسان يبقى مفتوحا على جميع التظاهرات الاجتماعية . ومقاربة كهذه فيها شيء غير قليل من التسامح وهي تُدخل في اللسان أنماط تعابير مُعدة ومجهزة الى حد ما . وهكذا ، فالرسم والموسيقى والنحت وقانون السير ، واحتفالات الزواج ، ورقص النحل وصراخ العصافير والحيوانات قد تشكل لساناً .

وفي الواقع ، إن أنماط اللسان هذه ليست من طبيعة واحدة ، على الرغم من احتوائها بشكل مباشر أم غير مباشر ، على مدلولات . عندئذٍ ، يبدو من الممكن تصور نمطي لسان أو نمطي تواصل communication : الأول حيواني والآخر بشري .

2.2 التواصل الحيواني

اذا كان للحيوانات قدرة على إصدار أصوات وعلى تنفيذ حركات معينة تساعدها على تلبية حاجاتها ، فهل لنا أن نقول : ان الحيوانات تتكلّم ؟

ان النشاط العصبي الأعلى عند الحيوان ، وهو مصدر ردود فعل تشكل سلوكه ، انما يرتبط ارتباطا وثيقاً بالاوامر الصادرة عن الجهاز الحسّي . وهكذا نرى أن ردود الفعل عند الحيوان انما هي استجابة لرسائل معينة هي فطرية ، بمعنى ان الحيوان ينفذّها دون تعلّم مسبق وذلك تبعا لخواص جهازه العصبي ، وهذا ما نطلق عليه اسم الارتكاسات الفطرية réflexes innés . ليس لنا الدخول هنا في تفاصيل هذه الاليات ، ويكفينا معرفة أن الجهاز العصبي عند الحيوان يجعله قادرا على الاستجابة بشكل سليم على الرسائل ذات الدلالة والردّ عليها .

ومن بين استجابات الحيوان للرسائل الخارجية ، يمكننا التمييز بين ردود الفعل السمعية كالصراخ والغناء . ولكن وعلى العكس من اللسان البشري الواجب تعلّمه ، فان «لسان» الحيوان فطري . وهكذا فالأطفال الذين تلتقطهم الذئاب غير قادرين على تكلم لغة أهلهم البشرية ، في حين أن الحيوانات التي تعيش ضمن

المجتمعات البشرية تستطيع اصدار الاصوات والصراخ وتنفيذ حركات لسانها الخاص بشكل غريزي .

ثمة تشابهات بين الانسان والحيوان . فنحن عندما نكون في بلد أجنبي لا نفهم لغة أهله ، نجد أنفسنا عاجزين عن تبادل الافكار التي تعتبر اللغة ضرورية لها . وبالمقابل ، يمكننا القيام بحركات وباشارات ايمائية لِنُفْهِمَ من حولنا مشاعرنا أو حاجاتنا الاساسية . وهذه الحركات والاشارات الايمائية والتي تشكل لساناً شاملا قريبة من اللسان البشري .

بيد أن اللسان البشري يتميّز بشكل جوهري عن اللسان الحيواني . فعلى صعيد إصدار الاصوات ، ان اللسان البشري مُتمفصل articulé ويتضمن أصواتا عديدة أو صوتيات phonème وهذه الاصوات تصدر بفعل التغيرات التي تطرأ على المناطق الفمية والحلقية . أما عند الحيوان ، فالجهاز الصوتي يبدو على العكس من ذلك محدداً جداً وغير قادر على التقليد الصوتي .

ولكن اللسان البشري هو ـ خصوصاً ـ أداة رمزية تساعد الانسان على تسمية وتعيين الاشياء من حوله ، وفي عالمه الخارجي . واللسان لم يعد مجرد واسطة اتصال ، بل أصبح أداة للفكر . وهكذا ، فلقد انتقل الانسان من الاشارة الخارجية الى حياة الفكر ومن البرهنة الحسيّة الى التفكير المجرّد .

2.3 التواصل البشري

أن نُطبق اذن مفهوم اللسان على الجنس الحيواني فذلك يشكل سوء استعمال المصطلح . اما فيما يتعلق بالتواصل البشري فباستطاعتنا ان نقسمه الى نمطين اثنين : تواصل غير ألسني (أو غير لفظي) وتواصل ألسني (أي لفظي) .

2.3.1 التواصل غير الألسني

يعيش الانسان العصري في عالم مملوء بالدلالات التي تجذبه من كل حدب

وصوب ، وذلك بفعل الرسائل المختلفة التي تصل اليه في كل لحظة . ويكفينا ان نتجول في شوارع باريس مثلا أو أي عاصمة اخرى لنلمس وجود هذه الرسائل : اشارات المرور الكهربائية ، الصليب الأخضر الذي يرمز الى الصيدلية ، والريشة البيضاء التي تدّل على دكان بائع صحف ومجلات وقرطاسية ، والمعين الاحمر الذي يشير الى مركز بيع دخان وسجائر الخ . .

وانطلاقاً من هذه الامثلة ، لنا منذ الان ان نتحدث عن وجود دال ومدلول . فالدال هو كل عنصر يجعل «ظهور الدلالةعلى مستوى الادراك»ممكنا (4) . وفي هذه الأمثلة ، فان الدوال التي هي اللافتات المضيئة تكون اصطناعية ، والمدلولات هي محتوى الرسائل (الصيدلية ، القرطاسية ، الدخانية ، الخ . .) في حين أن الدوال تمثل الحاوي .

غير أن شكل التواصل هذا ليس منفردا وحيدا . وفي الواقع هناك دائما منظومات تواصل أخرى تُصاحب اللغة وترافقها . وفي بداءة الأمر ، بوسعنا التحدث عن منظومة الحركات التي تشكل دراسة الحركيّة Kinèsique أو لنقل الحركاتية. ان لك شعب حركات جسدية ويدوية خاصة به ، ومن هنا فان الحركات التي يقوم بها على سبيل المثال سكان منطقة الشرق الاوسط هي أكبر عددا وأكثر تعبيرا من تلك التي يقوم بها الباريسي مثلاً . وهناك أيضا لغة الصم والبكم وهي مجموعة من الحركات تُستخدم اليدان لأدائها . والى جانب هذه اللغة البصرية ، ثمة لغة لمسية ، لغة المكفوفين ، البراي braille وهي عبارة عن الفباء اتفاقي يستخدم نقاطا نافرة هي بمثابة حروف .

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى ، فان بعض سمات الحضارة قد تصبح علامات مشكلة بذلك «لغة» ، مثال ذلك اعداد الدجاجة الرومية لطعام غذاء عيد الميلاد في التقليد المسيحي ، او الخروف في عيد الأضحى عند المسلمين .

---

(4) A. J. Greimas : Sémantique structurale , Paris , Larousse 1966, P10 أي «علم الدلالة البنيوي» .

2.3.2. التواصل الألسني

ولكن لِم لا تدرس الألسنية هذه اللغات كافة ؟ بكل بساطة نقول لأن الألسنية الحديثة تقيم تمييزا جوهريا بين هذه اللغات جميعا انطلاقا من معيار التواصل : ان كل ظاهرة تُنتج بقصد إقامة تواصل تعود الى دائرة اختصاص الألسنية . وبقولنا أن الوظيفة الاساسية للغات الطبيعية البشرية هي الوظيفة التواصلية ، فاننا نستنتج أن الألسنية لا تولي اهتمامها الا هذه اللغات البشرية **والعلاقات الألسنية. ولكن السؤال الذي يبرز هنا هو: في أي علم تتموضع دراسة** العلامات الأخرى تلك التي ليست من الألسنية بشيء ؟



3.
الأعــــراضيــــة ، الســـيميـاء والألســــنيــة

تسوقنا جدوى البحث وإغراء الدقة والحذر ان نحـدد قبليا بعض المفـاهيم والتصورات التي تسهم في إجـلاء العلاقـات القائمـة بـين الألسـنية والأعـراضية والسيمياء ، وذلك قبل أن نطمح الى تبيان ما يوجد من تباين واختلاف بـين هذه العلوم مجتمعة .

3.1 الاشارة والدليل

يرى الأكثرون من أهل العلم والاختصاص اللغـوي ان الاشـارة Signal ، بحسب المفهوم العام ، هي واقعة ممكن ادراكها ، ونتاج اصطناعي منـوط بشيء أو بحالة ما ، هدفها تقديم بعض الايضاح . اننا نرى في الاشارة حدثاً تواصـليا اذا كانت ترمي الى ابلاغ مستقبلها خبرا أو شيئا مجهولا لديه ، فتواصلي اذن انما يعني «ماله معنى ما بالقياس الى المُرسل» وربما وجدنا في اشـارات الطـرق والاشـارات البحرية أمثلة مشرقة عليها ، فاللافتة المثلثة الشكل وفيها رسم تلميذ انما تشير الى وجود مدرسة قريبة من المكان .

ويميّز لويس بريتو Luis Prieto المغزم بدراسة الاشارات (5) ، يميز بين الاشارة والدليل ، فالدليل indice ان هو إلاّ «واقعة يمكن ادراكها بشكل مباشر وبها نتعرف الى واقعة أخرى مختلفة عن الأولى اذ أن ادراكها يتم بشكل غير مباشر» (6) وهـو

---

(5) Luis Prieto : Messages et signaux, Paris, P. U. F 1966 , 1689 «الرسائل والاشارات» .

(6) Sémiologie in le langage , La Pléiade 1968 , P95

أيضا نتاج طبيعي مرتبط بشيء آخر ، في حين نجد أن الاشارة ليست كذلك ، فهي «واقعة ونتاج اصطناعي وتستخدم كدليل» (7) ولنا من أسداف الغيوم المتجمعة كتلا في السماء والموحية بهطول مطر قريب مثال عليه ، وفوق ذلك يتم تحديد الدليل وتعريفه معا وفقا لآلية التوضيح : فهو ما يقدم توضيحا ما ، ومن هذا القبيل نقول ان الدخان هو دليل للنار ، ومثله المثل المعروف «لا دخان بلا نار» ، وفوق هذا وذاك فإنه ينشىء علاقة تجاور مع الواقع الخارجي ، وهذه العلاقة تبين بوضوح أن الصلة بين الدليل وما يدل عليه هي واقعة تجربة ليس للانسان فيها أي أثر أو دخل .

3.2 الرمز والايقونة

اذا اخذنا بمصطلح الفيلسوف شارل بيرس Ch. Peirce نجد أن التمييز بين الرمز والايقونة يُبنى على طبيعة العلاقة القائمة بين العلامة والواقع الخارجي .

ان الرمز symbole اشارة اتفاقية أو لنقل اعتباطية ، تربط بين عنصرين اثنين ، وهو لا يتغير ولا يتزحزح ولا يتبدل عبر الثقافات التي تكتنزه ، ومن هنا نرى ان الميزان رمز للعدالة في بعض الحضارات ، وان الأفعى والكأس رمز للصيدلية الخ . .

اما الايقونة icône فهي علامة ذات علاقة تشابه مع الواقع الخارجي ، وهي تمنح الشيء الذي تشير اليه ما تمتلكه من مواصفات وسمات ، ومثال ذلك : ان رسم كرسي هو ايقونة بالقياس الى الكرسي الذي يمثله هذا الرسم ، وفضلا عن هذا فهي ترتبط بتشابه طبيعي ، هندسي ووظيفي مع العلامة والشيء الذي تدل عليه . ومن هنا نقول انها ـ الايقونة ـ علامة معللة ، ثم ان معلل يعني ان شكلها ليس محض مصادفة ، كبقعة دم رامزة للون الأحمر مثلا والاخرى السوداء للون الاسود الخ . .

---

(7) المرجع نفسه ص96 .

3.3 العلامة الألسنية

كما الاشارة والدليل والرمز ، تشير العلامة signe وذلك بالمعنى العام ، الى أن عنصر آ ذا الطبيعة المتنوعة يمكن أن يتموضع محل عنصر ب ، وهذا التموضع ليس بأكثر من عملية ابدال اذ أن العنصر آ يلعب دور البديل للعنصر ب .

وانطلاقاً من هذا المعنى العام يمكن للعلامة ان تساوي الاشارة والدليل والرمز ، أما عندما نتحدث عن العلامة ، من وجهة نظر ألسنية ، فاننا نريد بها العلامة الألسنية تلك التي تتبدى أكثر تعقيدا من الاشارة والدليل والرمز والايقونة ، **انها تتشكل بفعل سلطان الترابط بين صورة سمعية تدعى الدال وتصوّر يدعى بالمدلول . اننا لن نبحر في هذا المجال هنا اذ ان لنا عودة الى كل هذا وذلك حينما سنتحدث عن خصائص العلامة الألسنية (انظر 6.2.)**

3.4 الأعراضية ، السيمياء والألسنية

إن لفي طوقنا الآن ، وذلك بعد أن عرّفنا ضربا من هذه التصورات العملياتيّة ، ان نحاول تعريف الجوانب التالية : الأعراضية ، السيمياء ، والألسنية .

يمكننا القول على ضوء ما تقدم من فوارق وميز إن الاعراضية sémiologie إن هي الا المنحى او لنقل الاختصاص الذي يتخذ من منظومات التواصل غير الالسنية مادة لدراسته ، اننا نعني بذلك المنظومات التي تعمل بفعل الاشارات والرموز والايقونات .

ان الالسنية linguistique هي العلم الذي يشغل بدراسة علامات اللغة ، وفي نظر سوسير ان اللغة «منظومة من العلامات التي تعبر عن فكر ما ، وهي - هنا - تشبه الكتابة وابجدية الصم والبكم والطقوس الرمزية ، وضروب المجاملة ،

والاشارات العسكرية الخ . . . انها وحسب أهم هذه المنظومات على الاطلاق» (8) .

هذا ، وبوضعه اللغة عبر مجموعة منظومات علامات فإن سوسير قد عرف وحدد في وقت واحد مشروعه لبناء اعراضية : « يمكننا اذن تصور علم يدرس حياة العلامات في صدر الحياة الاجتماعية وهو يشكل جانبا من علم النفس الاجتماعي ، وبالتالي من علم النفس العام . أننا ندعوه بالاعراضية تلك التي تدلنا على كنه وما هية العلامات والقوانين التي تنظمها / . . ./ وما الالسنية الا جزء من هذا العلم العام ، ولعله من الممكن تطبيق القوانين التي ستكشفها الاعراضية على الالسنية ، وهكذا ترتبط هذه الاخيرة بمجال محدد بدقة في مجموعة الوقائع البشرية» (9) .

ثمة مصطلح آخر يتبدى واضحا إزاء ما يعرف بالاعراضية ، انه مصطلح السيمياء sémiotique الذي ربما يطرح شيئا من العقبات على مستوى المصطلح ذاته ، ذلك ان الفواصل والحدود بين الاعراضية والسيمياء غالبا ما تكون سديمية غير واضحة ، وفضلا عن هذا فإن ما يؤخذ به على انه سيمياء عند بعض اهل الاختصاص الالسني ليس سوى اعراضية عند غيرهم . وأحيانا يرى في المصطلحين عبر الاستعمال ، شيئا واحدا وبلغة اخرى مترادفين وخاصة عند اولئك الذين في نفوسهم ولوع لمذاهب الألسنية الامريكية .

وقصارى القول ، ان الاعراضية - كما نراها - تولي اللسان والمجتمع جل اهتمامها وبهذا فإنها تتجه الى دراسة المنظومة الالسنية وحدها . أما السيمياء فإن نطاقها أرحب وأشمل فهي تستقطب كل منظومات التواصل . وليس هذا بغريب اذ عرفنا أنه كثيرا ما يرى فيها النظرية العامة لكل منظومات العلامات التي لا تتصل بعلامات اللغات الطبيعية .

يبدو لنا - بعد كل ما قد فاض - ان الالسنية هي الاختصاص الذي يسهل تعريفه وذلك لكون غرضها - اللغة - محددا كليا ، على حين نرى ان نطاق السيمياء هو أقل وضوحا وأكثر غموضا من حيث المعالم التي تتمظهر فيها .

(8) «المحاضرات» ص ٢٧

(9) المرجع نفسه ص ٢٧

4.
آليـــة التـــواصـــل

4.1 ما التواصل ؟

ان نقول ان اللسان هو أداة تواصل انما نقر ببديهية مطلقة . فتعريف اللسان ذاته ينطوي ، فيما ينطوي عليه ، على مفهوم التواصل ، فضلا عن انه ليشق علينا تعريف اللسان دون ان نمر به أعني بالتواصل كمفهوم .

رأينا من قبل (أ . 1.1.2.) ان القواعد المقارنة كانت تنظر الى اللغة كجسم حي قابل للتطور عبر قواعد ثابتة . ولكن ومع التطورات التي شهدها علم الاجتماع مع كل ما تركته من أثر في الالسنية ، أمست اللغة مؤسسة اجتماعية وأداة تواصل متميزة لدى الانسان . ونتيجة لهذا انطلق الالسنيون يدرسون اللغة من حيث كونها آلية تبادل لا كشيء مستقل عن النشاط البشري .

ولكن ، ما التواصل ؟ انه ليس بأكثر من تبادل كلامي بين اثنين او لنقل ارسال معلومات بين هذا الذي يؤدي/ يرسل الكلام ، مُرسِل ، وذاك المخاطب الذي يستقبله . وفي هذه الحال ينظر الى التواصل لا بالمنظور الشمولي للمعنى ، بل على العكس بالمعنى الحصري له . ولن نتطرق الى انماط التواصل الاخرى (المواقف ، المشاعر ، الحالات النفسية الخ . . .) ، انما سنخصص هذا المصطلح لنقل المعلومات القصدي عبر منظومة اشارات . ومن البدهي ان اللغة فيما يخصنا تشكل اهم منظومة اشارات وتواصل .

4.2 نظرية التواصل

لا قبل لنا بالحديث عن بدايات نشأة البحوث التواصلية الا حينما ندلف الى

نهاية القرن التاسع عشر . لقد كانت دراسة الرياضيات والفيزياء ، تدور حول مفهوم « احتمالية وقوع حدث» والقدرة على قياسه .

لقد أفضت البحوث ، وذلك قبل الحرب العالمية الثانية ، والتي قام بها اهل الرياضيات والهندسة معا في الاتصالات السلكية واللاسلكية ، أفضت الى التعرف الى شيء من جوانب التواصل الألسني ، غير ان بلورة هذه البحوث المنوطة بنظرية التواصل لم تتم الا على يدي كلود شانون CL.Shannon بشكل خاص في نهاية الاربعينات .

4. 3. نموذج التواصل :

لا بد لكل آلية تواصل من نقل او ابلاغ رسالة من مُرسل يبثّها - يرسلها - إلىٰ آخر مستقبل لها . ان للمرسل وللمستقبل رامزة Code واحدة تسمح بابلاغ الرسالة المحددة . ان النموذج المطروح بين يدينا هنا ليس مقصورا علىٰ تواصل اللسان وحسب بل إنه مهيأ وصالح لكل آلية تواصل أيا كان نوعها .

كنا رأينا من قبل (أ . . 3 . 3) ان العلامة تهدف عبر وظيفتها الىٰ توصيل أفكار وتصورات ومفاهيم بفعل رسالة هي قيد الابلاغ . ان هذه الآلية التواصلية تفترض ولا شك شيئا نتحدث عنه ، انه المَرْجَع Référent وعلامات مرسلة ، ورامزة Code ، ووسيلة إرسال ، ومُرسل ومستقبل ؛ إذ يظل تحقيق التواصل الالسني باطلا ان لم توّفر هذه الأمور .

ولنا فيا بعد أن نجدول هذه العناصر التي ذكرنا ، من حيث كونها الشروط الواجب توفرها لتحقيق التواصل أيا كانت آليته ، اننا سنوضحها برسم أو نموذج (أ . الصفحة التالية) :

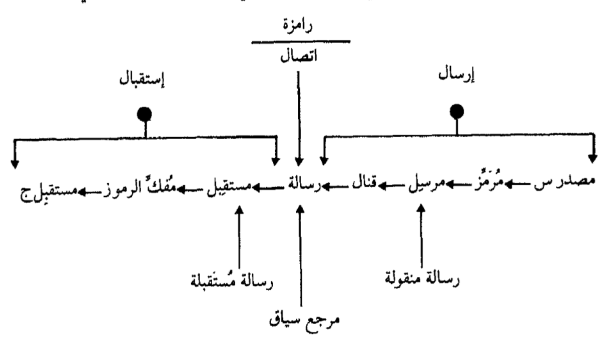
4. 3. 1. الرامِزَة Code :

ببساطة نقول : ان الرامِزَة هي مجموعة قواعد تنسيقية منوطة بمنظومة اشارات

نوعية ، اذ لا رسالة ولا ابلاغ من غير الاتفاق قبلياً علىٰ رامزة بين طرفي التواصل : المرسل/ المستقبل . هذا ، وفي اللغات الطبيعية ، تتكون الرامِزَة مما يَعرف بالصوتيات Phonèmes والصرفيات Morphèmes ، فضلا عن قواعد - قوانين - تُنسق داخلها هذه العناصر الألسنية . ولكن ماالعناصر الألسنية؟ إنها ببساطة، العلامات التي تتطابق والكلمات ، وما النحو سوىٰ جملة القواعد المُنسَّقة بين العلامات . واذا ما عمدنا الىٰ تعريف حصري للألسنية ، قلنا انها لا تولي اهتمامها إلا بجانب التواصل هذا .

Canal : القنال 4. 3. 2.

والقنال هو الواسطة التي يتم عبرها نقل اشارات الرامزة . إنه الحامِل المادي الذي يسمح بنقل الرسالة . وفي التواصل الشفهي ، يكون الهواء الذي تطرده



الرئتان اثناء الزفير هو القنال وتصل الأصوات التي تَصدر بهذه الطريقة الىٰ الأذن البشرية . غير ان القنال قد يتخّذ أشكالا أخرىٰ : الضوء ، النبضات الكهربائية

التي ينقلها شريط (كابلات كهربائية للبرق والهاتف) رقعة الذبذبات الاذاعية (نتكلم اليوم عن «القنال» فيما يخص التلفزيون) .

4. 3 . 3 . المُرسِل . Emetteur

وقد يتخذ أسماء مختلفة منها الفرد الناطق ، والمتكلم والمُرَمِّز . وهو مصدر الرسالة أي المكان الذي تنعقد فيه خيوط الرسالة وتكتمل ، مثال ذلك الدماغ البشري في حالة اللسان المحكي .

وفضلا عن ذلك ، ان مصطلح مرسل لا يطلق علىٰ الاشخاص وحدهم ، اولئك الذين هم منبع الرسالة وحسب ، بل يطلق أيضا علىٰ الأجهزة ، فالراديو يُعد مرسلا إذ انه جهاز مُرّمز يقوم بعملية الترميز ونقل اشارات ذات شكل وقوة ، أما الشكل فهو الموجات ، وأما القوة فهي الكيلو واط .

4 . 3 . 4 . الترميز Encodage

تتم عملية الترميز علىٰ مستوىٰ المُرسِل . ان وجود رامزة يَضمن فِهم الرسالة ، ولذا ، لا بد لأطراف التواصل ان يفهموا الرسالة . فإذا ما عبّر المتكّلم أو المُرسِل عن افكاره بالصينية مثلا ، وكان المستقبل الذي يُوّجه اليه الكلام لا يفهم هذه اللغة اي انه لا يعرف رامزة هذه اللغة ، تكون الرسالة بالنسبة لهذا الأخير مجرد تتابع اصوات (أو تشوّش صوتي في حال كون الرسالة شفهية) لا تحمل في طياتها أي معنىٰ . ونقول عن المُرسل انه المُرِّمز لأنه يختار ، ضمن الرامزة ، عدد وأشكال الاشارات التي تساعده علىٰ نقل رسالته بحسب قواعد هذه الرامزة . ويكون الترميز عندئذٍ العملية التي تقوم علىٰ تركيب الرسالة وتكوينها بالاستعانة برامزة ما .

4 . 3 . 5 . المُستقبِل Recepteur

فهو إما العنصر البشري ، شخص مثلا ، أو الجهاز الذي ينهض بآلية فك الرموز . هذا ، ولفهم الرسالة ، لا بد من المُستقبِل ، الذي يتخذ أيضا اسماء مختلفة بحسب موضعه في استقبال الرسالة ، فهو القارىء في حال مطالعة نص ما ، والمستمع حينما تكون الرسالة شفوية ، والمشاهد أمام جهاز التلفزيون أو في صالة سينما مثلا ، لا بد له من ان يتملك ويتمكن معا من قواعد الرامزة وقوانينها . هذا ، وفي حال التواصل الشفهي له ان يكون بدوره مرسلا والمرسل مستقبلا وبهذا الشكل يتم بينهما تواصل شفهي .

4 . 3 . 6 . فكّ الرموز . Décodage :

تتم عملية فك الرموز علىٰ مستوىٰ المستقبل ، وهي عملية تفسير الرسالة المُستقبلة ، بفعل قدرة المستقبل علىٰ ايجاد مولدلات الرسالة ، بالتعرف الىٰ العلامات ، وتنسيقها فيها ، هذا ، واذا استخدم المرسل في رسالته مفردات يجهلها المستقبل ، فإنها ـ عملية فك الرموز ـ تبطل إذ يعجز المستقبل عن تفسير أي معنىٰ من معاني كلمات الرسالة .

4.4. وضع التواصل Situation de Communication

ونعني به جملة الشروط الكفيلة بانتاج وافراز بيان ما بمنأى عن البيان ذاته ، وما هذه الشروط سوى المعطيات المباحة بين المرسل والمستقبل وخاصة فيما ينـاط بالسياق النفسي والمادي والثقافي . ذلك أن العوامل النفسية ذات صلة بما يرمي اليها المتكلمون من مقاصد من جهة ، وبالعلائق القائمة بينهم من جهة أخرى . إننـا

نريد بذلك العلاقات الاجتماعية ، البعد الاجتماعي المكرس بين المتكلم ومن يخاطبه أو من يخاطبهم فضلاً عن أن العوامل الزمانية والمكانية تتصل هي الأخرى بالوسط المادي بصلة أو بغيرها . هذا وللمحيط الاجتماعي الثقافي أثر في افهام وادراك المخاطب الرسالة . لنتخذ من الحوار التالي مثلاً :

- ألا تذهب إلى المدرسة ؟
- اليوم هو الأربعاء يا أبي .

إن حواراً كهذا لا يمكن ادراكه إلاّ بارجاعه إلى البرنامج الدراسي للمدارس الفرنسية التي تعطل يوم الاربعاء . وعلى كل لنا أن نعرف وضع التواصل هذا مستندين إلى ما قال به فريدريك فرنسوا : «إنه مجموعة العناصر غير الالسنية المتموضعة في أذهان الافراد أو في الواقع المادي الخارجي أثناء التواصل والتي يمكن أن يوكل إليها دور في اشراط شكل أو وظيفة العناصر الالسنية» (10) .

4.5. التواصل والاعلام information

غالباً ما يخلط بين هذين المصطلحين وكأنهما مترادفان ، غير أن الحقيقة غير ذلك ، إذ أن بينهما فوارق جلية . فالتواصل إنما هو نقل كيان ندعوه إعلاماً . ومن هنا نجد أن التواصل شيء والكيان شيء آخر ، فالأول عمل أمّا الثاني فهو افراز النتيجة التي تؤدي إليها عمل الأول .

هذا ، ويمكن أن نلمح في نظرية الاعلام التي طُورت في الولايات المتحدة في السنوات الخمسين الأخيرة ، معنى تقنياً للإعلام ، غير أنه لا يعير في تصوره فحوى الرسالة ودلالتها اهتماماً وإنما مسألة ارسالها وبثّها ليس غير . وفضلاً عن هذا ، فكلّما ظهر حدث ما غير متوقع ، رأينا إعلاماً يحدث ويتم ، أما العكس ، ونعني بذلك الحدث المتوقع أو المتصور وقوعه فلا يحُدث مجيئه أي شيء من الإعلام .

(10) «الألسنية ، دليل الفبائي» . F. François: La linguistique, guide alphabétique».

وعلى كل ، وبحسب منظري نظرية التواصل فليس هناك من معنى للرسالة إلاّ هذا الذي يفضي إليه تتالي إشارات تنتقل بين مرسل ومستقبل . إما دلالة الرسالة فلا دور لها هنا ولا مكان إذ أنها غير قمينة بأن تعتبر عنصراً أساسياً ، وفوق هذا إن نظرية التواصل تقتصر على دراسة طاقة الرامزة والكمية الحقيقية للاعلام الذي يتم نقله .

ثم أن في طوقنا أن نقيس كمية الاعلام أو مستواه عبر ما يعرف بمصطلح الرقم الثنائي (binary digit;bit) ، ولنأخذ مثالا على ذلك وليكن لعبة «الوجه أم القفا» التي يكون للاشارتين فيها (الوجه والقفا) احتمال الظهور نفسه أي الفرصة الواحدة أو لنقل أيضاً احتمال واحد من أصل احتمالين أي $\frac{١}{٢}$. إننا نصف هاتين الاشارتين بأنهما متساويتا الاحتمال ، أي أن كمية الاعلام المحمولة بهما هي واحدة . واصطلاحاً نقول : إن كل إشارة تنقل رقماً ثنائياً واحداً ، وهكذا فعندما يكون احتمال ظهور اشارة ما هو $\frac{١}{٤}$ فهي تنقل رقمين اثنين من الإعلام وهكذا في بقية الامثلة التي يمكن سردها في هذا المجال .

4.6. التشوّش والاطناب .

يتفق أحياناً أن يكون الارسال ، عبر تواصل شفهي ، غير سليم ، مما يؤدي إلى أن يكون ابلاغ الرسالة غير سوي ، وهذا يعود إما لكون القنال معطلاً ، وأما لكون الاستقبال رديئاً ، وإمّا أن تكون الرسالة مغلوطة ، فضلاً عن احتمال آخر هو أن يكون فك الرموز سيئاً الخ . . . . إننا ندعو أسباب الاضطراب هذه تشوشاً bruit ، وهوأن دلّ على شيء فإنما يدل على ما يعرف بالضجيج (مثال ذلك صفارة انذار رجال الاطفاء ، اهتزازات مطرقة ثاقبة ، هدير محركات الخ . . . .) إن هذه التشوشات تؤدي أخيراً إلى نقص أو خسارة اعلامية .

ولكن يمكن لهذه الخسارة الاعلامية أن تعوض بما يسمى بالاطناب redondance ولقد اقترض منظرو التواصل والالسينون مصطلح الاطناب هذا من

فن البلاغة حيث يستخدم كمرادف لتكرار الكلمات أو الافكار . غير أنهم منحوا هذا المصطلح معنىً تقنيا خاصا . فالاطناب ليس مرادفاً للتكرار وليس أيضا وبالضرورة نتيجة له .

وفي منظومة اشارية ، يُقاس الاطناب من حيث كونه الفرق بين السعة الكامنة القصوى والاخرى الحقيقية . وإذا ما قلصناه وحجمناه في منظومة ما ، فإننا ، ولا شك ، نقلص من طرف آخر كلفة الإرسال ، غير أننا نمنى بضرر متأتى بفعل امكانية عمله . إن المنظومة المثلى هي تلك التي ترمّز كمية ضرورية من اعلام مطنب مسهب في اشاراته ، حتى يقوى المستقبل على فهم وادراك كل اعلام يسيء أو ربما يفقد بفعل التشوش . ولو لم يكن هناك من اطناب في المنظومة لمحى التشوشُ ، الذي قد يخّل بالرسالة بشكل لا يعوّض ، كل اعلام جرى استقباله بشكل سيء ولفكّت رموز الرسالة بشكل غير صحيح . وفي نص ما ، فإن الأخطاء المطبعية تدخل هي الأخرى في مفهوم التشوش . وإذا ما افلتت غالباً الاخطاء المطبعية من انتباه المصّحح ، فما مردّ ذلك إلاّ لأن الاطناب متواجد بشكل قوي في الجُمل .

لنأخذ مثالاً على ذلك من نصّ برقية بالفرنسية مثلاً :

«Nous sommes arrivés lundi 3 Octobere 1983 à 8 heures du matin»

ففي هذه البرقية ومعناها : «وصلنا نهار الاثنين ٣ اكتوبر ١٩٨٣ الساعة الثامنة صباحاً» ، في هذه البرقية ، في طوقنا استخراج اطناب عديدة : فالضمير الشخصي nous يدّل على وجود صيغة فعلية تالية ، وهذه الصيغة هي بالضرورة الفعل المساعد «être» في صيغة «sommes» مع الصيغة «arivés» ، وكذلك الأمر ، فإن «sommes arrivés» لا تعمل إلاّ مع «nous» . وأما الإعلام الذي يشير إلى أن الثالث من اوكتوبر يقع نهار اثنين ففيه أطناب واضح ، لأنه يمكننا التثبت من ذلك بالقائنا نظرة على تقويم العام المذكور . وأخيرا وفي نظام تعّد فيه الساعات من الساعة صفر إلى الرابعة والعشرين ، فإن عبارة «du matin» أي صباحا تتضمن اطنابا ، وإلاّ لاستعملنا عبارة «20 heures» أي في الساعة العشرين فيما لو تمّ موعد الوصول بعد الظهر .

5.
وظـــائف اللســـان

اذ نتحدث عن التواصل ، نجد انفسنا امام مشكلة وظـائف اللســان ، واذ نتحـدث عن اللسـان ، فنحـن غالبـا مانـؤكد اهمية وظيفتـه التواصـلية المرتبطـة بالاخـرى ، التمثيلية . وانطلاقـا من هذا التعـريف الجوهـري لوظيفـة اللسان ، اقترحت تحاليل عديدة لن يكون في وسعنا هنا عرضها جميعا بل سنقف عند اثنين منها ، اولا تحليل عالـم النفس الالمانـي كارل بوهلـر(١٨٧٩-١٩٦٣) Karl Bühler وثانيا تحليل الالسني رومان جاكوبسون(١٨٩٦-١٩٨٠) Roman Jakobson (أ15. 1. 1. 3)

5. 1. تصنيف بوهلر

بتحليله آلية كل تواصل السني ، توصل كارل بوهلر إلى تصـنيف وظـائف اللسان تصنيفا ثلاثيا ، وذلك من وجهتي نظر فلسفية ونفسية (11) :

١ ـ وظيفة تمثيلية : وهي تُرجع الى موضوع الحديث اي الى المحتـوى الارجاعـي (وظيفة وصفية) Darstellung .

٢ ـ وظيفة تعبيرية : وهي ترجع الى المتحدث وتشير الى حالته الفكرية والعاطفية ، قياسا الى موضوع الحديث Ausdruck .

٣ ـ وظيفة ندائية : وترجع الى المخاطب وتورطه في التواصل كطرف مرتبط ومعني بالرسالة Appell .

---

(11) Karl Buhler , Sprach theorie Die Darstellungsfunktion der Sprache 1934,(Reimp .Fisher ,Stuttgart 1965) .

ثم استبدل بوهلر عباراته الاولى باخرى مثل : الرمز ، العَرَض والاشارة . فعندما يقول شخص لآخر : «الثلج يتساقط» ، فإن هذه العبارة ترمز قبل كل شيء الى محتوى دقيق (ظاهرة ارصادية جوية) ، غير انها من طرف آخر تعبر عن حالة الفرد المتحدث الانفعالية ، كما قد تفضي الى ردة فعل من قبل المخاطب . ومن هنا جاءت الوظائف الثلاثة : الرمزية ، والعرضية والاشارية . غير ان درجة شدة كل واحدة منها انما تتغير بحسب الظروف الخاصة للعلاقات الألسنية .

5.2. الوظائف كما يصنفها جاكوبسون .

لقد طوّر جاكوبسون(12) **التصنيف الذي جاء به بوهلر ، مقدرا ثلاثة عناصر اضافية الى آلية التواصل وهي : الرامزة ، القنال والرسالة . هذا ، ولادراك هذا** التصنيف الجديد ادراكاً جيدا علينا أن نضع دائماً في تصورنا مكونات التواصل الستة التي يلحق جاكوبسون بكل واحدة منها وظيفة تمييزية : المرسل ، الرسالة ، المستقبل ، السياق الذي تعود اليه الرسالة ، الرامزة والقنال معاً .

5.2.1. المُرسل - الوظيفة التعبيرية

ترمي هذه الوظيفة الى تحديد جملة العلائق المبنية بين المرسل والرسالة ، وموقفه منها . ومبدئياً ان الرسالة في صدورها وبثها إنما تحمل صفة مرسلها وطابعه فضلا عن كشفها عن شيء كامن فيه ، كحالته العاطفية والانفعالية . اننا إذ نتواصل مع انفسنا فاننا نصدر رسالة تحمل فيما تحمله أفكارنا تلك التي تكون عادة منوطة بشيء ما (انه

(12) R .Jakobson, Essais de linguistique générale Editions de Minuit, Paris 1963.

المرجع) . ان لنا الحق كل الحق في ان نعبر عن مشاعرنا او افكارنا تجاهه كأن نقول مثلا : جميل او قبيح ، صالح اوطالح ، جيد او سيء ، احمق او محترم ، شهي او مقرف ، مقزز. . الخ

5.2.2. الرسالة ـ الوظيفة الشعرية (الجمالية)

ليست الشعرية هنا مصطلحا مقصورا على الشعر وحسب وإنما تشتمل كل آفاق العمل الفنّي الخلاق للسان . يقول جاكوبسون«ان التصويب نحو اللسان من حيث كونه لساناً ، والتركيز على الرسالة لذاتها هما ما يميز الوظيفة الشعرية . » (13) فهو اذن يحدد الوظيفة بالعلاقة التي تشتملها الرسالة ذاتها . وفي الفنون يكون المرجع هو الرسالة التي سرعان ما تصبح مادة لا اداة تواصل . ان الادب مجتمعا والفنون بكليتها يفرزان رسائل ـ مواد تحمل في جوهرها دلالتها المتميزة الخاصة .

وفوق هذا نجد ان الادب انما يستغل المادة(14) التي يتجلى بها اللسان من مثل القافية ، الوزن ، السجع ، التكرار ، الجناس ، فضلا عن ان كثيرا من الاساليب النثرية والشعرية تتخذ اللسان مادة لمرامي جمالية . ان شعرا مثل :

لها بشر مثل الحرير ومنطق رخيم الحواشي لا هُراء ولا نذر
وعينان قال الله كونا فكانتا فعولان بالالباب ما تفعل الخمر

يفقد كل معناه وجماله الشعري فيما لو بدّلنا كل من كلماته بكلمات اخرى ، وهذه فكرة عامة شبه مبتذلة في النقد الادبي

(13) المرجع نفسه ص ٢١٦

(14) ان مصطلح مادة لقريب من مفهوم قنال التواصل ، غير انه يجب تفريقه عنه . وبحسب تعبير مقبول عموما للعلاقة بين اللغة الكتابية والاخرى المحكية . . . فان هذه الأخيرة تسبق اللغة المكتوبة ، اذ ان هذه اللغة المكتوبة انما تتأتى من عملية نقل مادة اولية الى مادة ثانية . وهذا يعني ان الصوت ، وبشكل خاص الصوت البشري ، يشكل المادة الطبيعية الاساسية التي تظهر بها اللغة ، وتنجم الأداءات الكتابية عن نقل لغة المادة الصوتية الاولى الى مادة كتابية ثانية .

5.2.3. المستقبل ـ الوظيفة الامرية .

ان هذه الوظيفة التي يمكن ان تدعى ايضاً الوظيفة الانطباعية او الايعازية، ترمي الى تحديد العلاقات بين الرسالة والمستقبل ، ذلك ان هدف التواصل انما يكمن ، مبدئياً ، في حفز ردود فعل الملتقي ذاته وأثرها فيه . إننا إذ نوجه كلاماً محدداً الى انسان ما ، مُرسِل او مستقبِل ، فنحن نتقصد طلب ومعرفة شيء من قبله ، سواء أكان ذلك تصريحاً او لا .

ويمكن الالماح هنا الى ما استحدثه جاكوبسون من تغيير في تصنيف بوهلر، اذ انه استبدل الوظيفة الندائية بالأخرى الأمرية ، وهذا أمر ـ بلا شك ـ على قدر من الاهمية كبير، اذ ان جاكوبسون ، بربطه الواضح والصريح «مصطلح» الأمر «بمفهوم» الاتجاه نحو المستقبل ، انما يبحث ايضاح ان المستقبل هذا ملتمس اداة لتحقيق مايبتغيه ويرغب فيه المرسل ، ومن هنا ، فان الوظيفة الامرية مرتبطة ارتباطاً شديداً بما نطلق عليه شيوعاً اسم «وظيفة اللسان الاداتية» اي استخدام اللسان كعامل تأثيري .

5.2.4 السياق خارج اللغة ـ الوظيفة الارجاعية

ان الامر يُناط هنا بوضع اللسان الاعلامي ، وهذه الوظيفة التي يمكن ان ندعوها وظيفة معرفية او تعيينية هي اساس كل تواصل ، فهي تحدد العلاقات بين الرسالة والشيء او الغرض الذي ترجع اليه . نقول هذا مع الاعتراف اليقيني بأنها اكثر وظائف اللسان أهمية في عملية التواصل ذاتها . هكذا يعتبر اللسان اذاً اداة تساعد الفرد على التواصل مع الآخرين وتبادل الاعلام واياهم .

5.2.5 الرامزة ـ الوظيفة الشارحة

تهدف هذه الوظيفة الى التحقق من استخدام المتخاطبين اللغة نفسه ، او

استعمالهم بعضا من العبارات بالطريقة ذاتها . وهذا التحقق لا يقدر له ان يتم الأمن خلال تعريف يهدف الى شرح معنى ودلالة علامات يعزّ فهمها على المستقبل . وهي ـ الوظيفة ـ كثيرا ما تتخذ عبارات مثل : «بمعنى» ، «اي» ، «اعني» . هذا ، وعندما نستخدم لفظا ذا معنى مشترك فإننا نضيف ، وذلك ريادة في التوضيح ، معلومات تفسر هذا اللفظ : «الخال ، بمعني الشامة» ، «أتفهمون ماذا اقصد بذلك ؟» ، «الديباجتان أي الخدّان» . وقد يُخيل الينا أن هذه الوظيفة انما هي شرح لبعض عناصر الخطاب ، وغايتها تنهض على التأكد من أن المرسل والمستقبل يوليان العناصر المعنى ذاته بلا زيادة أو نقصان .

5.2.6 القنال ـ الوظيفة الاتصالية

ترتبط هذه الوظيفة بقنال التواصل ، الذي يمكن ان نطلق عليه اسم الاتصال ، وهي تهدف الى ان الاتصال قائم بين المرسل والمستقبل او التأكد من سلامته واستمراريته . ويميز جاكوبسون في هذه التسمية العلامات «التي تستخدم أصلاً لإقامة التواصل ولاطالته او لقطعه فضلا عن التحقق من عمل الدارة» .
وهكذا ، فإن عبارات مثل «الو ، صباح الخير» انما تستعمل كمداخل عبر المكالمات الهاتفية ، وعبارة «ألو هل تسمعني ؟»تُوظّف لاطالة التواصل ، أما حال العبارات التالية : **«اصغوا جيدا» و «اعيروني انتباهكم» و «انتبهوا» فهي تستخدم** للتأكد من ان عمل الدارة يسير سيراً منتظماً جيداً ، وفوق هذا ، فهناك عبارات اخرى يلجأ إليها المتكلم لوضع حد للاتصال مثل : «بلِّغ تحياتي للشقيق» او «قبِّل الصغار عني» او «لاتطيلوا غيابكم عنا» الخ . . .

ان مصطلح «التواصل الاتصالي» c.phatique هذا قد أوجده برونيسلاف مالينوفسكي(١٨٨٤ـ ١٩٤٢) للدلالة والتعبير عن نمط اللسان الذي «يقوّي ويشد وشائج الصلة بين الناس عبر تبادل للكلمات بسيط» ذاك الذي لايُستعمل ابداً «لتبادل الافكار» . (15)

(15) «The problem of meaning in primitiv language», in Ogden and Richards: «The meaning of meaning', London, Routledge and Kegan Paul, 1930.

وفي المجتمعات البشرية تلعب الوظيفة الاتصالية دوراً خطيرا ، ولنا من الاحتفالات والطقوس والمسامرات العائلية ، وأحاديث الحب ، أمثلة مشرقة على ادراك هذه الوظيفة مع الاعتراف بأن محتوى التواصل فيها هوأقل اهمية من تواجد الاشخاص معاً ومن التأكد من الانتماء الى المجموعة الاجتماعية .

نزيد على ما سبق ان الناس كثيراً ما يعمدون خلال تظاهراتهم الاجتماعية الى تكرار الحركات نفسها والكلمات والقصص نفسها ايضاً . ان نمطاً من التواصل كهذا قد يصبح غير مقبول قياساً الى انسان «غريب» يجد نفسه بعيداً عما يدور حوله ، وعلى عكس هذا نجد أنه يولد الشعور باللذة عند من يشاركون في هذه التظاهرات بل انهم ليشعرون انهم «معنيون بها» الى درجة بعيدة .

في هذا كله نجد ان التواصل إن هو الا مرجع الرسالة الاتصالية ، وان مرجع الرسالة الشعرية هو الرسالة نفسها ، فضلاً عن ان مرجع الرسالة التعبيرية يكمُن في المرسل في حد ذاته .

5.3 الوظيفة اللعبيّة F. Ludique

بلاتردد نقول ان نموذج جاكوبسون ذو فتنة خاصة ، فهو يعطي انطباعا ووصفا لاستعمالات اللسان كافة ، غير انه مع ذلك ، يظل غير مرض كلياً ، ذلك ان جاكوبسون يتعامى او لعله يهمل الوظيفة اللعبية التي لم توّف حقها من الدراسة من قبل الالسنيين ، اللهم الاّ اذا كانت متداخلة مع الوظيفة الشعرية التي تحدث واخذ بها جاكوبسون نفسه . ان ما نعنيه ب«لعبي» هو امكانية استخدام اللسان أحجية وتسلية ، اننا والحال هذه نرى في هذه اللعبة خرقاً للقانون اللغوي الذي ترتسم عليه اللغة ، وخروجاً عليه . ولكن ، وبما ان هناك قواعد في اللغة ، فلا يسعنا القول ان كل شيء فيها مباح وجائز . واللغة تحمل في حد ذاتها عناصر هدمها الخاصة تلك

التي ادت **بجاكوبسون** لأن يقول : «اراء نظرية مطابقة الشعر وروح اللغة ، فإننا نقابلها ونظرية العنف المنظم الذي يمارسه شكل اللسان الشعري»(16) .

في «بيان السريالية (١٩٢٤)» **يشير اندريه بروتون** André Breton الى ان **«الانسان انما مُنح اللغة ليستخدمها استخداما سرياليا» أما بوريس فيان** Boris Vian **فقد تساءل في : «بناء والامبراطورية» «ما اذا كانت الكلمات مصوغة لنلعب بها»** .

هذا ، واذا ما قدر لنا ان نأخذ في حسابنا هذه الوظيفة اللعبية ، فإن لنا ان نميز ضربين من اللعب اثنين : تحايل على المبنى (اللغة المحكية او المكتوبة) وتحايل آخر على المعنى ، وثالث على الاثنين السابقين معا .

اما اللعب ـ التحايل ـ على الشكل اي على الاصوات فهو يتناول القافية ، ويعمد الى التكرار اللفظي والسجع والجناس نحو :

فدارهم ما دمت في دارهم   وأرضهم ما دمت في ارضهم

ومن ذلك ايضاً المواربة كما في قول ابي نواس لهارون الرشيد :

لقد ضاع شعري على بابكم   كما ضاع عِقدٌ على خالصه

فلمآ أنكر الخليفة عليه قوله ذاك أجابه : ليس هذا بقولي وانما ذاك الذي اقول :

لقد ضاء شعري على بابكم   كما ضاء عقد على خالصه

واما اللعب ـ التحايل ـ على المضمون ، المعنى ، فهو ينهض على تقريب غير منتظر لألفاظ لاتستخدم عادة ولاعرفاً ، بعضها الى جانب بعض ، ومن ذلك استخدام الترادف ، واللبس الذي يستدعي حيرة السامع في فهم المعنى المقصود اليه كقول **رؤبة بن العجاج** :

ومقلةً وحاجباً مُزجّجا   وفاحماً ومَرسناً مُسرَّجا

---

(16) «Questions de poétique», Paris, Seuil, 1973,
«مسائل في الشعرية»

اننا لا نعلم ما أراد الشاعر بقوله «مسرجا» حتى اختلف تخريجها : أهو الاستواء كالسيف السريجي ، ام البريق واللمعان كالسراج ؟

ومن هذا القبيل ايضا قول بول ايلوار Paul Eluard الشهير : «La terre est bleue comme une orange» أي : «هي الأرض زرقاء كبرتقالة»

5.4. أفعال الكلام Actes de Parole

ان فلسفة اللغة وخاصة فلسفة مدرسة اكسفوردالتي عبرت عنها بالمقولة التالية : «Meaning is use» اي «المعنى انما هو الاستعمال» تحاول ايضاح وظائف اللسان على مستوى فعله لا انطلاقاً من تفكير شمولي حول طبيعته .

ان الفلاسفة يجهدون لمعرفة ما نفعل بدقة عندما نشرع في الكلام او نبدأفي الخطاب ، فضلا عن التساؤل عما نرمي اليه في فعل كلامي محدد . ان هذا البحث ينضوي داخلاً في مستوى الكلام وعبر اطاره الذرائعي . نحن نرى ان بحثاً كهذا يقودنا الى تصنيف جملة ما يصدر عن الفرد الناطق من أقوال ، عبر النماذج التاليه :

- بيان تقريري : وهو ذاك الذي يقوم بوصف حدث ما ليس غير «تمطر السماء في دمشق»

- بيان ادائي : وهو ما يتضمن انجاز المتكلم حدثاً ما في حينه والتعبير عنه بكليته ، فعندما أقول مثلا : «أُعلنُ افتتاح الجلسة »فإن انجاز الحدث - الفعل يتم في اللحظة ذاتها . وفضلا عن ذلك فإن هذا البيان يحقق العمل الذي يوحي به ويدل عليه : «أقسم ، أعد ، أقول ، . . . الخ»

هذا من جهة ومن جهة أخرى ، اننا إذ نلفظ قولا - بياناً ما انما نحقق أفعالاً ثلاثة في زمن واحد :

١ - فعلاً نطقياً Acte locutoire : ونريد به لفظ الاصوات وتنسيقها في كلمات

٢ - فعلا تأثيرياً Acte illocutoire : يهدف الى تبديل موقف المتخاطبين والتأثير

في علاقاتهم ، كقولنا : «اغلق الباب» ، اننا هنا لاننطق جملة وحسب بل نعطي امراً . ويمكن ترجمة القول السابق بِـ : «آمرك باغلاق الباب» .

٣ ـ فعلاً ارتداديا ً Acte perlocutoire : وهو ما يشكل الاثر غير المباشر لفعل التواصل في المخاطب أياً تكن طبيعته : سخطاً أم قبولا ورضى .

وعلى كل فإن التأثير يباين الارتداد ، كما يتميز العمل عن النتيجة التي يفضي اليها .

▲ ▲ ▲

6.

اللغات الطبيعية البشرية : خصـــائصهـــا

6.1. العلامة الألسنية

رأينا في الفصل الثالث تعاريف للاشارة والدليل والرمز والايقونة . اما الان فسوف نمضي الى تعريف العلامـة الالسـنية ، الكلمـة ، ثم التسـاؤل عن درجـة اختلافها والمصطلحات السابقة . وفي الواقع ان العلامة الالسنية هي أشد تعقيدا من كل ما سبقها ، ونحن اذ نعرفها انما نبين كل ما يتميز به اللســان البشري من خصائص .

في كتاب سوسير «**محاضرات في الالسنية العامة**» تكمن نظرية العلامة الالسنية وعنه تصدر ، ففيه يحدد سوسـير ، قبـل غـيره ، العلامـة الالسـنية بانهـا كيان ذو وجهين : الأول : دال وهو متتالية صوتية تشكل واقعه المادي ، والثاني مدلول : وهو الفكرةأو التصور الذي يستدعيه الدال . وفي نظره أن العلامةالالسنية «لاتربط شيئاً باسم بل تصورا بصورة سمعية» (17) ويزيد قائـلا : «ان الصـورة السـمعية ليست هي الصوت المادي الذي هو شيء فيزيائي صرف وانما هي الطبع النفسي لهذا الصوت أو التمثل الذي تهبنا اياه شهادة حواسنا» (18) إنها التمثل الطبيعي للكلمة مأخوذة كواقعة لغوية مقدرة خارج كل تحقيق كلامي .

يطلق **سوسير** اسم **الدال** Signifiant على الصورة السمعية **والمدلول** Signifié على التصور . وهو يرى ، عبر هذا ، ان العلامة الالسنية هي إذا كيان نفسي ذو وجهين ، قائم على اتحاد لا يفصل بين الدال والمدلول ، وهذه العلامـات حقائـق

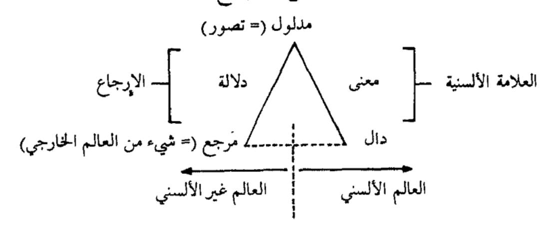
---

(17) «المحاضرات» ص ٨٨ في الترجمة العربية أ . الحاشية رقم (2) .

(18) المرجع نفسه ص ٨٨ .

واقعية تتموضع في الدماغ البشري تحُس وتُلمس فضلا عن قدرة الكتابة على تثبيتها ماديا بصور اصطلاحية اتفاقية .

منذ سوسير لم يكن مفهوم العلامة الالسنية ثابتا اذ تطور بفعل عوامل زمنية متعددة ، هذا ، ويمكننا بيان العلاقة بين العلامات والاشياء التي تمثلها بمثلث يُسمى المثلث السيميائي أو مثلث الدلالة . لقد قام اوغدن و ر يتشاردز Ogden et Richards بتصور له يُتبين من خلاله الفرق بين المعنى والارجاع . référence



يبينّ المثلث السابق أن العلامة الالسنية تتموضع على ضلع المثلث الأيمن باتحاد الدال (الصورة السمعية) والمدلول (التصور) معا . أما الصلة بين المدلول والمرجع فهي ممثلة في ضلع المثلث الايسر ، كما يرمز الى هذين الضلعين [(الدال + المدلول) و(المدلول / المرجع)] بخط متصل . وإزاء ذلك يتصل المرجع بشكل غير مباشر (بخط مرسوم بالنقط) بالدال ، ونتيجة لهذا نقول : ان دالا ومرجعا لا يقويان على تشكيل علامة السنية اذ لا بد للحصول عليها من وجود مدلول أي عملية تصور للمرجع أو تَصْوَرَة له .

ان الدال «كلب» مثلا أي المتتالية الصوتية ك ل ب لا توحي بكلب معين ذي صفات خاصة به بل بفكرة للكلب عامة شاملة ، هي في حد ذاتها مجردة ذات قيمة تصنيفية ، ولا تدخل في حسابها مختلف انواع الكلاب أو أجناسها ولا قوامها ولا لونها . . ان كلمة «كلب» تقيم في اللغة العربية فئة حيوانية ليس غير .

لا بد أن نشير في هذا المجال الى خطأ الاعتقاد بأن الدال هو الكلمة والمدلول هو الواقع الذي يدل عليه . ان العلامة الالسنية بدالها ومدلولها وبكونها عنصرا من

عناصر منظومة اللغة ، هي التي تسمح لنا في استعمالها في جملة ما باقامة ارجاع الى العالم الخارجي أي العالم الحسي ، الملموس ، الحقيقي أو الوهمي ، المعلوم أو المجهول ، انها كعلامة السنية مستقلة عن المرجع ومعزولة عن أي قول - بيان énoncé ثم ليس هناك من مرجع لها . ومن هنا فلها معنى واحد ، أو لنقل قيمة واحدة ، يتم تحديده أو تحديدها قياسا الى قيم العلامات الأخرى . اما الدلالةفهي نتاج اتحاد وانصهار العلامة بالمرجع في سياق التبيين énonciation ، ذلك أن دالا واحدا قادر على احتواء أكثر من مدلول واحد . هذا وفي بيان شارح للغة (أ. الوظيفة الشارحة 5. 2. 5. ص ٥٤) إن العلامة الالسنية انما ترجع الى نفسها بالذات . وفي هذه الحال نقول : انها مرجعة ذاتيا أي تهيكل ارجاعا ذاتيا لها . فنحن اذ نقول «الكلب ينبح» نرجع العلامة «كلب» الى كلب ما غير محدد ، بل يمكننا نحن تعيينه ، ولكن ما ان نعرب هذه الجملة حتى نقول أن «كلب هو فاعل لفعل ينبح» فمرجع «كلب» هنا هو عائد للكلمة ذاتها كلب لا لحيوان الكلب عامة . ولبتسيط الموضوع بالدُعابة نقول ان كلمة كلب لا تنبُح .

اذا ما حاولنا تعرية الفروق والاختلافات بين دال ومدلول ومرجع ، فليس لنا سوى الامثلة لتوضيح كل ذلك . وليكن المثال التالي : يمكن لاشخاص ثلاثة أن يقيموا دراسة حول كلب ما . ان الشخص الأول قد ينهض بالاهتمام بدراسة شكل الكلمة او مبناها ، فيدرس مترادفاتها وما يقابلها في لغات أخرى (chien, cabot, clebs, touto..) واذا كان فرنسياً راح يدرس تطور الكلمة تاريخيا مرتقيا الى أصلها اللاتيني canis وغير ذلك مما يتعلق بهذه الكلمة نعني بهذا الدال «كلب» .

أما الشخص الثاني فله أن يدرس مدلولها : ما معنى كلمة كلب في اللغة ؟ وما حقلها الدلالي ؟ بم توحي وتذكر ؟ ما استعمالاتها الحقيقية والمجازية (عبارة اهانة) وأما الثالث فقد يدرس الكلب من حيث كونه جنسا فقط ، فيبين أنواعه وفصائله المختلفة (كلاب الصيد ، كلاب الحراسة ، الكلاب العُسبورية ، السلوقية الخ . .)

ومن هذا المثال الذي قدمناه نقول ان الالسني انما يهتم بدراسة الدال و/ أو المدلول لكلمة كلب وحسب اي مبنى و/ أو معنى الكلمة . وليس من اختصاصه ابدا

دراسة الكلب كشيء من أشياء العالم غير الالسني ، أي أنه لا يتطرق أبدا الى مجال عالم الحيوانات الذي يدرس هو فيزيولوجية ومرض الكلب و. . الخ

6.2 العلامة الالسنية ـ صفاتها

ان سر الفكرة المتجسدة في المادة الصوتية
سر الكلمة ، سر الرمز الالسني ، سر اللوغوس
سر يتطلب توضيحه .
جاكوبسون

6.2.1 اعتباطية العلامة

يرى سوسير ، **وكذلك الألسنية ان «اعتباطي» arbitraire كلمة تدل على الرابط الذي يجمع الدال بالمدلول الالسنيين،وهذه الصفة تشير أن لا علاقة سببية بينهما ، وان وجد من شيء فهو علاقة غير مبنية ولا معللة (مقابل معللة) ، ومن هنا فسوسير** يرى الى ان «فكـرة أخت» لا ترتبط بأية صلة داخلية وتعاقب الأصوات أخ ت تلك التي تقوم مقال الدال بالنسبة لها»(19) . وهكذا فالدال اعتباطي قياسا الى المدلول وفي الواقع «لا رابطة طبيعية بينهما»(20) .

وهكذا أيضا فليس للتصور الذي يعبر عنه بكلمة ما ، ولنقل كلب مثلا أي علاقة وتعاقب الاصوات ك ل ب او مع ترابط الاحرف كتابـة في الكلمـة نفسهـا «كلب» . ودليلنا في ذلك أن اللغات تطلق تسميات متباينة على أشياء متماثلة ومن هنا

(19) المرجع نفسه ص ٩٠ .
(20) المرجع نفسه ص ٩١ .

كلب هو dog في الانكليزية ، chien في الفرنسية وكلب في العـربية ، hund في الالمانية ، cane في الايطالية Kion في اليونانية الخ .

نزيد على ما تقدم أن صفة الاعتباطية هذه لا تعني ان الدال يتعلق باختيار الانسان أو بمشيئته ، اذ لا بد لافهام مراده في الفئة اللغوية التي ينتمي اليها ، أن يستخدم الدال نفسه وليس له أبدا ان يختار أي دال آخر ، اذ لو قُدر له ذلك لكان عصيا على أبناء طائفته اللغوية أن يفهموه .

لقد انتقد اميل بنفنيست Emile Benveniste اعتبـاطية العلامـة هذه وأبدلهـا بصفة الضرورة . وفي نظره أن العلاقة بين جزئي العلامة الالسنية اي بين الـدال والمدلول ضرورية وبدونها لا تصور للواحد دون الأخر .

هكذا نجد أن العلاقة بين اللغة والعالم ، بين الكلمات (الالسنـي) وأشياء الواقع التي تشير اليها اللغة (أي ما هو غير ألسني) ، بين العلامة والمرجع هي أخيرا اعتباطية ، فضلاً عن كونها اتفاقية اصطلاحية صرف ، انها تنهض على اتفاق جماعي لا تسوغــه أية ضرورة طبيعية . ولا بد من الاشــارة في هذا المجــال ، ان فكرة الاعتباطية هذه ليست دائما موضع قبول واقـرار لدى المتكلمـين . أولئـك الـذين يحاولون بسهولة «عقلنـة» أو لنقـل تسـويغ هذا الرابـط الاعتباطـي ، وذلك انهـم يتخيلون اللغة انعكاسا للواقع او صورة للعالم لا أكثر ولا أقل .

ان ما تقدم لا يمنعنا من القول أن ثمة استثناء لاعتباطية العلامة الالسنية ، ألا وهو المحاكاة الصوتية، وعلى كلٍ فقد تم ايجاد هذه العلامـات المحـاكية للاصوات تقليدا للأصوات الطبيعية : حفيف ، خرير ، وشوشة ، صلصلة ، بقبقة ، نقنقة الخ . .

لا بد أن نشير في هذا المطاف أيضا الى أن سوسير يميز مفرقا بين ما هو اعتباطي مطلق وآخر نسبي ، فهو يُبـين عبـر مقارنـة vingt و dix- neuf اي عشرون وتسـع عشرة ، poire و poirier أي أجاصة وشجرة إجاص ، نقول انه يُبين ان poire, vingt إنما هما اعتباطيتان كلياً ، في حـين أن dix- neuf و Poirier هما اعتباطيتـان نسـبيا ، جزئيا . وبلغة اخرى نقول ان الاولى غير معللة اما الثانية فهي معللة بدرجة ما بفعل

انها توحي بالعبارات المكونة منها . يقول سوسير في هذا الشأن : «واذا ما أخذناها على حدة فإن dix و neuf هما من مرتبة vingt ولكن neuf - dix تقدم حالة تعليل أخرى . وكذلك الأمر بخصوص poirier التي تذكر بالكلمة البسيطة poire ، تلك التي تذكر لاحقتها ier - بـ pommier و cerisier الخ . . أي شجرة التفاح وشجرة الكرز» (21) .

هذا شيء ، وشيء آخر لا بد من ذكره هنا ، هو أن لاعتباطية العلامة اهمية بارزة اذ انها تضفي على اللسان البشري طابع المرونة والتكيف ، وذلك عبر التعبير البشري ، اكثر بكثير مما تفعله بقية منظومات التواصل غير الالسنية . وهكذا يبدو أنه لمن الصعب تمثل معاني كلمات لغةماكافة برمز ما (أو بدليل أو ايقونة) ، انه لفي وسعنا النهوض بذلك ، غير ان ذلك مقصور على بضع كلمات وخاصة تلك التي تدل على أشياء مادية او على علاقات مكانية دون غيرها . ذلك ان التمثيل غير الالسني قاصر عن نقل جزء كبير جدا من المعلومات التي تنقلها اللغات بلا عناء .

6.2.2. صفة الخطية

وفي هذا المجال كان سوسير السبّاق الى ابرازه الصفة الخطية linéarité للغات البشرية اذ يقول: «لكون الدال ذا طبيعةسمعيةفانه يمتد في الزمن فحسب متمتعا بصفاته : ١) انه يمُثل اتساعاً ٢) يمكن قياسه في بُعد واحد : انه الخط.» (22) فعندما نلفظ العلامات الالسنية او نكتبها فاننا انما نفعل ذلك لزاماً في الزمن ، والعلامات هذه موجهة كما تتبع تسلسلا زمنيا خاصا فلا يمكننا والحال هذه لفظ ب و ج مثلا في وقت واحد ، اذ لا يسعنا الا ان نقول إمّا بج أو جب ، وهكذا فالصرفيم (أي المورفيم ونعني به مُتتالية اصوات وبمعنى آخر الكلمة) عبارة عن مُتتالية صوتيات متعاقبة ، والجملة متتالية صرفيات ، والخطاب مُتتالية جمُل .

والخطية هذه سمة من السمات الاساسية للغات البشرية الطبيعية اذ أن «كل آلية اللغة إنما هي منوطةبها» (22) . والخطية تفترض أن العلامات الألسنية تتعاقب أو يحل بعضها محل البعض الآخر في السلسلة الكلامية ، ولكنها لا تستطيع الظهور معا

---

(21) المرجع نفسه ص ١٥٨ .

(22) سوسير : المرجع نفسه ص ٩٢ .

وفي نقطة واحدة في الرسالة . وتعاقب العلامات ، الواحدة تلو الأخرى ، يشكل السلسلة الكلامية التي تجعل البنية الخطية للرسالة قابلة للتحليل وللتكميم .

6.2.3 صفة التمييز

ويرجع الى سوسير الفضل كل الفضل في ابراز صفة التمييزdiscrétion هذه(23) في اللسان البشري فهو القائل : «ان لا وجود في اللغة الا للاختلافات (. .) وما ان نقارن العلامات فيما بينها حتى لا يمكننا الحديث عن اختلاف وستكون العبارة غير صالحة اذ انها لا تنطبق تماما الا على المقارنة بين الصورتين السمعيتين مثلا père وmère (أي أب وأم) أو على المقارنة بين فكرتين من مثل père وmère ، إن علامتين تشتمل كل منهما دالا ومدلولا ليستا مختلفتين، انهما متميزتان وحسب ولا يوجد بينهما غير التقابل . وكل آلية لسانية / . . ./ انما تقوم على تقابلات من هذا النمط وعلى الفوارق الصوتية والمتصورة التي تفترضها . . ان ما هو صحيح بالقياس الى القيمة هو صحيح بالقياس الى الوحدة . وهذا مقطع من السلسلة الكلامية مقابل لتصور ما ـ فكلاهما من طبيعة تفريقية محض . واذا ما طُبق مبدأ التفريق هذا على الوحدة ، فان صياغته تصبح ممكنة على النحو التالي : تمتزج صفات الوحدة مع الوحدة ذاتها . وفي اللغة كما في أية منظومة أعراضية ، ان ما يميّز علامة ما انما هو ما يشكلها ، وهذا الاختلاف هو الذي يشكل الصفة كما أنه يخلق القيمة والوحدة معا» (24) .

وهذه الصفة أي التمييّز او التفريق تعني ان العلامة الالسنية مشروطة في وجودها بوجود العلامات الاخرى التي تقيم وأياها علاقات ارتباط متبادلة على صعيد الدال كما وعلى صعيد المدلول . اننا نقول عن بيان ما إنه متميز لكونه يتألف من علامات تتميز كل منها عن الأخرى وتنضوي جميعها تحت منظومة ألسنية واحدة يكون عدد عناصرها مُنتهياً .

والتمييز هو احدى الصفات الاساسية للسان البشري . ونقول عن العلامات الالسنية انها متميزة عندما تكون كلمتان ما من وجهة نظر شكلهما ، اما متطابقتين

---

(23) ويقال أيضا التفريق أو التفاضل .

(24) المرجع نفسه ص ١٤٦ ـ ١٤٧ .

تماما واما مختلفتين تماما ، اي عندما لا يكون بينهما أي متوسط ممكن . ان «متميز» يعني ما هو غير مُطرد (مقابلة مع ما هو مطرد) . وتشكل صوتيات اللغة وحدات متميزة ، لأن كل ابدال صوتيم بآخر يستجر تغيرا في المعنى ، وتبدلا دلاليا في الصرفيم اي في الكلمة . وهكذا في **خالبَ** و **غالبَ** يكون التقابل بين خ و غ متميزاً . وبدورها فان الصرفيات تشكل وحدات متميّزة لان كل ابدال صرفيم بآخر يؤدي الى تغيير في المعنى . فاذا ما بدّلت «**أرنب**» بـ «**ثعلب**» في الجملة : «وقع الثعلب في الفخ» أكون قد أدخلت تغييرا في معنى الجملة .

ان صفة تميز وحدات اللغة تعتبر الشرط الاساسي لتقطيع السلسلة الكلامية الى وحدات من مراتب مختلفة (أي من مستويات متتابعة : الصوتيات ، فالصرفيات ، فالبيان ، فالخطاب) وتقطيع السلسلة الكلامية هذا الى وحدات يُمكن فصلها وعزلها عن بعضها البعض هو ما ساعد الالسنية على التأكيد على مبدأ الحضور أو الغياب ، والتشابه او الاختلاف بين هذه الوحدات .

6.2.4 صفة الثبوت والتبدل

يستعمل سوسير كلمة ثبوت immutability, immutabilité العلامة (مقابل التبدل mutability, mutabilité) ويفسر فكرته على النحو التالي : «اذا تبدى الدال عنصراً حر الانتقاء بالقياس الى الفكرة التي يمثلها ، فهو - حقيقة - على نقيض ذلك ، اذ انه ليس حرا ، بل هو مفروض وذلك نسبة الى الفئة اللغوية التي تستعمله ، ان المجموعة الاجتماعية لا تُستَشار في هذا الجانب ، ذلك انه لا يمكن تبديل الدال الذي تنتقيه اللغة بغيره ، ويمكن لهذا الحدث الذي يحتوي - كما يبدو - على تناقض أن يسمى حميميا «الورقة القسرية» ثم نقول للغة «اختاري وانتقي» غير أننا نزيد «أن العلامة لا بد أن تكوّن نفسها وليس غيرها» . ان الفرد ليس بعاجز - وذلك اذا ما أراد - عن تغيير الاصطفاء المعتمد وحسب بل لا يمكن للمجموعة نفسها أن تمارس سيادتها على كلمة واحدة ، فهي متعلقة باللغة بما هي عليه .

لا يمكن إذاً تمثيل اللغة بعقد حر ، والعلامة الألسنية هي من هذا الجانب ذات شأن خاص في الدراسة ، واذا ما أردنا ان نبرهن ان القانون المعتمد في مجموعة ما هو شيء مفروض ، وليس بقاعدة يُقبل بها بحرية ، فان اللغة هي التي تقدم ذلك البرهان الاكثر وضوحاً وجلاء» .(25) .

وتبدو اللغة كإرث العصر السابق ، ينتقل الى أفراد الجيل اللاحق . ان نجادل في أصل اللسان ذلك امر لا طائل فيه أو بالأحرى ليس له الاهمية التي حاول البعض منحه إياها . إذ أن «الغرض الحقيقي والوحيد للألسنية انما هو الحياة الطبيعية والمنتظمة للغة مكوّنة ومشكلة . » (26) .

ولولا هذا الثبوت ، أي دوام علاقة العلامات الألسنية بالمراجع ، لأمسى التواصل ونقل المعلومات محالاً بشكل بديهي .

ومع ذلك فاللغة تحمل في ذاتها سبب تطورها . إن للزمن الذي يضمن بحسب سوسير استمرار اللغةتأثيرا آخر متناقضا : ألا وهو اصابةالعلامات اللغوية وتبديلها . وفي الواقع ، ومن كثرة الاستعمال ثمة انحرافات في المعنى وتغيرات صوتية تُصيب وحدات اللغة . وفي معظم الأحيان ، تمرّ هذه التغيرات دون أن يشعر بها أحد من أولئك الذين لا يولون اهتمامهم المشاكل اللغوية . وهكذا ، فحياة العلامات الألسنية ليست مستمرة نهائياً .

ان التغيير لهو صفة كل لغة طبيعية حيّة . فاللغات كلها تتغير عبر الزمن وهذه التغيرات التي تطرأ على لغة ما انما هي تغيرات مستمرة .

6.2.5. التمفصل المزدوج

وفضلاً عن هذه السمات الأربع التي استخلصها فردينان دو سوسير ، يجب

---

(25) المرجع نفسه ص ٩٣ .

(26) المرجع نفسه ص ٩٤

اضافة تصور التمفصل المزدوج double articulation (27) الذي أبرزه أندريه مارتينيه André Martinet . ويُعترف ـ عامة ـ بعض بأن هذه السمة هي ميّزة من الميزات العالمية للسان ، وحتى أن بعض الألسنيين(28) اقترح جعلها خاصة اللسان الاساسية والحاسمة .

ان تصور اللسان المتمفصل ليس جديدا تماما غير ان ادراكه ظل طويلا بشكل حدسي وغامض . وعبارة «اللسان المتمفصل» تقابل اللسان البشري ببقية أشكال «اللسان» الحيواني (التي هي أقرب الى الصراخ منه الى اللسان) . وكان سوسير قد ذكر ان كلمة articulus أي مُتمفصل في langage articulé تعني في اللاتينية «عضواً ، جزءاً ، تقسيما تحتيا لاشياء متتالية» وان «التمفصل في اللسان يشير إما الى تقسيم تحتاني للسلسلة الكلامية الى مقاطع صوتية واما الى تقسيم تحتاني لسلسلة الدلالات الى وحدات دلالية .»(29) .

وبفعل مارتينيه بشكل خاص الذي استقطبته أفكار هيلمسلف ، إن تصور اللسان المتمفصل قد حاز على تعريف دقيق وذلك انطلاقا من البحث العلمي عن الوحدات الصُغرى التي تكوّن الرسالة الألسنية . ان نظرية مارتينيه تحاول بيان التنظيم الخاص للسان البشري وهو يتّم على مستويين اثنين : مستوى التمفصل الأول ، ومستوى التمفصل الثاني .

ـ ففي المستوى الأوّل ، او مستوى التمفصل الأول ، يتمفصلُ البيان خطيا بحسب **وحدات دلاليةصُغرى يُسميهامارتينيه الـ**monèmes **الوِحْديمات (وِحْديم)** أي الوحدات الأصغر التي تحتوي على معنى . ويبدو أن مارتيينه يحاول بهذه التسمية الحد من انتشار استعمال مصطلح صرفيم morphème الذي يدّل على وحدات ألسنية صغرى فهرسية كانت أم صرفية . وفي المثال التالي : «توجّه بحارٌ الى بارٍ» عمد

---

(27) وتسمى أيضاً «الثنائية» .

(28) وخاصة لويس هيلمسلف Louis Hjelmselv في كتابة : Prolegomens To a Theory Of Language والترجمة الفرنسية بعنوان : Pro legomènes à une théorie Du Langage Paris . Editions de Minuit 1968. أي «مقدمات لنظرية للسان»

(29) المرجع نفسه ص ٢٢

المتكلم الى انتقاء أربع وحدات دلالية مختلفة ، وتحددُ هذه الوحدات الحقيقية المنوجدة في البيان بالطريقة التي نعمدُ بها الى عزلها . وفي هذا البيان المثال، قام المتكلم باختيار الوحدة بار غير انه بالامكان تبديلها بالوحدة دار مثلاً وتسمى هذه العملية الإبدال commutation والهدف من هذا الابدال معرفة ما اذا كان تبديل عنصر في السلسلة الكلامية ـ وذلك على مستوى التعبير ـ بعنصر آخر، ومن دون تغيير السياق ، يؤدي الى فرق في المحتوى ، او اذا تجلّى تغييرٌ في المحتوى بفارق على مستوى التعبير :

دَخَل الى بار
دَخَل الى دارِ

وعلى صعيد اخر ، يمكننا ملاحظة الاطفال الصغار وهم يتعلمّون لغتهم الأم ، فانهم يرتكبون أخطاء من حيث التقطيع لعدم قدرتهم بعد على تقسيم البيان الى **وحدات متميزة** ،unités distinctives تمثل كل منها كلمة واحدة ، **فالأطفال** الفرنسيون مثلا ينزعون لدى سماعهم جملة مثل : «Un petit oiseau» «**هذا عصفور صغير**» نقول ينزعون الى تكرار كلمة oiseau **على الشكل التالي** «voila un Toiseau» فيربطون تاء الوصل النهائية في كلمة Petit ويلحقونها بـ oiseau . ولا تتم عملية التقطيع بشكل جيد الا بعد سماعهم مرات عديدة ، وعبر عملية تكيّف جديد قائمة على المحاولة والخطأ ،كلمة عصفور ضمن سياقات مختلفة نحو : «L'oiseau est mort» أي «**مات العصفور**» «un oiseau a pris le morceau de pain» **أي** «أخذ العصفور قطعة الخبز» الخ . . وبعد ذلك فقط، يستطيع الصغار تمييز وتقطيع الخطابات بشكل مناسب ، وبكلام آخر رسم الحدود المناسبة بين كل وحدة دلالية متميّزة . وهناك مثال على تقطيع خاطيء نورده في حالة اقتراض لغة كلمة من لغة أخرى ، فعندما سمع الفرنسيون لأول مرّة العبارة العربية «أمير البحر» فانهم قاموا بتقطيع سيء لها وعند استخدامهم إياها ارتكبوا خطأ دمج أداة التعريف **أل** بكلمة **أمير** ظنا منهم انها جزء من الكلمة وكانت النتيجة ان دخلت كلمة **أميرال** (= أمير + ال) المعجم الفرنسي على هذا الاساس الخاطيء وشاع استعمالها فيما بعد حتى يوم الناس هذا .

ـ أما في المستوى الآخر ، مستوى التمفصل الثاني فان كل وحدة دلالية صغرى (= كل كلمة) انما تتمفصل (= أي تنبني) بدورها ـ وعلى صعيد دالّها ـ عبر وحدات أصغر منها ولا دلالة لها . وهذه الوحدات الصغرى التي تتشكل منها الوِحْديمات monème ، تتمتع بشكل صوتي ولكنها من دون معنى ، انها **الوحدات التمييزية الصغرى** والمتعاقبة ونعني بها الصوتيمات . وهذه الوحدات تمييزية لأنها تساعدنا على مقابلة **بار** و **دار** في جملة : «دَخَل الى بار» فالمتكلّم قد اختار هنا كلمة **بار** وليس **دار** التي لا تتميز عن الأولى إلاّ بصوتيمها الأول د / ب .

6.2.6. اللغة منظومة

وسوسير هو أيضا من حدد اللغة كمنظومة علامات يوم قال : «ان اللغة منظومة لا تعرف إلاّ ترتيبها الخاص .»(30) ويعني مفهوم المنظومة ان هناك مجموعة علاقات ـ وذلك على مستوى ما (مستوى الصوتيمات ، مستوى الصرفيمات . .) ـ تربط عناصر هذا المستوى بعضها الى بعض حتى انه اذا ما طرأ تغيّر على عنصر ما فان مجموعة العناصر تتأثر بذلك ، ويتغيّر من جراء ذلك توازن المنظومة .

ان علامات اللغة تتحدَّدُ انطلاقا من مفهوم المنظومة ومن هذا التصور ينحدر مفهوما **التقابل والقيمة** . ان التقابل(31) هو العلاقة القائمة بين وحدة ألسنية (صوتيم وِحْديم) والوحدات التابعة للمستوى نفسه ، أي الجدول الاستبدال ذاته ، والتي يمكن ابدالها بها ضمن سياق ما . ففي البيان التالي : «اشترى الرجل الكبير فاكهة» تقابل **الكبير** العلامات **الصغير** ، **الشيخ** ، الهرم . . ، كما وتقابل وحدة **الرجل**

(30) المرجع نفسه ص ٣٧ .

(31) من الملاحظ ان سوسير لم يُقم فرقاً بين التقابل Opposition والتعارض Contraste ففي كلمة جار مثلا تتقابل الألف مع الواو والياء ، وهي جميعها من مجموعة واحدة تابعة لجدول الاستبدال نفسه ، في حين تتعارض الألف مع الجيم والراء التي تلتحق بمجموعة كل تركيبية واحدة .

العلامات الشاب،الفتى، الكهل ، الطفل ، الفتاة ، المرأة . . الخ ويقول سوسير «وما ان نقارن العلامات فيما بينهما - الحدود الايجابية - حتى لا يسعنا الحديث عن اختلاف ، وستكون العبارة غير صالحة اذ انها لا تنطبق تماما الا على المقارنة بين الصورتين السمعيتين مثل père و mère (أي أب وأم) أو على المقارنة بين فكرتين مثل «père» و«mère» ان علامتين تشتمل كل منهما دالاً ومدلولاً ليستا مختلفتين ، انهما متميزتان وحسب ، ولا يوجد بينهما غير التقابل . وكل آلية اللغة / . . . / انما تقوم على تقابلات من هذا النمط ، وعلى الفوارق الصوتية والمتصورة التي تفترضها . » (32) .

وعلى صعيد المدلول (التصوّر) لا تتخذُ وحدة ما قيمة لها الا بفعل وجود وحدات المجموعة الأخرى أو قل المنظومة التي تنتمي لها ، وبمعنى آخر بفعل علاقات التقابل التي تقيمها هذه الوحدة مع الوحدات الأخرى . فالقيمة «ليست محددة ايجابيا بمضمونها ، بل سلبياً وذلك بعلاقاتها مع عبارات المنظومة الاخرى وصفتها الأكثر دقة إنما هي في وجودها المغاير لوجود الأخرى» (33) ويستطرد سوسير قائلا : «ان جميع الكلمات التي تعبّر عن افكار مشابهة انما يحدد بعضها بعضا وليس لمترادفات مثل craindre, redouter, avoir peur (أي ارتاب ، خشي ، خاف) من قيمة خاصة إلاّ في تقابلها ، فاذا كانت redouter غير موجودة توزّع مضمونها كاملا على مثيلاتها . » (34) .

ولشرح مفهوم القيمة الألسنية لجأ سوسير الى تشبيه لعبة الشطرنج حين قال : «ان اللغة منظومة لا تعرف إلاّ ترتيبها الخاص . ومما يزيد ذلك وضوحاً، مقارنتها بلعبة الشطرنج . ففي هذه الاخيرة يسهل علينا نسبيا تمييز الداخلي عما هو خارجي ، وما انتقالها من بلاد فارس الى اوربا الا طابع خارجي أيضا . وعلى النقيض من ذلك فان كل ما يتعلق بنظام اللعبة وقواعدها . انما هو داخلي ، واذا ما بدّلنا قطعا خشبية باخرى عاجية فهذا التغيير لا يؤثر أبدا في المنظومة . ولكن الأمر مختلف اذا ما أنقصنا

---

(32) المرجع نفسه ص ١٤٦ .

(33) المرجع نفسه ص ١٤٢ .

(34) المرجع نفسه ص ١٤١

أو زدنا عدد القطع . فهذه الـزيادة او ذاك النقصـان يؤثـران بعمـق في «قواعـد» اللعبة .(35) .

وفي مكان لاحقٍ من «محاضراته» يقول سوسير : «وضمن المقارنات الممكن تصورها كافة يبدو لنـا أن الأكثـر برهنـة هي تلك التـي نبنيهـا بـين اللغـة ولعبـة الشطرنج . وفي كلتا اللعبتين نحن أمام منظومة قيم ولنا أن نتقرّىٰ تبدلاتها ، فلعبة الشطرنج تشبه انجازاً صناعياً لما تقدمه اللغة بشكل طبيعي . لننظر في الأمـر عن كثب .

وبداية ، ان حال اللعبة تقابل حال اللغة تماماً ، وقيمة كل حجر من الأحجار مرتبطة بموقعه علىٰ الرقعة ، والأمر نفسه بالقياس الىٰ اللغة ، إذ تكتسب كل عبارة قيمتها بتقابلها مع العبارات الأخـرىٰ كلّهـا . وثـانياً ، ان المنظومـة انمـا هي آنية وحسب ، وتتغير من موقع الىٰ آخر ، مع صحة ان القيم تخضع لاصطلاح ثابت ، ان قاعدة اللعبة لتنوجد قبل بدايتها ، فهي مستمرة الىٰ ما بعد كل نقلة وهذه القاعدة المقبولة أبدياً هي أيضا من صميم اللغة ، وتلك هي مبادىء الأعراضية الثابتـة . وأخيراً : وللانتقال من توازن الىٰ آخر ، او بحسب اصطلاحنا من تزامن إلىٰ آخر ، يكفي نقل حجر من غير اضطراب ، اننا هنا أمام ما يوازي الواقعة التـزمنية بكل خصائصها .

وفي الواقع :

آ : ان كل ضربة في لعبة الشطرنج لا تحرّك الا قطعة واحـدة ، وكذلك في اللغة ، ان التغييرات لا تصيب الا عناصر معزولة .

ب : ومع ذلك ، فللضربة ترجيع علىٰ المنظومة بكاملها ومن المسـتحيل أن يتنبّأ اللاعب بحدود هذا التأثير تماماً ، ان تغيرات القيم الناجمة عن ذلك هي ـ والحال هذه ـ إما باطلة وإما خطيرة وإما من أهمية وسطىٰ .

ان ضربة ما قد تثير كلية اللعبة محدثة نتائج حتىٰ علىٰ الاحجار غير المعنية آنياً وكنا رأينا من قبل ان الأمر هو نفسه تماماً بالقياس إلىٰ اللغة .

(35) المرجع نفسه ص ٣٧

ج : ان نقل حجر ما هو أمر متميز تماماً عن التوازن السابق أو اللاحق ، والتغيرّ الحاصل والمحقق لا يعود إلىٰ أي من هذين الحالين :

إن الأهمية إنما هي للحالات وحدها .

وفي لعبة الشطرنج نجد أن لكل موقع أياً يكن سمة تمييزّية ، وذلك ، في كونه متحرراً من سوابقه ، ثم سواء لدينا ، أتوصلنا اليه بطريق أم بأخرىٰ .

وليس لمن تابع اللعبة بكاملها أية ميزة علىٰ الفضولي ذاك الذي يراقب منافعها في الوقت الحرج ، ومن العبث تماماً لوصف هذه اللعبة التذكر بما حدث لثوانٍ عشر خلت وهذا كله ينطبق علىٰ اللغة ، ويجسّد التمييز الجذري بين التزمني والتزامني . ان الكلام لا يعمل أبداً إلاّ في حالة لغوية ، وليس للتغيرات التي تتدخل بين الحالات أية مكانة» (36) .

بيد أن المقطع التالي من «المحاضرات» هو الذي يحدّد مفهوم القيمة valeur الألسنية . يقول سوسير : «لنأخذ فارساً ، فهل هو وحده عنصر اللعبة ؟ لا بالطبع ، ذلك لأنه لا يمثل في مادته الصرف وخارجا عن خانته وبقية شروط اللعبة شيئاً بالقياس الى اللاعب ، ولا يصبح عنصراً حقيقياً ملموسا الا في اكتسابه قيمته متحدا بها . ولنفترض أن هذا الفارس قد تبدّد أو فُقِدَ خلال الرهان فهل يمكن استبداله بقطعة مشابهة أخرى ؟ وبالطبع انه ليمكننا استبداله لا بفارس آخر بل وحتى بشكل لا شبه له بالفارس ، يتفق تشبيهه به ، شرط ان تمنحه القيمة ذاتها ، وهكذا نرى ان مفهوم التشابه في المنظومات الاعراضية كاللغة حيث تتماسك العناصر في توازن وفق قواعد محدّدة ، نرى أنه يمتزج بمفهوم القيمة والعكس بالعكس» . (37)

6.3. ملاحظات ختامية

يبدو لنا أنّ تصور التمفصل المزدوج هو ـ من بين سمات العلامة الالسنية ـ

(36) المرجع نفسه ، ص ١١٠ ـ ١١١ .

(37) المرجع نفسه ص ١٣٤

صفة اللسان البشري الاساسية . واذا ما رغبنا في مسح الصفات المميّزة للغات الطبيعية البشرية ، وجدنا انها تتقاطع بشكل جلي ، وذلك من خلال هذه الصفات ، مع غيرها من المنظومات أو مع وسائل التواصل البشرية أو غير البشرية .

6.3.1. اللغة والتواصل

اذ نحدد اللغة وسيلة تواصل (أ . 2.) فاننا بهذا نُجسد وظيفتها الجوهرية على الرغم من أن هذه الوظيفة ليست وقفاً عليها ، فاللغة تشترك بها مع غيرها من وسائل التواصل الاخرى . وهكذا ، فنحن نتساءل مثلا عن فائدة قانون السير إن لم يكن من أهدافه توصيل معلومات ما ؟ وما جدوى الخرائط إن لم تسعف الجغرافيين برسومها ومخططاتها واشاراتها الاصطلاحية ؟ .

كما لتجدر الاشارة الى أن كل شيء في الخطاب (أي في الرسالة الألسنية) لا يقتصر على وظيفة التواصل وحسب ، فهناك الخطاب في حدّ ذاته ، واضافة الى ذلك فهو يحمل في ذاته دلائل غير قليلة أولا ، وما يرافقه ويصاحبه من اشارات تعرّي شخصية المتحدث ، وتكشف النقاب عن معلومات اضافية لم يتعمد هذا الاخير نقلها . ومن هذا الجانب يتضح لنا ان ايمائية الوجه مثلا (الابتسامة ، عضّ الشفاه ، تقطيب الحاجبين ، القهقهة . . الخ) وحركات الجسد (كاليدين والاصابع) تلك التي ترتفق بها الرسالة الألسنية ، لتضيء بعض جوانب المتحدث . هذا ، وما قلناه في ايمائية الوجه وحركته نقوله عن صوت المتحدث أيضا اذ أنّ للصوت قدرة على اغنائنا بمعلومات اجتماعية وثقافية بَلْه العمر والجنس وغير ذلك مما لا ينوجد أصلا وصراحة في الرسالة الألسنية .

6.3.2. اللغة واعتباطية العلامة

لن نوغل كثيرا هنا في مشكلة اللغة واعتباطية العلامة ، ولكن حسبنا أن

نقول : إنه اذا كانت اللغة تستخدم ، فيما تستخدمه ، علامات اعتباطية فليس ذلك سمة مميّزة للغة البشرية اذ أننا نلمح جملة من العلامات الاعتباطية التي لا تنتمي اطلاقا الى عالم اللغة ، ولنا من الألوان المستعملة في قوانين السير (الاضواء الكهربائية بألوانها الثلاثة) والاشكال الهندسية (دوائر ، مربعات ، مثلثات . .) اكثر من مثال حي على ما نذهب اليه .

6.3.3. اللغة وخطيّة العلامة

تتميّز اللغة الطبيعية البشرية عن بقية المنظومات التواصلية الاخرى القائمة رسالتها والمبنية فضاءً لا زماناً تتميز بما يعرف بخطية الرسالة الألسنية وهي صفة لصيقة بها ، ومع ذلك فليس هذه الصفة وقفاً على اللغة وحدها كمنظومة تواصل ، بل نحن واجدوها بشكل أو بآخر في منظومات أخرى تسعى الى نقل رسائلها زمنياً . وهذا ما نجده في الموسيقى مثلا وقانون السير . اذ ان تعاقب الرسائل كانتقال الضوء من الأحمر الى الأصفر فالأخضر انما يتمّ هو أيضا زمنياً .

6.3.4. اللغة وتميّز العلامة

لم يكن انفراد اللغات البشرية بسمة تميّز العلامة الألسنية امرا مقصورا عليها . ذلك اننا قادرون على ايجاد منظومات أخرى تتسم بهذه السمة . ان الخرائط الجغرافية ، من هذه الزاوية ، لتخطط بفعل عدد من الاتفاقيات المحددة . ثم ان الخارطة لتبدي معلومات مترجمة بلغة غرافية خطية ، وهذه اللغة تقودنا الى معالجة المعلومات والمتغيرات البصرية معا (شكل ، حجم ، لون ، اتجاه) وتُفسر هذه العناصر المختلفة بالشروح التي تجسدها واقعا حياً ملموساً . ان اشارة ٧ لترمز الى الهضاب والدوائر الى المدن والأماكن الآهلة المسكونة ، أمّا الخط المشطوب فيدل على السكك الحديدية الخ . . غير أن ما يجدر القول به هنا ، هو أن هذه العلامات

الخطية ليست كلها متشابهة والواقع الذي تمثله ، مثال ذلك ان خط السكة الحديدية المرتسم على الخارطة ليس هو ذاته كما نراه على السكة الحقيقية . ومن هنا نستطيع استنتاج أن العلامات هي أيضا وحدات متميّزة .

6.3.5. اللغة والمنظومة

اذا كانت اللغة ـ كما رأينا ذلك سابقاً ـ منظومة فليست هذه الصفة حبيسة بها ولا وقفا عليها ، اذ كنا رأينا ايضا ان علامات الخارطة الجغرافية تشكل كاللغة منظومة في حدّ ذاتها . وهذا يعني انها تتحدد بعناصرها بعضها تجاه البعض الآخر . وزيادة في ذلك نقول : ان المثلث والدائرة لا يعنيان ـ على خارطة ما ـ الشيء نفسه في نظر الجغرافي او الرياضي ، ثم ليس للألوان والأضواء الكهربائية الدالة ذاتها التي تأخذها في قانون السير اذا استعملت في مجالات أخرى كالألوان والاضواء المستخدمة في حركة سير القطارات الحديدية أو المطارات ، اذ أنّ لكل مجموعة علامات عملا يختلف عن الأخر بحسب تموضعها داخل المجموعة التي تحدّدها .

هذا واذا ما قلنا ان أضواء حركة السير تشكل منظومة فذلك يعني أن هذه العلامات إنّما تحتفظ هنا بالوظيفة ذاتها وبالقيمة ذاتها وبالدلالة ذاتها في المنظومة المتموضعة فيها والمحدّدة من خلالها .



7. اللغـــة والواقع غير الألسنـــي

اذا كنّا قد ألمحنا من قبل (أ . 5.2) إلى وظائف اللغة وأبرزنا دورها الجوهري من حيث كونها أداة تواصل بين البشر ، فإن هذا ليدفعنا من جديد لنتساءل عمّا تنقله هذه اللغة الأداة بين أفراد المجتمع الانساني ؟ لا شك أن اجابتنا ستتمحور حول جماع التجربة الاجتماعية ، وبلغة اخرى ان اللغة لتعمل جاهدة على نقل وايصال الواقع غير الألسني ، اي العالم ، ويمسي هذا التواصل ممكنا بفعل مشاركة الفرد الناطق اعضاء طائفته اللغوية الآخرين أداة تواصل واحدة ولغة واحدة .

واذ ذهب الألسينون المحدثون هذا المذهب في تعريف اللغة كأداة تواصل ، فإن هذه النظرة قد زحزحت نزوعا فلسفيا متجذرا في الزمن يرى أن اللغة ليس بأكثر من «التعبير عن الفكر» . هذا شيء ، شيء آخر يمكن أن نمسه هنا ، وهو أن هذه الرؤية الجديدة للغة قد جعلت علماء اللسان يطرحون مشكلة العلاقة بين اللسان والفكر أو بين الألسينة والفلسفة . ودراسة اللسان هي الحافز على دراسة مثل هذه المسائل اللغوية والفكرية معا .

7.1. اللغة ، طبيعة هي أم اتفاق

لم يكن القدامى من أهل الفكر والفلسفة يطرحون العلاقة بين اللسان والفكر بشكل مستقل أو في بحوث دقيقة ، بل كانوا يعرضون لمثل هذا الموضوع عبر معالجتهم مسألة أصل اللسان وطبيعة الكِلم .

لقد وقف الاغريق أمام جبهة اللغة متسائلين عن أصلها ونظامها ، وهل هي شيء طبيعي أم اتفاق واصطلاح ؟ وبكلام آخر هل تسير اللغة وتنتظم بفعل الطبيعة

أم بفعل الاتفاق ، اي هل يتمتع كل شيء باسم «طبيعي» مثلما تُصدر الاشياء أصواتا معينة لدى لمسنا او تحريكنا لها ام ان اللسان عبارة عن مجموعة رموز اصطلاحية واعتباطية ؟

الحق يقال أن افلاطون (٣٨٦ ق . م) كان من اوائل الذين انتصروا للممارسة الطبيعية التي تأخذ بوجود علاقة ضرورية بين معنى كلمة ما وشكلها . وقد عرض أراءه هذه في كتابه «كراتيل» Cratyle الذي يحمل اسم تلميذ له ، وقد حاور كراتيل سقراط وتلميذه هرموجين ، إن كراتيل يرى كمعلّمه افلاطون ان الكلمات تتطابق ومُسمّياتها اي الاشياء التي تدل عليها تطابقا حقيقيا وطبيعيا .

إن الوقائع الألسنية والوقائع غير الألسنية ، وبمعنى آخر الكلمات والأشياء ، انمّا ترتبط فيما بينها برباط طبيعي وضروري . ان الاسماء من هذا القبيل ليست اطلاقا اتفاقية بل هي طبيعية حقا . وهي حقيقية وصحيحة في نظر الاغريق وسواهم من الشعوب كما انها تسمو على اللغات الفردية . واذا ما كان للكلمات رابط طبيعي يربطها بأشياء العالم غير الألسني فان العلاقة التي نسميها «معنى» هي أمر سهل بسيط ؛ ويُفسرً بارتباط الوقائع الألسنية بالأخرى غير الألسنية برابط طبيعي ضروري بعيدا عن أية آلية نفسية تكون واسطة بينها . وهكذا ، فالمعنى علاقة ذات قطبين تولد طبيعيا دون أن يكون للانسان في خلقها أي حساب . ثم ان التطابق بين الاشياء ومسمياتها قد يتم دون ان ندركه دائما . ومن هنا لابدّ للفلاسفة من استخراج «الواقع» الكامن لمظاهر الاشياء ولهم أيضا توضيح وبيان الحقيقة وبناؤها .

أمّا ارسطو فهو يرى خلافا لأفلاطون أن العلاقة بين اللغة والواقع غير الألسني ليست محتمة بواقعة ضرورية بل إنها تقوم على الاتفاق ولنقل على الاصطلاح . وحجته في ذلك أن بمقدور الانسان ادراك وفهم العالم واشيائه بمعزل عن اللغة ثم يعزز دعواه بأن الانسان يتعرّف اولا الى الاشياء ثم ينتقي لها من بعد تسميات اعتباطية .

ولقد استمر تصور وظيفة اللسان التعينية منذ العصور القديمة وحتى أيامنا هذه . وهو يطرح اشكالية حقيقة اللسان إذ لابد لنظام اللسان ان يعكس نظام العالم . ومنذ القرن الثاني عشر ، حاول البعض ربط بُنية اللغة ، أي القواعد ،

ببنية الواقع . وفي رأي ارسطو إن اللسان أداة تربط الفرد بالعالم المحيط به وتساعده على التكيف وبيئته . وعبر الفكر الذي تعبر عنه اللغة يدخل به الانسان في علاقة مع عالم الروح ، وفي «علاقة الروح مع نفسه» (افلاطون) يخلق الانسان عالم ذاته الخاص .

وكان الاقدمون على قناعة بأن الفكر هو الكلام ، وأن الكلام هو الفكر . وكان اللسان تجسيدا للفكر كما كانت البُنية او العلاقة النحوية مساوية للعلاقة المنطقية . ومع الدراسة التاريخية والمقارنة للغات ، تم طرح مسألة استقلال الفكر عن اللسان . ولقد دمّرتنوع اللغات وتغيّرها عبر التاريخ صفة الشمولية التي كانت تولي حتى ذلك الزمن اهتماما بالغا بالفئات النحوية كما نجدها في مؤلفات مثل : **«القواعد العقلانية والعامة»** التي اصدرتها **بور رويال** /38/ وتقوم هذه القواعد (وتنهض) على مُسَلّمة وجود تشاكل بين بنية اللغة وقوانين الفكر وقواعده .

ومن الجدير بالذكر - ولو ابتعدنا قليلا عن الموضوع - ان تأثير بور رويال مازال ظاهرا حتى أيامنا هذه في دراسة القواعد التي تُعَلّم بشكل تقليدي وتكرر أفكار بور رويال الرئيسية (من مثل : اعراب الجُمل القائم على موازاة بين المنطق والقواعد) . واليوم يعود نوام **شومسكي** Noam Chomsky الى هذا التقليد محاولة منه البحث فيه عن أسس نظرية تتعلق بالبُنى العميقةفي نظريته النحوية . وهذا دليل على رسوخ تعاليم بور رويال في اذهان الناس .

وفي القرن التاسع عشر ، ظهرت مشكلات جديدة وراح الالسنيون يطرحون تساؤلات عديدة من مثل : هل تعبّر اللغات عن الفكر بشكل أمين دقيق ؟ وما العلاقات بين اللغة والمنطق ؟

7.2. ليست اللغة مدونة

يمُثل فردينان دوسوسير منعطفاً حاسماً في دراسات اللسان في كتابه «محاضرات

(38) بور رويالPort Royal دير راهبات أسسته عام ١٢٠٤ الرئيسة انجليك أرنوAngélique Arnauld . ولقد كتب شقيقها انطوان الملقب بأرنو الكبير هذه القواعد بالاشتراك مع الانسلوLancelot ، كما ودافع ضد اليسوعيين . عن اتباع مذهب الجنسينية الذي كان يحُدِّدُ من الحرية البشرية وينادي بالجبرية .

في الألسنية العامة» ، فهو يرى ان اللغة منظومة مُنغلقة أما الفكر فليس كذلك . فالعلامات الألسنية تخضع لقواعد اللغة وليس لقواعد الفكر . وقيمة هذه العلامات (أ . 6.2.6) تتعلق وتناط بالعلاقات القائمة بينها لا بالفكر الذي توحي به . وفي مقطع عنوانه : «اللغة كفكر مُنَظّم في المادة الصوتية» . نقرأ ما يلي : «ان فكرنا من الجانب النفسي ـ وبغضّ النظر عن التعبير عنه بالكلمات ليس إلاّ كتلة لا شكل لها ولا وضوح ـ فالفلاسفة واللغويون متفقون دائما على الاعتراف ، انه لولا عون العلامات وحدها لكنّا غير قادرين على التمييز بين فكرتين بشكل واضح وثابت ، واذا ما تخذنا الفكر لذاته ، فانه لأشبه ما يكون ضبابا ، إذ لا شيء بالضرورة محددا ، ولا أفكار مهيأة من قبل ولا شيء متميزا قبل ظهور اللغة .»(39) .

وفي وسعنا القول أن ما يميّز بوضوح ألسنية القرن العشرين قياسا الى ألسنية القرن التاسع عشر إنما هو اتجاهها البنيوي . ومن الآن فصاعدا ستولي الألسنية وبمقدار أكبر اهتمامها «بالبُنى» وبالمنظومات أكثر منه بالعناصر الخاصة التي تتشكل منها هذه المنظومات مكتسبة بذلك قيمتها . وحوالي العام ١٩٣٠ برزت وجهة نظر بنيوية تعود الى الارث السوسيري ورفضت اعتبار اللغة أداة تعبير مُنفعلة غير فعّالة ، بل لقد كانت هذه الحركة تعتبر اللغة كمبدأ فعّال يُضفي على اللغة مجموعة منظمة من التمييزات ومن القيم . ان كل منظومة ألسنية تحتوي على تحليل للعالم الخارجي خاص بها لا تشاركها فيه أي لغة اخرى .

اذ يوضح سوسير كون اللغة منظومة قيم صرف ، فهو ينتقد الأصول الأرسطوطالية لتصور اللغة كمدوّنة nomenclature . ولقد استمر هذا التصور حتى العصر الحديث عبر قواعد بور رويال . وبحسب هذا التصور ، إن اللغة قائمة كلمات اي نتاجات صوتية (اوكتابية) . وكل نتاج لغوي يتطابق وشيئاً من اشياء العالم . وهكذا فمقابل الحيوان الثديي الحافري الداجن الذي ينتمي الى فصيلة الخيليات ونعني به الحِصان ، فان قائمة اللغة العربية تضع ازاءه متتالية صوتية مؤلفة من عدة أصوات يُرمز اليها كتابياً بالرسم الخطي **حصان** . واذا ما قابلنا العربية

(39) المرجع نفسه ص ١٣٧ .

بالفرنسية مثلا او بالانكليزية ، وجدنا ان الاختلاف يقوم على مسألة تعيين : cheval, horse . وفي هذه الحالة ، فان تعلّم اللغة يقوم على استدعاء التعادلات بين مدّونة اللغة الأم واللغة الأجنبية المراد تعلّمها . غير ان العلامة الألسنية والحال هذه برأي سوسير «لا تربط شيئا باسمٍ بل تصورا بصورة سمعية . وهذه الأخيرة ليست الصوت المادي الذي هو شيء فيزيائي صرف ، بل هي الطبع النفسي لهذا الصوت ، او التمثل الذي تهبنا إياه شهادة حواسنا ، ان الصورة السمعية هي حسيّة ، واذا ما دعوناها «مادية» فانما تكون في هذا المعنى فضلا عن مقابلتها بالتصور وهو العبارة الأخرى للترابط الاكثر تجريدا بشكل عام .»/40/ .

7.3. ليست اللغة ارتساما للواقع .

ان فكرة كون اللغة قائمة كلمات شائعة الى حد ما . بيد ان تصورا كهذا ساذج جدا ، ولا يصدر إلاّ عن رؤية ضيّقة وفكر شاحب ، اذ يقوم على فكرة ان العالم ينتظم ويترتب ـ قبل ان يدركه البشر ـ في فئات اشياء متميّزة يكون لكل شيء فيها وبالضرورة تعيين في كل لغة خاص به .

وصحيح انه ليمكن تسويغ هذا التصور جزئيا عندما يناط الامر بتعيين اصناف الكائنات الحيّة . ولكن ما أن نلج مجالات أخرى حتى يكشف هذا التصور نواقص خطيرة يفقد بها كل أساس مشروع .

وهكذا ، وبدال واحد bois ، فان الفرنسية مثلا تدل به على كل مساحة مزروعة شجرا وعلى المادة الخشبية بشكل عام ، في حين نرى ان العربية تقابل المصطلح الفرنسي بمعادلين اثنين : **غابة وخشب** ، كما نرى أن للغة الدانمركية على سبيل المثال كلمة troe للدلالة على الشجرة والمادة معا بشكل عام ، ولكنها تستعمل عبارة skov لتعيين كل مساحة مزروعة شجرا ، وعبارة brœnde لحطب الوقود ،

/ 40/ المرجع نفسه ص ٨٨

ومقابل forêt, bois أي غاب وغابة فان الاسبانية تستخدم leña, madera, bosque, والايطالية legname, legna selva .

إنّ ألسنية ما بعد سوسير تنظر الى اللغة من حيث كونها حقلا مُغلقا منفردا كمنظومة علامات و/ أو قواعد . وهي لا تدرس عناصر هذه المنظومة إلاّ اذا ما ارتّد بعضها الى بعض . ثم ان الألسنية الحديثة تميّز بين مرجع référent العلامة الألسنية (أي مجموع الاشياء التي تُرجعُ اليها العلامة) ومدلول العلامة (التصور الذي يثيره الدال في ذهننا عند اخراجنا له لفظا) . كما تمتلك كل لغة مجموعة مختلفة من التقابلات ، وبفعل هذه التقابلات تتحدد مختلف العلامات وتتضّح كليا .

إن لنا الآن ان نُبينّ هذه التمييزات ولكن بمثال عبارات الألوان (14) فمن المعروف ان العين البشرية تستطيع فيما يتعلق بإدراك الالوان التمييز بين قرابة سبعة ملايين ونصف فارق لوني . فتدّرج الألوان وسلّمها لا يعرف فواصل واضحة بينها . واللغة هي نفسها التي تُدخل نظاما في سلّم الألوان وتجمعها ضمن نماذج رئيسية محددة ، وعدد هذه الفوارق الخارجية يختلف من لغة الى اخرى . للغة الانكليزية مثلا حوالي أربعة آلاف مصطلح للألوان غير انها لا تستخدم منها سوى ثمانية . وفي نظر الانكليزي ، إن منظومته تبدو طبيعية وضرورية . غير ان المنهج المقارن سرعان ما يُبدي أنه ليست هناك تعادلات تامة حتى قياسا الى المفاهيم الأساسية . وهكذا فلم يكن للغة اللاتينية الكلاسيكية اي مصطلح لاسم الجنس الدّال على اللون «الرمادي» . وهذا النقص الفهرسي لا يعني ان عين الروماني كانت مصابة بتشوه فيزيولوجي وانه لم يكن ليدرك ويرى الفوارق بين الالوان بل ان الأمر يتعلق هنا بكون لغته كانت تقطّع مجال الألوان بشكل مختلف عما هو في اللغات الأخرى .

ويمكننا سوق مثال آخر عن القطع المختلف للواقع الذي تعتمده اللغات مأخوذا من عبارات القُربى . وفي المجال الاجتماعي ، فان تصنيفات مصطلحات

---

(14) قدّم عالم الالوان للألسنيين (في الربع الاول من هذا القرن) معلومات ذات بال . ان فاقة اللغات القديمة فيما يتعلق بعبارات الألوان قد أثارت حيرة الباحثين . فمترجمو هوميروس لاقوا صعوبات كأداء في ترجمة عبارات الالوان في اليونانية ، حتى ان الناس اعتقدوا طويلا ان الاغريق كانوا مصابين بعمى الألوان .

القُربى تدلّ على ان علاقات تبدو محدّدة بشكل تام بفعل «الواقع» يتم إدراكها ألسنيا بأشكال جد مختلفة . ان الوحدات الفهرسية (اي الكلمات) لمصطلحات القُربى قد تختلف بحسب مظهرين اثنين : «التعيين الشخصي» و«ترمّزُ الدور» symbolisation du rôle (بحسب لاونسبري F.G.Lounsbury) ، فعلى أي شيء يمكننا مثلا تطبيق العبارات الدالة على الأب ؟ ما الدور الذي يقوم به الأب في الطائفة الاجتماعية ؟ ان معنى العبارات الدالـة على «الأب» قد تتباعـد في مختلف اللغـات.. وإزاء هاتـين النقطتين ففي اللغات الاوروبية، لا تطبق كلمة «أب» إلا على شخص محُدد تماما (باستثناء «أب» التي تطلق على الكاهن) . غير انه في المجتمعات التي هي من نمط ايروكوا Type Iroquois (42) (بحسب علماء الاقوام) نرى أن «أب» تعني اضافة لما تعنيه في اللغات الاوروبية اخوة الأب وابناء العم وابناء العم الذكور .

وتبين دراسة مقارنة للغات مختلفة زمنيا ان ليس هناك من تشابه في مجال القُربى ذاته . ان مفهوما ما يُعتبر أساسياً في لغة قد لا تخصص له لغة أخرى اية كلمة . وبالطبع ثمة علاقات جوهرية لها تعيين خاص في كل مكان مثـل مفهومـي «أب» و«أم» ، ولكن وحتى هذه العبارات التي تبدو ظاهريا ثابتة ، قد يطرأ عليها اختلاف في قيمتها . ففي الهندواوربية ، كانت أجداد الكلمتين الفرنسيتين mère, père تدلّ على وظائف اجتماعية قائمة على مفهوم الاسرة البطريركي او الأبوي . في حـين ان علاقات القُربى الوراثية الصرف كانت تُعينّ بعبارات من مثل genitrix, genitor . هذا ومع اختفاء التنظيم الأبوي للأسرة وانحلاله طرأ تغيير على معنى كلمتي أب وأم اللتين فقدتا قيمتهما الاجتماعية .

وهكذا ، فالالسنية الحديثة أبرزت أن اللغات لا تقطع الواقع غير الألسني بطريقة متشابهة واحدة ، وبأنها ليسـت ارتسامـا غـير متبـدل لواقـع هو الآخـر لا يتزحزح ، فضلا عن انكارها اعتبار اللغات مدونات شمولية وعامة .

واذا ما تأملنا بصفاء ويقين ثابت كتاب سوسير «محاضرات . . .» وجدنا ان صاحبنا قد استعمل مصطلح القطع هذا ولكن على شكل دال آخر وهو «التقسيم» :

(42) الايروكوا Iroquois هم الهنود الذين قطنوا سابقا منطقة جنوبي شرقي بحيرات أرييه واونتاريو Erie, Ontario بين كندا والولايات المتحدة (بنسلفانيا) .

«إن منظومة ألسنية إنما هي سلسلة اختلافات بين أصوات منسقّة في سلسلة اختلافات فكرية ، غير ان هذا التقابل بين عددٍ ما من العلامات السمعية وعدد مساوٍ لها من التقسيمات في كتلة فكرية إنّما يولّد منظومة قيم» (43)

وقصارى القول ، انه يمكننا بعد هذا الذي تقدم أن نستنتج ان الالسنية تبين لنا ان كل لغة انما هي «تنظيم خاص لمعطيات التجربة وأن تعلّم لغة أخرى لا يقوم على وضع بطاقات جديدة على اشياء معروفة ، ولكنه التعوّد على تحليل ما يصنع غرض التواصلات الألسنية تحليلاً مختلفا»(44)

7.4. تقطيع الدوال الاعتباطي

اللغة بحسب تعبير جورج مونان G.Mounin «موشور حُكم على مستخدميه ان ينظروا الى العالم من خلاله ، ان رؤيتنا للعالم هي محددة إذن ، بل ان اللغة التي نتحدثها هي التي حددتها قبليا»(45)

وفي هذه التقسيمات المختلفة للتجربة غير الألسنية التي نحصل عليها عن العالم ينبغي ألا نقع في مطبات ساذجة تلك التي قد تدفع البعض للتحدث عن «عبقرية اللغة» او عن علاقة بعقلية خاصة فطرية لكل شعب . واذا كان هناك ٥٦٤٤ تسمية للجمل في اللغة العربية (ولا يقل عن ألف للسيف وخمسمائة للأسد ومئتين للأفعى الخ . . . .) في حين ان اللغة الفرنسية لا تملك سوى chamelle, chameau وأحيانا chamelon ، وقل الأمر نفسه بالنسبة للانكليزية she-camel, camel فمرد ذلك ان الممارسة الاجتماعية للفرنسيين لم تحثّهم على تمييز مختلف أنواع الجمال وبالتالي الى إطلاق تسميات متميزة عليها . فضلا عن ان الجمل بالنسبة الى

---

(43) المرجع نفسه ص ١٤٥-١٤٦

(44) اندريه مارتينيه : «عناصر في الألسنية العامة» Eléments de linguistique générale

(45) مفاتيح الألسنية Clés pour la linguistique A. Colin, Paris, 1970, P.12

العرب كان أساسيا في حياتهم اليومية وفي حضارتهم القديمة ، بينما لا نجد عند الفرنسيين سوى صنف بسيط من الإبليات .

وعلى العكس من هذا المثال ، بامكاننا تقديم مثال آخر عن الغنى الفهرسي لصالح اللغة الفرنسية وهو مثال مفردات الاجبان الشهير فالكل يعرف ان الانسان العربي لا يعرف إلاّ أنواعا قليلة جدا قد لا تتعدى عدد أصابع اليدين ، في وقت يميّز فيه الفرنسيون أكثر من ثلاثمائة وستين صنفا ومنها :

brie, camembert, cantal, Comté, Coulommiers, Emmenthal, Gruyère, Livarot, Parmesan, Pont l'Evêque, Port-Salut, Reblochon, Roquefort, Saint-Rémy...

وغير ذلك كثير . والكل يعلم كذلك كم هي كثيرة أنواع الخبز الفرنسي بدءا من الـBaguette الشهيرة الى الـ

boule, chenille, chemin de fer, coupé, couronne, épi, fondu, fil de fer, ficelle, flûte, fougace, fuseau, fusée, gressin, grichon, marseillais, pain de mie, pain d'Aix, pain mousseline, restaurant, rosace, roulet, saucisson, seiglon, tête d'Aix, torsade tordu, tourte...

وقل الأمر نفسه قياسا الى الخمور الفرنسية العديدة

وفي حين لا تميّز العربية والفرنسية والانكليزية مجتمعة إلاّ عبارة واحدة للثلج : ثلج, snow, neige نرى ان اللابون والاسكيمو يميّزون بين حوالي خمسين نوعا من الثلج .

7.5. تقطيع البُنى الاعتباطي .

كنا رأينا (أ . .6.2.5 ص ٦٩) أنّ اللغات الطبيعية البشرية تتقاسم في مجُملها أو تشترك في مجملها في سمة التمفصل المزدوج غير ان سمة التمفصل المزدوج هذه لا تتم بشكل متشابه في اللغات كافة ، وبكلام آخر ، ان اللغات تختلف فيما بينها في

طريقة تحليل معطيات التجربة غير الألسنية ونعني بها التجربة الاجتماعية الشاملة ، فضلا عن اختلاف في تقديم صورة عن عالم الاشياء والافكار والعواطف .

ان كل لغة تبني او تُفصل حسب طريقتها الواقع الخارج عن اللغة . والتمفصل المختلف هذا يُصيب الدوال (الكلمات) كما يُصيب البُنى النحوية (البيانات) . وهكذا ففي الحالة الاولى نتحدث عن التقطيع الفهرسي وفي الثانية عن التقطيع النحوي .

وفي الفقرة السابقة (أ . 7.4) رأينا أيضا كيف ان اللغات تُقيم تمييزات فهرسية في الممارسة الاجتماعية ، وان مفردات لغة ما ليست متطابقة دائما مع مفردات لغة أخرى أو ليس لهما دائما مفردات مُعَادِلة .

هذا وفي النحو تنوع في تقطيع العالم . لنأخذ مثالا ، حالة يشترك فيها فردان ، أحدهما فرنسي والآخر عربي أي فردان ينتميان الى طائفتين ألسنيتين مختلفتين ، ويشعران بألم فيزيولوجي في الرأس . إن الفرد الناطق الفرنسي يقول : «J'ai mal à la tête» في حين يقول العربي : «رأسي يؤلمني» وفي حالة الخطاب الفرنسي يكون فاعل البيان هو المُتحدث في حين ان الفاعل في الجملة العربية هو كلمة رأس التي تُشعر بالألم . وقل الأمر نفسه بالقياس الى الافعال المساعدة avoir, être الفرنسية و to have, to be الانكليزية وهي افعال لا وجود لها في العربية . فالمُتحدّث الفرنسي يُعبّرُ عن الملكية وكذلك الانكليزي بقولهما : «J'ai de l'argent» .

و«I have money» في حين ان العربي يقول : «عندي مالٌ» ، كما إن فعل être الفرنسي و to be الانكليزي انما يعبران عن حالة مثال ذلك : «Je suis fatigué» و «Iam tired» بينما يقول العربي : «أنا تعبٌ» ويستعمل الضمير الشخصي بدل الفعل في تينك اللغتين .

▲ ▲ ▲

8.
بُنـــى اللغـــة

. 8.1 ما اللغة ؟

لنا الآن ان نحدد اللغة ونعرفها مستعينين بذلك بتعريف قدّمه انـدريه مارتينية André Martinet وهو : «اللغة أداة تواصل يّتـم بهـا تحليل التجربـة البشرية بشكل مختلف في كل طائفة وذلك الىٰ وحـدات لهـا محتـوىٰ دلالي وتعبـير صوتـي ، انهـا الوِحْديمات monèmes ، وهذا التعبير الصوتي يَتَمَفْصَلُ بدوره في وحـدات متميّزة ومتعاقبـة ندعوهـا الصـوتيات وعددهـا محـددٌ في كل لغـة فضـلاً عن ان طبيعتهـا والعلاقات المتبادلة فيما بينها تختلف هي الأخرىٰ من لغة الىٰ لغة غيرها»(46) .

وأداة التواصل هذه مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بمختلف مظاهر النشاط البشري حتىٰ ليمكن تحليلها بحسب وجهات نظـر متعـددة . إضافـة الىٰ ذلك ، إن مشـكلات انسانية هامة تجد نفسها مرتبطة باللغـة . إن تفهـم آليات هذه الأخـيرة يمكن أن يساعدنا علىٰ ايجاد حلٍ لهذه المشكلات . إن الألسنية هي التي ستحاول فهم هذه الآليات ودراسة اللغة من وجهة نظر بُنيتها الداخلية .

ولتحليل هذه البنية تستخدم الألسنية تصورات تقترضها من علـوم أخـرىٰ كالفيزيولوجيا ، وعلم الأقوام ، وعلم النفس والسمعيات ونظرية التواصل . ولكن إزاء كل ذلك فإنها تساهم بشكل كبير في تطوير هذه العلوم . ومن غير الايغـال في تفاصيل الروابط القائمة بين الألسنية والعلوم الانسانية ، انه يكفينا القول هنـا ان غرض الألسنية متميّز بوضوح عن أغراض العلوم الأخرىٰ ، إنه دراسة بنية اللغة .

---

(46) المرجع المذكور ص ٢٠ André Martinet

8.2. اللغة : تحليلها التقليدي :

إنه لمن المفيد ـ وذلك قبل الانتقال الىٰ تحليل اللغة العلمي ـ ان نتعرض باختصار الىٰ ما قدمته القواعد التقليدية من وصف لوقائع اللغة . إذ تبدو لنا هذه النظرة الخلفية ضرورية ، ذلك أنها تساعد أولاً علىٰ بيان حدود هذه القواعد وثانياً علىٰ تبصر كل إرجاع ، وذكر للمذهب الذهني الارسطوطالي في حقل الملاحظة والمعاينة ، وعلىٰ رفض المفاهيم التجريبية والتي تُقبل حدسياً من مثل مفهومي الحرف والكلمة اللذين ينحدران من الكتابة ، ومفهوم الجملة المنحدر من منطق ارسطو .

ان التعاريف التي تقدمها القواعد التقليدية للاسم والفعل والصفة ، والفاعل والمفعول والمصدر . . . هي أحياناً معقدة حتىٰ لتبدو غامضة وعامة . وتعلمنا هذه القواعد ان «الفعل هو الشخص أو الشيء الذي يقوم بالعمل أو الذي يوجد في حالة ما» ، والمفعول به هو الشخص أو الشيء الذي يقع عليه فعل الفاعل» «والمصدر هو شكل الفعل وصيغته التي تعبّر عن فكرة الفعل ولا شيء غير ذلك» . لنأخذ الجملة التالية : «يحُب عُمر الحليب» فما هو في الواقع العمل الذي يقوم به عمر ؟ وفي أية حالة يوجد عمر ؟ وما العمل الذي يلحق بالحليب ؟ لنأخذ أيضاً مفهوم الأسم الذي «يدّل علىٰ شخص ، حيوان أو شيء» فاذا ما قلتُ «الركض» أفيمكن ان يدخُل هذا الاسم في احدىٰ الفئات المذكورة ؟ بالطبع لا لأن الأمر يتعلق بعملٍ . وهذه القواعد ترىٰ في النعت أنه كلمة تعبّر عن صفة ما . فماذا نقول إذن عن كلمات مثل الإنسانية ، البياض ؟ أما الفعل فهو كلمة تعبّر عن حدث أو حتىٰ عن حالة . وفي أمثلة مثل . «أرىٰ أُحِبُ ، أتألمُ» أين هو العمل أو أين هي الحالة المشار اليها في الفعل ؟

إنه لمن الممكن الاكثار من الامثلة ، وجملة القول إن القواعد التقليدية خاضعة لتصورات الاغريق الألسنية . فقد كان هؤلاء قد وجهّوا دراساتهم نحو الموضوعات الأساسية : من الاسلوبية الىٰ الفلسفة . وكانوا يرمون من جهة الىٰ تمديد الطرائق الأسلوبية ومن جهة اخرىٰ الىٰ تكييف الفكر مع اللسان . ولقد ركزّ ارسطو الاهتمام

بنقطة اساسية وهي تشكل القواعد وتطرق الىٰ إقامة تحليل دقيق للبنية اللغوية ، واضعاً الجملة مميزاً بين أجزاء الخطاب (48) فضلاً عن تعداده المقولات النحوية وايضاح دلالات الكلمات المعزولة الموجودة في السياق وتفريق بين اللغة المحكية والأخرىٰ المكتوبة .

يتبين من الملاحظات السابقة ان وصف اللغة عبر المقولات المنطقية أمر يصعب الأخذ به وبرهنته ، وفي الواقع انه لمن الصعب ردّ جميع وقائع اللغة الىٰ نماذج منطقية قمينة بتحديد حركة الفكر .

8.3 . الوصف البنيوي :

منذ سوسير أخذت الألسنية مهمة وصف اللغة كأداة تواصل ووصف عملها كمجموعة مستقلة .

وللبحث عن مبدأ «البنية» كغرض دراسة ، يبدو لزاماً علينا الرجوع الىٰ **ما قبل عام ١٩٣٠ بقليل والىٰ ألسنيين مناوئين لألسنية كانت توزع اللغة الىٰ عناصر معزولة مهتمة بمتابعة تطورها ومناوئين لتصور تاريخي صرف للغة .**

اتفق الأكثرون بشكل عام علىٰ أن منشأ هذه الحركة انمّا يستمد قواه من تعاليم سوسير الذي دُعي بحق مؤسس لا بل رائد البنيوية الحديثة . بيد أنه لا بد من الاشارة هنا الىٰ أن سوسير لم يستعمل قط كلمة «بنية» أياً يكن معناها ، وبالنسبة له ، فان المفهوم الجوهري إنما هو مفهوم «المنظومة» . أما الجديد في فكره فيمكن للعبارات التالية أن تبيّنه : «إن اللغة منظومة لا تعرف إلاّ ترتيبها الخاص» ، «اللغة

(48) ان تاريخ اجزاء الخطاب Parties du discours تلخص تاريخ القواعد كله ، وخاصة تاريخ البنيوية . فمنذ الفيثاغوريين لقد حدّدت معظم المدارس الفلسفية الكبرىٰ نفسها قياساً الىٰ تصنيفها للأفكار . غير ان ارسطو هو الذي ربط مقولات الفكر بأشكال اللغة (الكلمات) . وحتىٰ القرن التاسع عشر ، تّم اعتبار هذا الربط بمثابة حقيقة ميتافيزيقية . وعند ارسطو ، ان فكرة أكثر عمومية من أخرىٰ يمكن ان تكون مسندة الىٰ هذه الأخيرة وهي المُسند . فعندما نقول : «سقراط رجل» فرجل هي فئة بالنسبة الىٰ سقراط . ولقد عَمدَ ارسطو الىٰ جرد للمقولات العشر المعروفة .

منظومة علامات اعتباطية» ، «ان اللغة منظومة يمكن لأجزائها ، بل يجب عليها ، أن تؤخذ بعين الاعتبار ضمن تضامنها التزامني» . والأهـم من ذلك فان سوسير أعلن سمو المنظومة علىٰ العناصر التي تكوّنها : «إنه لمن الوهم الكبير الأخذ في الحسبان عبارة مجرد اتحاد صوتٍ ما وتصورٍ ما ، وان نحددها بهذا الشكل فهذا يعني نفيها من المنظومة التي هي جزء منها ، والاعتقاد انه بوسعنا البدء بالعبارات وبناء المنظومة بعد جمعنا إياها ، بينما يجب الانطلاق ـ وعلىٰ العكس من ذلك ـ من تضامن الكل الجمعي وصولاً بالتحليل الىٰ العناصر التي يحتويها» . (49) لأن الجملة الأخيرة هي التي تحتوي علىٰ أهم ما هناك في التصور «البنيوي» .

ان نقول إن الالسنية الحديثة تعمد الىٰ وصف للغة بنيوي ، هذا يسوقنا أولاً لأن نتساءل علامَ يدلّ مفهوم البنية

4 . 8 ما البنية ؟

في الألسنية ، تعني كلمة بُنية Structure (المشتقة من اللاتينية وتحديداً من الفعل Struere) تعني بناء . ثمة تعاريف عديدة تختلف فيما بينها بحسب وجهة النظر التي ننطلق منها : فلسفة ، كيمياء ، فيزياء الخ . . . غير انه لتحديد البنية الألسنية ، أي الطريقة التي تنتظم بها وحدات منظومة اللغة ، لنأخذ المثال التالي الذي نقترضه من الألسني الفرنسيْ جورج مونان G . Mounin ألا وهو مثال طاولة مصنوعة من خشب أبيض :

«إن تحليل بنية هذه الطاولة إنما هو البحث عن الوحدات الحقيقة التي تكوّنها ، ثم تفكيكها قطعة قطعة بحيث نتمكن من إعادة جمعهاكطاولة/. . ./وهكذا نجد أولاً أربع وحدات وهي الأرجل ، واربع وحدات أخرىٰ تشكل الإطار ، ثم وحدة أخرىٰ وهي الطاولة في حدّ ذاتها ، فضلاً عن الوحدة الأخيرة المكونة للجرّار ،

(49) محاضرات في الألسنية العامة» علىٰ التوالي ص ١٠٩ و ١٣٩

كما يمكن تفكيكه هو أيضاً الىٰ وحدات صغرىٰ بحسب الطريقة ذاتها . وللوهلة الأولىٰ هناك بُنية بوجود وحدات من أشكال مختلفة تستخدم بدورها حسب قواعد جمع مختلفة لا بنظام محدد . وأن يكون هناك بنية فهذا يعني وجود انتقاء في ترتيب الوحدات . ولكن ما معيار هذا الانتقاء ؟ إنه الوظيفة التي هي مفهوم جوهري في الألسنية البنيوية . وفي كل مرة نتكلم عن البنيوية في العلوم الانسانية دون التطرق الىٰ الوظيفة في وقت ، مع الادّعاء باستخدام نماذج تقدّمها الألسنة البنيوية ، نجد مجالاً للخشية والحذر ذلك أن الأمر يتعلق بثرثرة محض / . . . / .

وفي الواقع ، فإن ما يميزّ أرجل الطاولة مثلاً ، ليس أولاً مادّتها (خشب ، حديد ، الومنيوم . . .) ولا شكلها في حد ذاته . لنفرض أن حادثاً ما حَرَم الطاولة من احدىٰ ارجلها ، فبوسعي أبدالها بقضيب معدني ، أو برجل منضدة من طراز لويس الخامس عشر . او بعصا مقبض مكنسة الخ . . . إن الوظيفة الجمالية ، ان كان هناك وظيفة ، ستتغير دون شك . أما وظيفتها الأولية والمركزية كطاولة فهي باقية علىٰ حالها . ان الوحدات تتميّز أولاً بحسب وظائفها : الوظيفة ـ الرِجْل ، الوظيفة ـ الإطار ، الوظيفة ـ الجرّار» (50) .

8 . 5 . الوظيفة في الألسنية :

من المثال السابق ، نحتفظ بفكرة «الوظيفة» الهامة . فوظيفة الطاولة هي أنها تستخدم لشيء ما : مثلاً نستطيع الكتابة عليها ، أو القراءة أو حتىٰ الأكل . وما يميّزها انما هو الاستخدام أعني الدور أو الوظيفة التي تتمتع بها ، وليس مادّتها او شكلها . ان طاولة خشبية أو معدنية ، مستطيلة أو مستديرة ، إنما هي طاولة دائماً .

وفي الألسنية، ان الوظيفة هي ما يميز عنصراً في مجموعة ما ، هذا وفي بيان Enoncé ما ، إن دور وحدة ما هو في ان يكون لها مثلاً وظيفة مبتدأ ، وظيفة خبر ،

(50) المرجع المذكور في الحاشية رقم ص ٩١

وظيفة فاعل ، مفعول الخ . . . لنأخذ وحدتـين صوتيتـين مختلفتـين في الكلمتـين **خَالَبَ وغَالَبَ** ، فالمتحدث الناطق بالعربية يعرف ان هاتين الكلمتين متميزتان من حيث مادتهما الصوتية ، واذا ما نجح (أو استطـاع) المتحـدث التمييز بينهما ، فما **ذلك إلاّ لأنهما وحدتان متميزتان ، فالخاء و الغين لهما وظائف تمييزية مختلفة في اللغة العربية ، واذا ما ابدلنا الخاء بالغين تغير معنى الرسالة .**

ان وظيفة الألسني انما تقوم علىٰ انتقاء العناصر التي تساهم في إقامة التواصل الألسني . غير ان انتقاء العناصر والحالة هذه يَدْخل في كل عملية وصف . وعلىٰ هذا يمكن وصف غابة واحدة من وجهة نظر واصِفِها (الذي يَصِفُها) : فعالم النبات يختار من بين الأشجار العناصر الضرورية لوصفه من مثل نوع الأشجار ، ودرجة نموّها ، وشكل أوراقها ، وقشرة جذعها . . . والرسّام يركّز اهتمامـه علىٰ تعـارض الألوان وتناقضها وعلىٰ لعبة الظلال والأضواء الخ . . . وتاجر الخشب يختـار قطـر جذع الأشجار الخ . . . والشاعر يقف أمام همسات الريح في الأوراق ، والعاشق يرىٰ في الغابة ملجأ يحجبه عن أنظار الفضوليين الخ الخ . . .

فأنواع الوصف هذه مقبولة كلها ومشروعة بشرط ان يتجلّىٰ فيهـا تماسـك ، وبكلام آخر ان تتم من وجهة نظر واحدة محددة . فعندما يحدد الـواصِفُ (عالـم النبات ، الرسّام ، التاجر ، الشاعر ، العاشق . . .) وجهة نظره ، يبقىٰ عليه أن يختار العناصر أو السمات السديدة أو التمييزية التي تساعد علىٰ تمييز الرسالة ، ومن البديهي انه من وجهة نظر تاجر الخشب ، فان لون الأوراق أو شكلهـا لا تشـكل عناصر سديدة لوصفه . وكذلك الأمر ، فليس لنمو الأشجار النباتي اية استقامة من وجهة نظر الرسّام .

فضلاً عن ذلك ، إن وصف الرسالة الألسنية يمكن ان يتّم علىٰ يدي عالـم الفيزيولوجيا الذي يدّون اعضاء التصويت التي تلعب دوراًفي إصـدار الرسالة ، أو علىٰ يدي عالـم السمعيات الـذي يسجـل اهتزازات الأصـوات ويلاحـظ تواترهـا وسعتها . بيد ان عمل الألسني لا يبدأ فعلاً إلاّ عندما يتعرّف علىٰ قصد المتحدث في **رسالته وعلىٰ العناصر السديدة التي يختارها المتحدث لانتاج واصدار رسالته .**

لنأخذ المثال التالي : «**افتح الكتاب**» ، يميّز الألسني هنا وحدات ثلاث تعود الىٰ

مستوىً التمفصل الأول (أي ثلاث كلمات) وهي : ١ ـ افتح ، ٢ ـ الـ التعريف ، ٣ ـ كتاب ، لقد اختار المتحدث إذاً **افتح** بدل **اغلق** ، **أعط** ، ارم ، ضع ، الخ . . . واختار كذلك كتاب بدلاً من **دفتر** ، **مفكرة** ، **كرّاس** الخ . . . وفي المثـال : «**لقـد حَجَرَني الطبيب**» يميّز الألسني في **حَجَرَني** انتقاءاً متعاقبـاً للصـوتيمات ح ، ج ، ر ، والصوتيم ح هو الصوتيم الأولي الذي اختاره المتحدث وليس الصوتيم هـ الذي لو وجد لأعطىٰ «**هَجَّرَ**» في «**لقد هَجَرَني الطبيب**» . فهناك إذن من جانب المتحـدث قصد واضح للتواصل . ان العناصر المنتقاة هي تلك التي كان بامكانها ان لا تَرِدَ في البيان ، ولكن ولِورودها فيه ، فإنها تكتسب وظيفة إعلامية . وهذه الأخيرة هي التي تقدر لعنصر ما من عناصر البيان أن يعتبر عنصراً السنيا .

▲ ▲ ▲

9.
مـــا البنيـــويـــة ؟

في الفصل السابـق ، اعتبرنـا سوسـير مؤسس الألسـنية البنيوية الحديثـة . وبفضل آثاره فإن دراسة اللسان قد اكتسبت درجة العلم ومكانته . غير أنه يجب الاّ نعتقد أن سوسير قد وضع جميع مبادىء البنيوية برمتها . وفي الواقع باستطاعتنا دائماً أن نجد في مختلف العلوم رواداً للنظريات كافةً سبقوا من خَلفهم في الإشـارة إلى بعض جوانب هذه النظريات ذاتها .

وقبل الشروع في عرض المبادىء النظـرية والمنهجية للبنيوية، لا بـد لنـا أن نميّز ، ولو باقتضاب ، التمييزات التي أخرجها سوسير إلى حيز الوجود والمعتبرة في حد ذاتها أساس البنيوية وركيزتها .

9.1. «محاضرات في الألسنية العامة» (51)

تطالعنا «المحاضرات» بصفحات ينتقد فيها صاحبنا الألسنية التاريخية المقارنة وفقة اللغة (أ1.1.3 ,.1.3) إنها تحتوي على مجموعة مبادىء نظرية ومنهجية تهدف إلى تحديد غرض الألسنية ومكانتها بين العلوم الانسانية الأخرى والتصورات الأساسية التي تساعد على تحليل دقيق وصارم للغرض المُسبق تحديده .

ولقد ربط سوسير اسمه بنشأة الألسنية كعلم . وفضله الكبير إنما يعود إلى كونه واحداً من الأوائل الذين أحسّوا بتعددية اللغة . وبكلام آخر ، لقد فهم سوسير أن اللغة لا تغطي غرضاً واحداً وإنما أغراضاً عديدة .

(51) أ . الملاحظة رقم 2 ص ٢٨ .

● فمن وجهة نظر وظائفها يمكن اعتبار اللغة أداة تواصل ووسيلة تعبير وتشكل للأفكار

● ومن وجهة نظر شروط وجودها ، يمكن اعتبارها واقعة تاريخية وثقافية .

● ومن وجهة نظر تنظيمها الداخلي ، لنا اعتبارها منظومة علامات تستخدم لانتاج (ترميز) ولفهم (فك رموز) الرسائل .

وسوسير لم يَع تعددية اللغة وحسب وإنّما عبّر عن هذا التصوّر الجديد بمجموعة تصورات Concept . وقبل عرض هذه المجموعة أو هذه الثنائيات ، يليق بنا هنا أن نلقي لمحة عاجلة وسريعة على الاتجاهات الكبرى في «المحاضرات» .

9.2. الاتجاهات الكبرى في «المحاضرات»

9.2.1. الألسنية علم وصفي

يتعلق أولاً في تمييز الألسنية عن القواعد التقليدية . وهذه الأخيرة لا تعطي وصفاً للغة التي يستخدمها الناس عادة في محادثاتهم ، بل تلك التي ينبغي عليهم أن يتحدثوا بها أو أن يكتبوها . إن القواعد التقليدية معيارية وهي ترمي بشكل أساسي إلى انتاج قواعد لتميّز بين الصيغ والأشكال السليمة والأخرى غير السليمة . إن معياري يعني أن القواعد تفرض معيار «حُسن الاستخدام» الذي غالباً ما ينأى عن الاستخدام اليومي للغة . وبرفضها أو بعدم لجوئها إلى المشاهدة الصرف والوصف الموضوعي للمعطيات الألسنية ، فإن القواعد التقليدية تسد منافذ الطريق لتصبح دراسة علمية .

وللوصول إلى درجة العلمية هذه ، لا بد للألسنية أن تنّد عن وجهة النظر المعيارية معتمدة وجهة نظر وصفية موضوعية بعيداً عن أحكام القيمة . وبدل أن تعمد إلى اصدار التشريعات كما هو الأمر في القواعد التقليدية (لا تَقُلْ بل قلْ) فإن الألسني يصف معطيات ملاحظته ومعاينته وبدل أن ينهج نهجاً ذرياً ، جزئياً لوقائع لا تعرض ولا تحلّل المنظومة ، فإن الألسني يسعى لفهم تشغيل وسير منظومة اللغة .

9-2.2. سمو المنطوق على المكتوب

والألسنية لا تتميز عن القواعد التقليدية وحسب وإنما عن فقه اللغة أيضاً . وبما أن هذا الأخير يثابر على دراسة النصوص فإنه «ينسى اللغة الحيّة» مع الاعتراف أن الكثير من اللغات لا توجد إلاّ بشكل شفوي ، بل ثمة مجتمعات من دون كتابة ، في حين أن أية لغة طبيعية لم توجد أبداً في شكل الكتابة الوحيد . وبمعنى آخر ، إن الكلام أقدم وأكثر انتشاراً من الكتابة . وإضافة إلى ذلك ، لا بد من القول إن الطفل يبدأ باكتساب لغته الأم بعفوية وبشكلها الشفوي. بينما ينبغي علينا أن نعلّمه الاستنساخ الكتابي للغتنا. ومن جهة أخرى فإن منظومات الكتابة المعروفة مبنية ظاهرياً على وحدات اللغة المحكية (فالمنظومات الابجدية تنهض على الأصوات ، والمنظومات المقطعية على المقاطع الصوتية ومنظومات الكلمات الايحائية idéographique على الكلمات) . ولذا ، فإن الألسنية البنيوية طرحت مبدأ سمّو اللغة الشفوية المنطوقة على اللغة المكتوبة .

وأولوية اللغة المكتوبة هذه تمنح الكتابة دوراً ثانوياً وتمثيلياً حتى ولو حافظت على حظوتها كلها وذلك لأسباب عديدة ترتبط بتعلم اللغة في المدرسة وبتأثير الأدب بشكل خاص .

إن غرض الألسنية الأول هو إذاً منظومة اللغة الشفوية ،

9.2.3. الألسنية فرع من فروع الأعراضية

وإذا ما اعتبرناها من حيث تنظيمها الداخلي ، فإن اللغة إنمّا تبدو كمنظومة علامات صرف . ولأن سوسير حدّد منظومة العلامات هذه ونعني بها اللغة ، فقد حدّدها على انها مؤسسة اجتماعية . فإن بوسعه تصوّر علم تكون مُهمته دراسة «حياة العلامات في صدر الحياة الاجتماعية .»(52) وهذا العلم الذي تشكل الألسنية جزء منه يسميّه سوسير الأعراضية Sémiologie .

(52) «محاضرات في الألسنية العامة» ص ٢٧

وفي حين أن اللســان قدرة أو ملكة طبيعية فإن اللغة نتاج جماعي للطوائف الألسنية ومنظومة علامات تساعد على التعبير عن التجربة البشرية وعلى نقلها (أ. الفصل الثامن) . وفي هذا ، فاللغة كما يقول سوسير إنّما هي منظومة العلامات أو منظومة التعبير الأكثر أهمية وتعقيداً وانتشاراً من بين منظومات العلامات ومنظومات التعبير . إنها تتدخل في جميع منظومات العلامـات الأخرى باعتبارها عنصراً مركباً أو مكان إبدال relais . وتفوّق اللغة هذا كبير حتى أن الألسنية «تغدو النمـوذج العام لكل أعراضية ، على الرغم من أن اللغة ليست منظومة معينة . »(53)

9.2.4. مهام الألسنية

وبانتقاده سابقيه ، فإن سوسير سيعمل جاهداً لتكوين العلم الألسني وذلك بتحديده غرض هذا العلم ورسم منهجه ، لقد أوكل إلى الألسـنية المادّة الأكثـر اتساعـاً : «تشكل مظاهر اللسان البشري كافة مادة الألسنية : سواء أتعلق الأمـر بالشعـوب البدائية أم الحضارية ، بالحِقب القديمة أم بحِقـب الانحطـاط . مع الأخـذ بعـين الاعتبار في كل حقبة ليس اللسان السليم أو لسان الفنون وحسـب ، بل أشـكال التعبير مجتمعة ، وليس هذا كل شيء ، ولكون اللغة تنأى عن واقع الملاحظة ، فإن على الألسني أن يأخذ في حسابه النصوص المكتوبة لأنها وحدها تمكنّـه من معرفـة اللغات القديمة أو البعيدة زمنياً .

إن مهمة الألسنية إذن هي :

أ ـ تقديم الوصف والتاريخ لمجموع اللغات وهذا يعنـي سرد تاريخ الأسر اللغوية ، وإعادة بناء اللغات الأمّ في كل منها ما أمكنها ذلك

ب ـ البحث عن القوى الموجودة في اللغات كافة ، وبطريقة شمولية متواصلة ثم استخلاص القوانين العامة التي يمكن أن ترد إليها كل ظواهر التاريخ الخاصة .

ج ـ تحديد نفسها والاعتراف بنفسها . »(54)

(53) المرجع نفسه ص ٩٠

(54) المرجع نفسه ص ١٧

ما معنى هذا المقطع ؟ من الواضح أن الألسني لا يستطيع حَصرَ أفقه كفقيه اللغة باللغات التي تنقل لنا الوثائق الأدبية أو التاريخية المتعلقة «بالحضارات الكبرى» ولا «باللغة الجميلة» ضمن كل من هذه اللغات كما تفعل القواعد التقليدية . إنّ مجال الألسنية مكوّن من جميع اللغات كافة كتابية كانت أم محكية فضلاً عن تلك التي كانت تمارس بالأمس والتي احتفظنا عنها بشهادات ولو كتابية . إن الألسني يهتمّ بلغة قبيلة من قبائل الهنود الأمريكيين والتي نجهل تاريخها وأدبها بقدر اهتمامه باللغة الفرنسية المعاصرة . وضمن هذه الفرنسية المعاصرة ، فإنه يهتم بلغة مزارعي جنوب فرنسا بقدر اهتمامه بلغة عمال شمالها أو بلغة المثقفين الباريسيين .

وقصارى القول ، ينبغي على الألسني أن يُقيم وصف جميع اللغات وتاريخها كما لا بد له من استخلاص القوانين العامة انطلاقا من تنوّع اللغات (فاللغات منظومات علامات يُنظمها مبدأ الاعتباطية) .

لنَر الآن التصورات التي أخرجها سوسير إلى حيّز الوجود لمساعدة الألسنية على انجاز مهماتها تلك . وهذه التصورات المسماة ثنائية كان لها دور حاسم جداً في تطوير البنيوية .

9.3. الثنائيات السوسيرية

9.3.1. اللغة/ الكلام

إن تعريفنا اللغة كغرض الألسنية يَدلِفُ بنا إلى قلب الإشكالية السوسيرية . إن تصوّرها يلعب دوراً أساسياً في نظرية التواصل ، وسيكون له فيما بعد نتائج ذات بال بالقياس إلى تطور النظريات الألسنية .

ولا بد لتشكل كل علم من تحديد غرض المعرفة فيه ، ولتحديد غرض الألسنية الخاص يجب تحديد حقل ـ وذلك ضمن مجال اللسان ـ يكون أصغر من ذلك المجال وأكثر تجانساً ألا وهو حقل اللغة langue ، أو الرامزة التي يشترك فيها

جميع الأفراد المنتمين إلى طائفة ألسنية واحدة والتي تساعدهم على التواصل فيما بينهم . وهذا التحديد يُسعفُ في فصل الألسنية عن علوم أخرى تهتم هي الأخرى بظواهر اللسان ، كالفلسفة وعلم النفس وعلم الاجتماع الخ . . . .

ولكن كيفَ نعرّف اللغة ؟ إن ذلك إنما يكون بفصلها أولا عن اللسان (أ. ٥) ثم ، وخاصة ، بمقابلتها بالكلام parole «وإذا ما استطعنا جمع الصور الشفوية المختزنة كلها لدى الأفراد ، كما يقول سوسير ، فربما لمسنا الرابط الاجتماعي الذي يشكل اللغة . إنها كنز يدّخره الأفراد الذين ينتمون إلى مجموعة واحدة ، عبر ممارسة الكلام ، وهي منظومة نحوية موجودة بالقوة في كل دماغ ، وعلى وجه التحديد في أدمغة مجموعة أفراد ، إذ أنها لا توجد كاملة تامة عند الفرد وإنما لدى المجموعة . » (55)

وإذا كانت اللغة رامزة مشتركة بين جميع الأفراد الناطقين فيجب فصلها بوضوح عن الكلام ، وهو الاستخدام الفردي لتلك الرامزة ، ويتابع سوسير قوله «وفي فصلنا اللغة عن الكلام فإنما نفصل في وقت واحد : ١ ـ الاجتماعي عن الفردي ، ٢ ـ الجوهري عن الثانوي والعرضي إلى حدٍ ما .

اللغة ليست وظيفة للفرد الناطق ، وإنما هي نتاج يكتسبه الفرد انفعالياً / . . . ./ أمّا الكلام فهو على عكس ذلك ، عمل فردي للإرادة والعقل ، ومن المناسب أن نميّز فيه : ١ ـ الأنساق التي يستخدم الفرد الناطق من خلالها رمز اللغة للتعبير عن فكره الشخصي ، ٢ ـ الآلية النفسية ـ الفيزيائية التي تساعده على تجسيد هذه الأنساق . » (56) .

إن الكلام إذاً مرتبط باللغة وهو يبرز كنتيجة لاستخدامها : نتيجة فعل قول محدود ، هناك كلام المتكلم آ وكلام المتكلم ب وكلام المتكلم ج الخ . . . . فالكلام فردي ، خطيّ وله طابع فيزيائي . أما اللغة فهي منظومة علامات مترابطة ، وملزمة

(55) المرجع نفسه ص ٢٥

(56) المرجع نفسه ص ٢٥

لجميع أفراد طائفة ألسنية واحدة ، فضلاً عن كونها اجتماعية ، غير خطيّة وذات طابع نفسي .

وبكلام آخر ، إذا كان فعل الكلام الفردي ممكناً (يدخل فردٌ في تواصل ألسني مع فرد آخر من طائفته) فما ذلك إلاّ لأن هؤلاء الأفراد يمتلكون معاً منظومة ترابط وتنسيق الأصوات مع المعاني ، إننا نعني بذلك اللغة . أن نفصل اللغة عن الكلام فذلك يعود إلى فصل الاجتماعي (اللغة) عن الفردي (الكلام) الجوهري والأساسي عن الحادث العرضي ، المُمكن عن الحقيقي . إن مجال الكلام هو مجال الانتقاء والحرية والابداع والخلق ، ذلك أن أنساق العلامات الألسنية إنما ترتبط بإرادة المتكلمين .

ويشبّه سوسير اللغة بسمفونية ، وجودها مستقل عن طريقة عزفها (الكلام) . وتمييز سوسير هذا يدخل ضمن إطار علم النفس الترابطي وعلم الاجتماع الناشيء في نهاية القرن التاسع عشر. وفوق ذلك ، لقد ركّز سوسير الاهتمام على أن اللغة واقعا نفسيا ، إذ أنها مختزنة في دماغ كل فرد من أفراد الطائفة الألسنية . وتأثير علم اجتماع دور كهيم (أ . 1.4.1.) Durkheim يبدو من خلال تشديد سوسير على طابع اللغة الاجتماعي والسامي على الفرد .

وهكذا ، فالتمييز بين اللغة كشكلٍ والكلام كتحقيقٍ لمتتاليات صوتية ذات معنى ، إن هذا التمييز يشكل قبليا شرطا لتعريف اللغة كمنظومة علامات وقيم . وبإبرازه هذا التقابل الأول بين اللغة والكلام ، فإن سوسير يَضمَنُ بذلك استقلال الألسنية وتفردها .

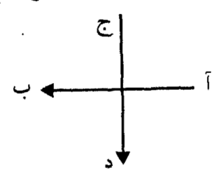
9.3.2. التزمن/ التزامن

ولدراسة غرض الألسنية ، أي اللغة ، ثمة منهجان ممكنان يمكن للألسني أن يتصوّرهما . وفي الواقع ، فإن بوسع هذا الاخير أن يدرس اللغة في سيرها وأثناء تشغيلها وذلك في آونة ما من الزمن . إن وصف اللغة بما هي عليه أو بما كانت عليه من قبل في فترة دقيقة من تاريخها ، إن هذا الوصف إنما يدعى التحليل التزامني .

فالتزامن synchronie إذاً هو دراسة حالة لغة ما (في الماضي أو في الحاضر) . والدراسة التزامنية تدخل في أفق الفرد الناطق إذ أن تاريخ اللغة أو تطورّها لا يدخل قياساً إليه في آلية التواصل الألسني . وتعتبر اللغة ككلٍ ذو درجة ما من التماسك وكمنظومة تعمل في وقت ما . وبالتالي فإن جميع الاعتبارات حول التطور التاريخي لعنصر المنظومة هذا أو ذاك تُستبعد من التحليل . إن الدراسة التزامنية إنما تنهض وبشكل استثنائي على الملاحظات التي تتّم خلال فترة قصيرة من فترات سير اللغة وتشغيلها .

أما المنهج الثاني فهو الدراسة التزمنية للغة diachronie . ولا تهتمّ هذه الدراسة بتشغيل المنظومة أو اللغة في وقت ما كالمنهج الأول ، وإنما بتطورها وبالتغيرات الألسنية التي قد تطرأ عليها . وتتضمن الدراسة التزمنية هذه مقارنة حالات مختلفة للغة واحدة وصولاً إلى استخلاص نتائج حول تطوّر اللغة التي هي قيد الدرس .

إن الآلية الداخلية للغة (أي تنظيم اللغة أو لنقل : بنيتها والتي تتقابل حسب سوسير والألسنية الخارجية تلك التي تدرس شروط وجود اللغة أي روابطها مع تاريخ الشعب والحضارة ، والسياسية والأدب وتوسع اللغة الجغرافي الخ . . . .) إن هذه الآلية يمكن أن تُدرس وتُفسرَّ بشكل مناسب تماماً من غير أن نعرف شيئاً عن تاريخ اللغة ، وعلى كل فإن دراسة هادفة مجدية لهذه الآلية الداخلية تفترض أن نستخرج من اللغة الجانب التزامني أو محور المعيّة والآخر التزمني أو محور التعاقب . إنه لمن الضروري إذن التمييز بين هذين المنظورين . «ومن المؤكد أنه لمن خير العلوم مجتمعة أن تحدد بدقة وحيطة المحاور التي تتموضع عليها الأشياء المدروسة ، ويجب التمييز ـ وذلك بحسب الشكل التالي ـ بين :



١ ـ محور المعية (آ ـ ب) المرتبط بعلاقات قائمة بين أشياء متواجدة إذ يستبعد كل تدخل زمني .

٢ ـ محور التعاقب (ج ـ د) إذ لا نستطيع إلاّ أن نعتبره شيئاً واحداً في آن ، بشرط أن

تتموضـــع جميع أشياء المحـــور الأول مع
تغيراتها . (57)

وتدرس الألسنية التزامنية التنظيم الداخلي للمنظومة أو اللغة ، بينما تدرس الالسنية التزمنية تاريخ وحدات اللغة المعزولة(58) .

وقبل سوسير كان هذان المنظوران مختلطين ، وكانت القواعد التقليدية تقدّم هجيناً من المعلومات حول أصل العلامات الألسنية واستخدامـها . وهـكذا لقـد قطع سوسير الصلة مع التقليد الذي أقامته منذ قرابة قرن القواعد المقارنة تلك التي لم تكن لترى في مقارنة اللغات إلاّ وسيلة لإعادة بناء الماضي ، ثم إن لهذا التقليد ضيرا آخر: فباعادة تخطيط وكتابة تطـور كلمـة ما ، كان جانـب اللغـة النظامـي والمنهجي مهملاً ، وذلك لكون الطريقة كانت تلجأ إلى تجزئة المنظومة وتفكيكها .

وتعود الاولوية من بين هاتين الطريقتين في الدراسة إلى التزامن . فالدراسة التزامنية (التي أصبحت وجهة نظر البنيوية) يجب أن تكون الاولى ، بينما يُنظر إلى التطور أو التزمن كانتقال من حالة ألسنية إلى أخرى . وبمنحه الدراسة التزامنية هذه الاولوية ، فإن سوسير إنّما يعارض وجهة النظر التاريخية التقليدية . إنّ الـوصف التزامني هذا إنّما يسوغ بفعل أن متكلمي لغة ما يتحدثون بلغتهـم أو يستطيعـون تعلم لغة أخرى مع جَهلهم التـام لتـاريخ لغتهـم أو لتـاريخ هذه اللغـة الاجنبية الاخرى .

ولاعطاء مثال عن استقلال التزامن بالقياس الى التزمن يستخدم سوسير صورة لعبة الشطرنج المشهورة (أ . 6.2.6) وهكذا ، فإن سوسير يسجّل بوضوح ثنـائية وجهات النظر والمناهج التي يمكن تطبيقها على اللغة . والفصلُ بين التزامن والتزمن هو أحد المبادىء السوسيرية التي لاقت قبولا واسعا شبه اجماعي . وهـذا الفصـل يلتقي والمقتضيات الحالية في البنيوية والقائلة بعدم ادخال اعتبارات تاريخية في وصف حالة لغوية ما .

---

(57) المرجع نفسه ص ١٠٢

(58)لم تقبل الألسنية المعاصرة فكرة سوسير هذه المتعلقة بصفة التزمن غير النظامية كما يبرهن على ذلك الدراسات الحديثة التي تمثلها بشكل بارز أعمال اندريه مارتينيه André Martinet

وفي يوم النّاس هذا ، وبفضل أثر سوسير، فإن الأمر لا يتعلق بالتـأكيد على صحة وشرعية وصف تزامني صرف ، وعلى العكس ، فالنقاش يدور حول امكانية قيام ألسنية تزمنية علمية . ويناط الامر هنا بمعرفة عما اذا كانت الدراسة التـزمنية تقتصر بالضرورة على وقائع معزولة خاصة انها تتم بالضرورة على مستوى الكلام ، ام أنه بالإمكان - وعلى العكس من ذلك - الحصول على تزمنية بنيوية يمكننا ان نستخلص منها تاريخ منظومة ألسنية عبر مقارنة مجموعة اوصاف تزامنية لحالات لغة مختلفة .

9.3.3. التركيب / الاستبدال (التعارض / التقابل)

يميز سوسير بين الوحدات الألسنية نمطي علاقات : العلاقات التـركيبية Syntagmatique والاخرى الاستبدالية paradigmatique (وكان يسميها الترابطية). ان صفة الخطّية للعلامة الألسنية (أ. 2.2.6.) تساعد على وصف طبيعة العلاقات التي توحّد هذه العلامات فيما بينها ضمن المنظومة الألسنية والتي تَسِمُ كل منظومة او كل لغة .

إن العلاقات التركيبية انما تحدد بالعلاقة التي تقيمها وحدة ألسنية ما مع الوحدات الاخرى العائدة للمستوى نفسه والتي تمتزج معها لتشكل بناءً او تركيباً Syntagme فعلى الصعيد الصرفيمي morphématique مثلاً فإن كلمة «شابّة» هي في علاقة مع أداة التعريف «أل» والاسم «فتاة» في البناء او التركيب التالي : «الفتاة الشابّة» ، وكذلك هو الأمر على الصعيد الصوتيمي ، إن الصوتيم ب هو في علاقة تركيبية مع الصوتيات ت مربوطة وألف وشين في كلمة «شابة» ذاتها . ان العلاقات التركيبية تنجم عن الترابط الذي يتّم بالتجاور contiguité بين وحدات تتموضع على محور اللغة التركيبي ، وإننا ندعوه محور الأنساق Combinaison . وهكذا يستطيع المتكلم ان يقول : «الفتاة الشابة» ثم يضيف الى هذا البيان énoncé علامات ألسنية اخرى :

«الفتاة الشابة تحُب» ثم يضيف زائداً إذا أراد : «الفتاة الشابة تحب الفساتين» ويضيف مجدداً : «الفتاة الشابة تحب الفساتين الحمراء» الخ . . . ان محور السلسلة الكلامي هذا هو الذي يشكل الخطاب discours

لنأخذ البيانات التالية :

- معي في نفسها غداً سيسافر الطائرة
- في سيسافر معي الطائرة نفسها غدا

نرَ انها غير مقبولة اطلاقاً في اللغة العربية في حين ان البيان التالي :

- سيسافر معي غداً في الطائرة نفسها

مقبول وطبيعي لأنه يخضع للقواعد ، اي للقواعد التركيبية للغة العربية ، وهذه القواعد هي التي تحدّد وتثبت الأنساق الممكنة للعلامات الألسنية في التراكيب وترتيبها .

أما العلاقات الاستبدالية فيتّم تحديدها بعلاقات الإبدل بين الوحدات القادرة على القيام بالدور نفسه ، وإذن بين علامات يمكن إبدالها فيا بينها . واصطلاحاً تمُثل هذه العلاقات على محور عمودي (أ . فيا بعد) . ان الإبدال (commutation, Substitution) يتطابق والانتقاء الذي يمكن للمتكلم ان يقوم به تبعا للمواقف التي يجد فيها نفسه ، وتبعا للحدود المسموح بها وللامكانات التي تقدمها المنظومة ، وهذا المحور الافقي يُسمى ايضا محور الانتقاء .

وبهذا يمكننا تمثيل العلاقات التركيبية والاخرى الاستبدالية بالشكل التالي :

الفتاة الشابّة | تحب الفساتين ←
محور التركيب (محور الأنساق)
تَعبُد
تُفضل
تشتري
تصنع
تبيع
الخ
↓ محور الاستبدال (محور التبديلات)

وفي هذا المثال ، يمكن للمتكلم ان يختار نقطة أخرى عامداً الى تبديلاته من السلسلة الكلامية ، فيستطيع مثلاً القيام بذلك على مستوى العلامة «شابة»

الفتاة	الشابّة تحب الفساتين
	الصبيّة
	الجذّابة
	الجميلة
	الخ

أو على مستوى العلامة «فساتين» :

الفتاة الشابة تحب	الفساتين
	المعاطف
	الكنزات
	الحلويات
	المعجّنات
	الخ

ان لائحة العلامات القابلة للإبدال فيا بينها تدعى جدول الاستبدال paradigme او مجموعة الوحدات التي تقيم فيا بينها علاقات استبدالية ممكنة .

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى نقول عن العلاقات القائمة بين الوحدات المتواجدة على محور الأنساق نقول عنها انها في علاقة تعارض contraste فيما بينها . ان هذا المصطلح ، اي التعارض إنما يرتبط بفكرة وجود أو ظهور occurrence علامات أخرى في التركيب . ونشير بعبارة التقابل opposition الى العلاقات القائمة بين العلامات الألسنية المنتميّة الى جدول استبدالي واحد . ونقول كذلك ان العلاقات التركيبية تربط علامات حضورياً وذلك ضمن مُتسلسلة حقيقية في السلسلة الكلامية بينما تجمع العلامات الاستبدالية بين علامات غيابياً ضمن متسلسلة ممُكنة ومهيأة في الذاكرة .

9.3.4. المادّة / الشكل

ليفهم التمييز بين المادةsubstance والشكلforme ، لنأخذ مثال كتلة رخامية نضعها بين يدّي نحّات . ان هذه الكتلة هي مادة لا شكل لها واضح ولا بُنية ، فهي عديمة الشكل وغير متميّزة . غير انه يمكن لها ان تُصبح بالقوة أشياء عديدة : جسد امرأة ، رأس عصفور ، تمثال نصفي الـخ . . وإذ ينحـت الفنـان هذه المادة فهـو يعطيها شكلا .

وتصوّر المادة هذا ينحى منحى التقليد الارسطوطـالي والمدرسّي . ويشـدّد سوسير وبشكل مطوّل على تحديد اللغة كشكل إذ يقول : «إن اللغة شكل وليست مادة» (59) .

وفي رأي سوسير أن مصطلـح شكل مرادف لمصطلـح بُنية بل إنـه ليتقابـل والمادة . والشكل هو التقطيع المتميّز التـي تقـوم به كل لغـة ضمـن كتلـة منظومة العلامات ، في حين ان المادة هي الواقع الصوتي او الدلالي (كتلة غير مبنيّة (أ . 7.3 وكذلك7.4) وبكلام آخر، لا وجود لدى سوسير لأفـكار مهيأة مسبقـا قبـل ظهور اللغة . إن الفكر ليس إلاّ «كتلة لا شكل لها ولا وضوح»(60) واللغةهي التي تمنح مادةالمعنى شكلاً ، كما انها تقطّع الواقع . ولكل لغة طريقة متميزة في مَفْصَلَةِ الواقع وتنظيم معطيات التجربة الاجتماعية . ان شكل لغة ما سيُترجم اذاً بالعلاقات التي تقيمها الوحدات الألسنية فيما بينها .

وهذا التصور السوسيري للغة كفكر مُنَظّم في مادة صوتية وتعريف اللغة على انها شكل وليست مادة ، ان هذا التصور قد تمّ تطويره على يد الألسني الدانماركي لويس هيلمسليفLouis Hjelmslef (أ . 15.1.3.1) وبالنسبة لهذا الأخير فإن التقابل السوسيري بين المادة والشكل انمّا يتّم ضمن مستويين للغة : مستوى التعبير (الدال) ومستوى المضمون (المدلول) . ونحصل عندئذ على : مادة التعبير ومادة المضمون ،

---

(59) المرجع نفسه ص ١٤٧

(60) المرجع نفسه ص ١٣٧

وشكل التعبير وشكل المضمون ، فالشكل والمادة الألسنيان يتعلقان بمستوى التعبير والمضمون معاً .

فعلى صعيد التعبير ، ان اصوات اللغتين الانكليزية والفرنسية مثلاً تجتمع وتتوّزع بين صوائت وصوامت تنتظم ضمن مقاطع صوتية بشكل محدد نظامي . ومادة التعبير هي تلك الكتلة الصوتية (ويمكن لها ان تكون بصرية او كتابية في حالة الكتابة) بينما شكل التعبير هو إحكام مادة الأصوات الصوتية او الكتابية وتوزيع هذه الأصوات وبنية التعبير هذه انما تتم على مستويين متميِّزين : المستوى الصوتيمي الذي لا يرتبط بأية علاقة مباشرة مع المضمون(إذلا معنى للصوتيم في حدٍّ ذاته) والمستوى الصرفيمي حيث يتّم الاتصال الاول بين بُنية التعبير وبنية المضمون ، ومادة التعبير هي المادة الصوتيّة المُستَغَلّة اما الشكل فهو أنماط الانساق التصويتية phonologique المُمكنة . والصرفيم هو وحدة مستوى التعبير التي تدخل في علاقة مع مستوى المضمون .

واما على مستوى المضمون ، فالشكل هو بَنْيَنَة structuration قصد التواصل التي تعمد اليها لغة ما . ومادة المضمون هي إقامة العلاقة بين العالم الخارجي والقدرة على الكلام ، أي قصد ايصال شيء مما يتعلق بالواقع . ويمكننا ان نقدم على ذلك مثال مصطلحات الألوان : فمادة مصطلحات الالوان هي استمرار لأطوال موجات ضوئية ، والشكل الذي يقطّع هذه المادة يرتبط باللغات التي تحول المادة باقامة فوارق باعداد متساوية او مختلفة من لغة الى اخرى . وهكذا فبمقابل الكلمة الانكليزية brown اي بنّي ، نجد ان الفرنسية تعمدُ الى تمييز فارقين في اللون ذاته وتُعطي marron, brun .

وفي طوقنا تلخيص ما سبق شرحه بالشكل التالي :

تقابُل / مستوى	شكل	مادة
تعبير	توزيع الاصوات وإحكامها	كتلة صوتية
مضمون	وضعْ قصد الاتصال ضمن بُنية	قصد اتصال

9.3.5. العلامة / القيمة/ المنظومة :

ذكرنا في الفقرة 6.1 نظرية العلامة الألسنية وذلك ضمن إطار سمات اللغات البشرية . ومن الممكن الآن الرجوع الى هذه النقطة لضمّها الى الثنائيات التي اخرجها سوسير الى حيّز الوجود .

لقد خرج سوسير بفكرة هامّة تتعلق بسمة المنظومة التي تتصف بها اللغة وليس الامر هنا ببحث فلسفي عن طبيعة العلامة ، وانما بتفسير للغة على انها منظومة علامات يحكم بعضها بعضاً .

وتحُدد العلامة الألسنية على انها ماهية مزدوجة : فهي لا تربط شيئاً باسم (حسب وجهة نظر ساذجة) وانما تصور ، المدلول ـ تمثُّل ذهني لفكرة او لشيء ـ بـ «صورة سمعية» ، الدال ـ تصوّر ذهني لتتابع صوتي . ان مكوني العلامة الألسنية ، الدال والمدلول ، هما من طبيعة نفسية ، وبمعنى آخر ، تحُدّدُ العلامة الألسنية كماهية نفسية . ان العلامة الفرنسية sœur : أي أخت تتضمن عنصرين غير منفصلين كوجهي صفحة ورق : فمن جهة التصور نجد فكرة «الأخت» ، ومن جهة أخرى نجد التطبع النفسي وهكذا تمثل الاصوات التي تشكل العلامة أخت واذا ما أخذت منفصلة ، فلا الصوتيات ولا المفاهيم تشكل علامات ألسنية .

وهذان الجانبان ، المرتبطان بشكل وثيق جداً في ضمير الفرد الناطق ، يمَنحان العلامة الألسنية في كلّيتها سمتيها الأساسيتين: الاعتباطية والخطية ، وفي نظرية سوسير ، إن اعتباطية العلامة تتحكم بمفهوم المنظومة وإذاً باللغة متقابلة بالكلام ، ثم بالتزامن والتزمن . وكذلك فهي تتحكم بالتقابل بين المؤسسات الاجتماعية عامة والأعراضية (أ . 6.3.9) ان مفهوم الاعتباطية يُشكل الفكرة الرئيسية في نظرية سوسير . ومع مبدأ الاعتباطية هذا ، نستطيع إدراك ووعي مفهوم العلامة والمنظومة . ان الرابط الموحّد الدال بالمدلول اعتباطي وهو ليس طبيعياً ، ويعني هذا ان انتقاء هذا الدّال لاستخدامه حاملا لذاك المدلول هو ذو قيمة اصطلاحية

ومفروض على أعضاء طائفة ألسنية واحدة . إن اللغة ليست عقداً بل هي إرث دائم وذلك بفعل وجودها قبل وجود الأفراد الناطقين .

إنّ العلامات الألسنية اولنقل : الدال والمدلول ، لا تنوجد في حد ذاتها وإنما بموجب تقابلها ووحدات أخرى من المستوى نفسه ، وليست العلاقات بين العلامات من طبيعة الاختلاف بل من طبيعة التقابل ، إذ لا شيء في اللغة إلاّ التقابلات : «وعلى الرغم من كون الدال والمدلول ـ هذا في اتخاذهما منعزلين ـ سلبيين وتفريقيين بشكل محض، فإن نسقهما واقعة ايجابية» (61) والتصوّر الذي به «لا وجود في اللغة إلاّ للاختلافات» (62) يبني الطرح الذي يجعل من سوسير مؤسس البنيوية في الألسنية ، فهو يقول : «ان اللغة شكل وليست مادة» (63) وبمعنى آخر ، ان الأساسي بالقياس الى وحدة ألسنية ليست المادة التي تتشكل منها وانما مجموع التقابلات التي تدخل فيها وحسب . ومجموع التقابلات هذا هو الذي يحدّد قيمة العلامة : فلا شيء يحدّد العلامات إلا علاقاتها المتبادلة وإحكامها أي إن ترتيبها مستقل عن كل إرجاع للمادة التصوّرية او الصوتية .

ـ ولفهم وادراك تصوّر القيمة ، علينا التطرق الى مسألة التشابهات والاختلافات في اللغة . ان واقع علامة ألسنية ما ملازم لوضعها في المنظومة : ان قيمة علامة ما تنتج عن شبكة التشابهات والاختلافات التي تضع هذه العلامة في موضعها بالقياس الى جميع العلامات الأخرى . ولشرح هذا الأمر يستخدم سوسير المقارنة بلعبة الشطرنج : ان كل قطعة من قطع اللعبة ، اذا ما اتخذت منعزلة ، لا تمثل شيئاً وليس لها أية قيمة . وهي لا تكتسب قيمة لها إلا في إطار المنظومة (أي قواعد تسيير اللعبة) . ان أبدّل قطعة بأي شيء كان فهذا غير مهم : بوسعي تبديل البرج بزر قميص مثلا ، شريطة ان احتفظ بقيمة البرج نفسها وبطريقة تشغيله ذاتها في اللعب .

---

(61) فرديناند دوسوسير ، المرجع نفسه ص ١٤٦

(62) المرجع نفسه ص ١٤٥

(63) المرجع نفسه ١٤٧

ـ ان فكرة القيمة تتحكم بتعريف اللغة كشكل ، وتضع مفهوم المنظومة في المكان الأول : ذلك ان القيم إنما تنبثق عن المنظومة . وهذه ليست مجموع العلامات . يجب إذن تغيير المنظور والانطلاق لا من العلامة على أساس انها وحدة منعزلة ، فللتعرف الى العلامات وتحديدها ينبغي ان نفعل ذلك بعد اعترافنا بسِمة المنظومة التي تتحلى بها اللغة . ان كل تعريف للعلامة يجب ردّه مباشرة الى تعريف المنظومة لفعل ان خاصة العلامة ، او سمتها ، هي في كونها على غير ما هي عليه العلامات الأخرى وفي اختلافها عنها . وبهذا المعنى ، يعرّف سوسير اللغة بأنها منظومة اختلافات (64) .

واذا استطاعت الألسنية البنيوية التطور فما كان ذلك إلاّ لأنه بات ممكناً تصوّر اللغة كمنظومة قيم ، وهكذا وضع سوسير أسس دراسة اللغة البنيوية وحدّد محوري تشغيلها : محور الأنساق (محور التركيب) ومحور الانتقاء (محور الاستبدال) .

9.3.6. الأعراضية / المؤسسات الاجتماعية

لابد من الالماح الى التقابل الأخير الذي أقامه سوسير بين المؤسسات الاجتماعية كافة والأعراضية sémiologie . وهذه الأخيرة تمّ تصورها كمؤسسة اجتماعية ، كمجموعة منظومات العلامات كافة ، الناجمة عن ملكة التواصل العامّة . ويقول سوسير ان اللغة «منظومة من العلامات التي تعبّر عن فكرٍ ما ، وهي تشبه الكتابة وأبجدية الصُمّ والبُكم والطقوس الرمزية وضروب المجاملة والإشارات العسكرية الخ . . . إنها وحسب ، أهم هذه المنظومات على الإطلاق. يمكننا إذن تصور علم يدرس حياة العلامات في صدر الحياة الاجتماعية / . . ./ إننا ندعوه بالأعراضية تلك التي تدلنا على كنه وماهية العلامات والقوانين التي تنظمها» (65) .

---

(64) المرجع نفسه : «القيمة الألسنية» ص ص ١٣٧ـ ١٤٨

(65) المرجع نفسه ص ٢٧ .

إن جدّة سوسير وأصالته انمّا تنهض على التشديد في آن واحـد على السمات المشتركة للمؤسسات الاجتماعية كافة (تأثير النزعة السوسيولوجية المحيطة والتي يمثلها دور كهايم Durkheim) وعلى خصائص وميز منظومات العلامات .

وهذا التقابل يلخّص الطريقة التي كان يرى سوسير بها اللغة ، ليس كمجرد غرض الألسنية وحسب (كما بيّنا ذلك في التقابلات السابقة) وانما ايضاً كعلم . واذا ما اعتبرنا اللغة من حيث تنظيمها الداخلي (أ. 9.1) فإنها تبدو كمنظومةقيم صرف (منظومة أعراضية) مستقلة منطقيا عن تحقيقها في لغة هذه الطائفة أو تلك ، وهي تقترب من بعض منظومات علامات أخرى . ومـع هذه المنظومـات ، فان اللغـة تشكل غرض نظرية عامة للمنظومات التي دعاها سوسير الأعـراضية . والألسـنية تدخل في نطاق هذا العلم وما هي إلاّ «جزءٌ من هذا العلم العامّ ، ولعله من الممكن تطبيق القوانين التي ستكتشفها الأعراضية على الألسنية ، وهكذا ترتبط هذه الأخيرة بمجال محدّد بدقة في مجموعة الوقائع البشرية» (66) .

وانطلاقـا من هذا التقابـل : المؤسسـات الاجتماعية / الأعـراضية نستـطيع استخلاص تقابلين اخرين : الأعراضية / اللسان ، واللسان/ اللغات البشرية (فيما يتعلق بهذين التقابلين راجع 4.3 . و2) اما التقابل الثاني فهو يقوم بين اللسـان (أي الملكة البشرية ومجمـوع وجهات النظر الفيزيولـوجية ، النفسية ، السوسيولـوجية والفلسفية. . .) وبين كل من اللغات البشرية الطبيعية بشكل خاص . وبدورهـا فإن كل لغـة ترى نفسهـا تتسـمّ بالتفاعـل بـين اللغـة بحصر المعنـى (= منظومـة علامات) ، كنزٌ اجتماعي للعلامات ولقواعد نسقهـا الخاصـة بطائفـة متكلّمـين ، والكلام ، فعل فردي لتحقيق وتحيين اللغة (أ . 9.3.1.) .

9.4. ملاحظة ختامية

لقد أخذ بعضهم على سوسير فصل اللغة عن شروط وجودها في المجتمع ، واللغة عن الكلام والفكر ، والشكل عن المادّة ، والتزامن عن التزمن ، والاستبدالي

(66) المرجع نفسه ص ٢٧

عن التركيبي الخ . . . وفي معظم الحالات ، فان هذا النقد ليس مبنياً على أسس متينة بشكل كافٍ . وفي الواقع ، لقد بينّ سوسير الرابط بين اللغة والمجتمع ، واللغة والكلام ، والشكل والمادّة ، والتزامن والتزمن . لا بل هو الذي بينّ بوضوح كبير الرابط الذي لا تُفصم عُراه بين اللغة والفكر عندما نشبّه اللغة بورقة «يكون الفكر وجهها الأول والصوت وجهها الآخر ، ولا نستطيع فصل أحد الوجهين من دون الآخر في آن . والأمر نفسه بالقياس الى اللغة ، إذ لا يمكن عزل الصوت عن الفكر ولا الفكر عن الصوت» . (67) .

ان ما قدّمه سوسير للألسنية والعلوم الانسانية الأخرى يكمن في هذه التقابلات (التي نجد أصداء لها عند سابقيه) أقل مما يكمن في التركيب الذي صنعه لهذه التقابلات في رؤية شاملة ومنهجية .

بيد أن سوسير لا يتوقف عند هذا الحد في «محاضراته» فها هو يرسم الخطوط العريضة «لألسنية جغرافية» (اي علم اللهجات) و«لألسنية تزمنيّة» و«لألسنية الكلام» (التبيين énonciation) .

وبتأثير من سوسير ، فان الربع الثاني من القرن العشرين قد دُمغ في اوروبا وفي الولايات المتحدة بالتطور المتميز الخارق للألسنية المسماة بالبنيوية . لنا سنحة للعودة الى تطور تاريخي للألسنية (أ.15 ص ٢٥٥) .

▲ ▲ ▲

(67) المرجع نفسه ص ١٣٨

10.
مجــالات الألســنيــة

رأينا أن اللغة تستخدم ضربين اثنين من المواد ، فثمة الأصوات التي يصدرها جهاز التصويت تلك التي تستخدمها اللغات الطبيعية بشكل مختلف ، ومن جهـة أخرى هناك الأفكار ، التصورات ، المواقـف الاجتماعية ، الدلالات ، وبكلمة كل الوقائع الحقيقية او الوهمية المتعلّقة بوجود الانسان ، وبردود فعله وبرغبته في ايصال تجربته الى غيره ، وفي هاتين المادتـين ، اي بنية التعبير وبنية المحتـوى ، تنتظـم اللغة .

يستطيع الألسني دراسة النتـاج الصوتي ، او بنية التعبـير ، عبـر متتـاليات أصوات مُنتظمة ومجموعات أصوات مميّزة تشكل الخطاب . ان نسق هذه الأصوات يتمّ بحسب مجموعة أنماط معقّدة جداً وهي رجوعية (تكرارية) ومتوقعة جزئياً .

نقول هذا فضلا عن قدرته على دراسة غرض الخطاب أو بنية المحتوي ، وفي هذه المرّة ، ينتقل اهتمامه لا إلى الأصوات التي تتنسّق في الكلمات وإنما الى معاني الأصوات المجتمعة في الكلمات والكلما ت المجتمعة في الجُمل .

10.1. العلوم الألسنية

وإذا ما تموضعنا في هذا المستوى او ذاك ، فانه يمكننا ابراز مجالات الألسنية على اختلافهـا : الصَـوْتيّة phonétique ، التَصْـويتيّة phonologie ، الصرف morphologie ، النحو syntaxe ، المُفْـرَدَاتية lexicologie ، الـدلالية sémantique .
والى جانب هذه الفروع الألسنية الصرف ، ثمـة فروع تمُثـل تطبيقـات للنمـوذج الألسني على حقول أخرى للتجربة البشرية حيث تجد اللغة نفسها متورطة ومتدخلة بشكل من الأشكال .

لقد أصبحت الألسنية علماً معقداً يمد جذوره الى علم الاقوام وعلم النفس وعلم الاجتماع والعلوم الطبيعية بتفريعاتها كافة . واضافة الى ذلك ، فان الاختصاصي يعلم كل العلم أن «معرفة شيء ما عن الموسيقى» لا يعني اطلاقا «معرفة الموسيقى بشكل تام» .

وبكونها علماً دقيقاً فان الألسنية اختصاص حديث العهد ، وصحيح انه يمكننا الرجوع الى عام ١٨٦٤ حيث تم تأسيس اقدم جمعية ألسنية وهي جمعية باريس ، في حين أن جمعية الألسنية الامريكية لم تؤسس الا في عام ١٩٢٤ . وازداد اهتمام الطلاب والباحثين في أفق فقهاء اللغة بهذا العلم الناشىء الى أن أصبح محور العلوم الانسانية كافة خلال السنوات العشرين الماضية . وهذه العلوم تعترف أن اللغة تحتل مركز الصدارة في الشؤون الانسانية . وما ان برزت الألسنية كعلم مستقل حتى قامت اتصالات بين العلوم الانسانية كافة ونشأت جوانب وفروع متداخلة فيما بينها متعددة الاختصاصات .

10.2. الفروع المتداخلة الاختصاصات

لكي لا نوغل بعيدا في هذا الجانب ، نستطيع استخلاص ثلاث مجموعات من العلوم التي تولدت عن الاختصاصات هذه .

● أولا ، بامكاننا ذكر مجموعة من العلوم التي تدرس التغيرات الألسنية ذات الطابع الاجتماعي والثقافي والجغرافي ، مثل الألسنية الاجتماعية والألسنية العِرقية ethnolinguistique واللهجاتية dialectologie .

● ثانياً ـ يمكننا التنويه بالعلوم التي تعالج العلاقات القائمة بين الفرد الناطق واللسان الذي يستخدمه ، وهكذا نشأت الألسنية النفسية والألسنية العصبية .

● ثالثاً ، ثمة علوم تهتم بتطبيقات الألسنية على حقل الخطاب او النصوص : الشعرية ، السيمياء ، الاسلوبية ، تحليل الخطاب ، التبيين .

نضيف الى ما تقدم العلوم التي تُتطرق الى مسائل الألسنية التطبيقية : تعليمية اللغات الحيّة ، واللغات الأم او اللغات الاجنبية .

كما وتلتحق بالألسنية التطبيقية طرائق الألسنية بشكل عام والمفرداتية lexicologie بشكل خاص ، تلك التي تُستخدم في التحليل التوثيقي ، والترجمة الآلية ، والفهرسية lexicographie والمعجمية dictionnairique كما وأن نظرية التواصل والألسنية قد حثتا الأبحاث في مجال الاتصالات السلكية واللاسلكية . ونجد تطبيقا للصوتية وللتصويتية في التقويم اللفظي orthophonie واللفظية orthoépie وتأهيل الصُم الخ . .

هذا فضلاً عن وجود ألسنية رياضية تهتم بتطبيقات الاحصاء على مجموع الوحدات الألسنية . وبهذا فنحن نتحدث عن الاحصاء الالسني(68) وعن بناء نماذج رياضية وشكلية هدفها محاكاة بُنية اللغات الطبيعية (69) .

▲ ▲ ▲

---

(68) انظر Charles Muller : La Statistique linguistique , Hachette, Paris, 1975 «الاحصاء الالسني» -
(Initiation aux problèmes de statistique lexicale
- «مدخل الى مشكلات الاحصاء الفهرسي» Hachette .

(69) Travaux de N. Chomsky: أبحاث نوام شومسكي
M. Hugues : Initiation mathématique aux grammaires formelles
Larousse, Paris, 1974. «مدخل رياضي للقواعد الشكلية»
. Maurice Gross et André Lentin: Notions sur les grammaires formelles
Paris , Gauthier - Villars, 1970 «مبادىء حول القواعد الشكلية»

11.
مجالات الألسنية

اذا ما أخذنا في الحسبان العنصر الاساسي لمنظومة التعبير ، الا وهو الصَوتيم phonème ، نستطيع التمييز بين الصوتية phonétique والتصـويتية phonologie . فالصوتيم هو الوحدة التمييزية الصغرى التي لا معنى لها والتي نستطيع تحديدهـا بتقطيع السلسلة الكلامية . إن كل لغة تحتوي في رامزتها code على عدد محدد من الصوتيات وهذا العدد يتراوح بين العشرين والخمسين بحسب اللغات . وتتمفصل هذه الصوتيات الواحد مع الآخر وفقا لانساق مختلفـة وذلك على طول السلسلـة الـكلامية مشكلـة بذلك جميع دوال لغـة ما (وحـدات التمفصـل الاول بحسـب مصطلحات اندريه مارتينيه André Martinet) فاللغـة الفـرنسية مثـلا تحتـوي ستـة وثلاثين صوتياً (مع عدم خلطها مع حروف الأبجدية الستـة والعشرين) في حـين للعربية ثمانية وعشرين صوتيا .

لقد استُخدم مصطلحا الصوتية والتصويتية لفترة طويلة دون أي تمييز بينهما للاشارة الى الدراسة ذاتها ، دراسة أصوات اللسان . وفي القرن التاسع عشر أبرز تطور الدراسـة الفيزيائية والفيزيولـوجية للأصـوات ضرورة صوتية وظيفية . وفي الواقع ، لقد دلّت قياسات الأصوات ان صوتا ما لا يُلفظ أبدا بالطريقة نفسهـا ، وهذا ما طرح التساؤل التالي : ما هي العوامل التي تساعد على التعرف الى صوت ما عبر تعدد تحقيقاته ؟

11.1 الصوتية : تصنيفها

الصوتية هي دراسة العناصر الصوتية للسلسلة الكلامية المعتبـرة في تحقيقهـا

الملموس وبمعزل عن وظيفتها الألسنية أي عن استخدامها في التواصل . ومن هذا الباب ، فان الصوتية تعود الى مجال الكلام . وفي طوقنا وصف العناصر الصوتية ، أي الصوتيات ، وبشكل موضوعي من وجهات نظر ثلاث رئيسية :

١ ـ بحسب الطريقة التي تصدرها أعضاء الجهاز الصوتي .
٢ ـ بحسب الخواص السمعية للموجات الصوتية التي تنتشر من فم المتكلم الى أذن المستمع .
٣ ـ بحسب تأثير الاصوات الفيزيائي في الأذن البشرية وآلياتها المشاركة .
ان وجهات النظر الثلاث هذه تؤدي الى توزيع ثلاثي لمجال الصوتية :

صوتية نُطقية articulatoire ، وصوتية سمعية acoustique ، وصوتية اصغائية auditive ، ان القطاع الذي يدرس الاصوات بحسب تأثيراتها الفيزيائية في الأذن ، او الصوتية الاصغائية ، لم يوغل بعد بعمق في الدراسة ويبقى هذا المجال قليل الاستكشاف ربما لانه يمت بصلة الى الفيزيولوجيا العصبية والى علم النفس ولأنه يدرس الآليات الدماغية والعصبية لترميز ولفك رموز الرسالة عند المُرسل والمستقبل معاً . وبما أن الابحاث في الفيزيولوجيا العصبية وفي علم النفس لم تتقدم بعد بالشكل المُرضي في هذا المجال ، فان الالسني لا يستطيع المخاطرة وزّج نفسه في مجال الصوتية هذا . وبالتالي نستطيع اعتبار ان الصوتية تتضمن فرعين رئيسيين : الصوتية النُطقية والاخرى السمعية . بيد ان هذا التقسيم لم يزل تقليدياً ، وفي طوقنا تطويره باضافة مجال ثالث وهو مجال الصوتية التجريبية او الاداتية instrumental ومجموعة الفروع الثلاثة هذه تتعلق بطريقة مُقاربة الغرض الصوتي ، وغايته مرتبطة ارتباطاً مباشراً بطبيعة هذا الغرض . وبهذا نحصل على التوزيع التالي :

ـ الصوتية النُطقية او الفيزيولوجية phonétique articulatoire .

ـ الصوتية السَمعية أو الفيزيائية phonétique acoustique .

ـ الصوتية التجريبية أو الأداتية phonétique expérimentale .

11.2. الصوتية النُطقية

هكذا يتم تعريف هذه الصوتية عبر الطريقة التي تُنطق بها الصوتيات ، مكونات الدوال الصوتية .

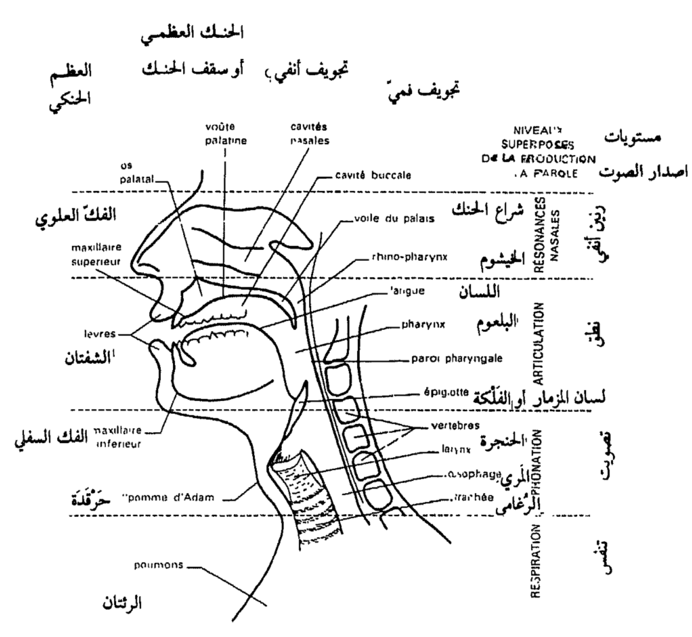
ولاصدار أصوات الكلام ، تُستخدم بعض أجزاء الجسم المسماة الأعضاء الصوتية او اعضاء الكلام وهي تضم الرئتين ، الرغامى (= القصبة الهوائية) ، الحنجرة والحبال الصوتية ، البلعوم ، التجويفات الفميّة والانفية (وملحقاتها : اللسان ، الاسنان ، الشفتين ، الحنك (الغار والطبق) (أ . الشكل) .

وهذه الاعضاء نفسها تشكل أنبوبا ذا شكل معقد يتغير قسمه الذي يمتد الى ما فوق الحُنجرة وهو الممر الصوتي ، نقول يتغيرّ تبعا لحركات اللسان وشراع الحنك والشفتين .

11. 2.1. تصنيف الاصوات : الصوائت والصوامت

ان الاصوات التي يصدرها الانسان انما تنجم عن انسياب أو جريان كتلة الهواء الخارجة من الرئتين اثناء الزفير . ويمكن لجريان الهواء هذا أن يُصادف ـ وذلك عبر نقاط مروره في الممر الفمي ـ عقبة أو انغلاقاً مؤقتا او تضيقا قميناً بتوليد تشوش . وعلى هذا الشكل يتم اصدار الصوامت العاصرِة (تضييق) والصوامت الانسدادية (إغلاق) . ويمكن لكل من هذه النتاجات الصوتية أن يكون مصحوبا (صوامت مجهورة) أم لا (صوامت مهموسة) باهتزاز الحبال الصوتية . وعند الجهر ، تنفتح الحبال الصوتية وتنغلق بسرعة لتجزىء الكتلة الهوائية الى نفخات متعاقبة . وعندما يبقى الممر مفتوحاً لدى اندفاع هذا الصوت نكون أمام الصوائت .

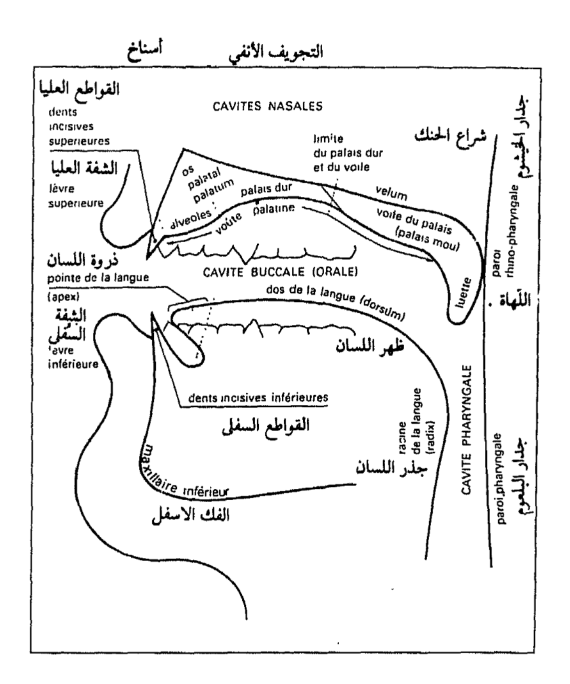
ومن وجهة النظر الفيزيولوجية ، ان إصدار بعض الاصوات يتعلق بشكل أساسي بالعضلات الرافعة للسان ، في حين أن العضلات الخافضة لهذا العضو تؤدي الى أصوات اخرى مغايرة . ان نُطق النموذج الأول يشكل الصوامت ، اما نطق النموذج الثاني فيحدث الصوائت .



Coupe médiane schématique des organes de la parole

(D'après G. SIRAKA, *Album phonétique*, Québec, Presses de l'Université Laval.)

مقطع لأعضاء النطق



- **Cavités sus-glottiques et organes articulatoires**
(vus de profil à l'aide de rayons X)

(D'après G. STRAKA, *Album phonétique*, Presses de l'Université Laval. Dans : *Le Langage*, Éd. CAL.)

ومن وجهة النظر السمعية ، يمكن القول ان الصوائت يمكن تشبيهها بأصوات موسيقية ، في حين أن الصوامت هي إما تشوش صرف واما تنسيق تشوّشات وأصوات . ونذكر هنا أن الصوت الموسيقي (علامة بيانو مثلا) ناجم عن اهتزازات ايقاعية مُنتظمة اي انها منفصلة بأبعاد متساوية للهواء الحنجري الذي يمّر بحرية في الممر الفمي ، بينما ينتج التشوش عن اهتزازات غير منتظمة (كصرير منشار مثلاً) .

ان جمهرة علماء الصوتية تقبل تصنيف أصوات الكلام الى صوامت وصوائت . وينهض هذا التصنيف على تمييز مُسبق بين الأصوات المجهورة والاخرى غير المجهورة . ان الصوت نتاج اهتزاز الحبال الصوتية المُنتظم في الحنجرة . وتواتر الاهتزازات انما يتعلق بدرجة توتر الحبال الصوتية ، وهذا ما يُنظم ارتفاع الصوت الحاصل . وتعرف الصوائت كأصوات مجهورة لا يلاقي عقباتٍ في دفعها الهواء المار بالبلعوم والفم . أما أصوات الكلام الاخرى والتي ليست صوائت فانها تعرف عندئذ كصوامت . والصوامت أصوات تحتاج لِنُطقها الى دعم صائت سابق أو لاحق . وبما أن المخرج المولد للاصوات هو أضيق في حال لفظ الصوامت ، فان بعض الاحتكاكات تمتزج عندئذ بالصوت الحنجري وهذا ما يضفي على الصوامت جهورية ضعيفة نسبياً .

وأخيرا ، يمكن تصنيف أصوات الكلام عبر معيارين اثنين : طريقة النُطق ونقطة النُطق أو المخرج . فطريقة النطق تحدد الطريقة التي يمر بها الهواء عبر الممر الزفيري أثناء التويت . أما نقطة النُطق أو المخرج فهي تحدد طبيعة الأعضاء أو النواطق (ج ناطق) التي يغير تماسها أو تقاربها الصوت الحنجري .

11.2.1.1. الصوائت

تصنف الصوائت عامة وذلك في الصوتية النُطقية أو الفيزيولوجية بحسب الابعاد التي تحدثنا عنها سابقا وهي نقطة النطق وطريقته :

11.2.1.1.1. مخرج النُطق

يحدد هذا المعيار حركات اللسان الأفقية : ان الأمر يتعلق هنا بتعيين المكان في الحنك الذي يَنفُخ اللسان فيه كتلته العضلية . وبعبارة اخرى ، يتعلق الأمر بالتعرف الى المنطقة حيث تتضيق الكتلة الهوائية بشكل كبير بين الحنك واللسان .

وهكذا ، نميز بين الصوائت الحنكية (أو الغارية) التي يتموضع نُطقها الرئيسي على مستوى الحنك الصلب أو الغار حيث يرتفع الجزء الأمامي لظهر اللسان نحو الحنك الصلب . اننا نميز اذن بين هذه الصوائت الحنكية والصوائت اللهوية التي يتضمن تحقيقها تدخل الجزء الخلفي للسان الذي يتوجه بدوره نحو الحنك الرخو أو شراع الحنك .

11. 2. 1. 1. 2. طريقة النُطق

أما معيار التعرف الثاني الى الصوائت فهو يأخذ في حسابه الطريقة التي تتم بها حركات جهاز التصويت فضلا عن التنبيه الى درجة الانفراج ، والتأنيف والتشفيه ومدة الصوائت .

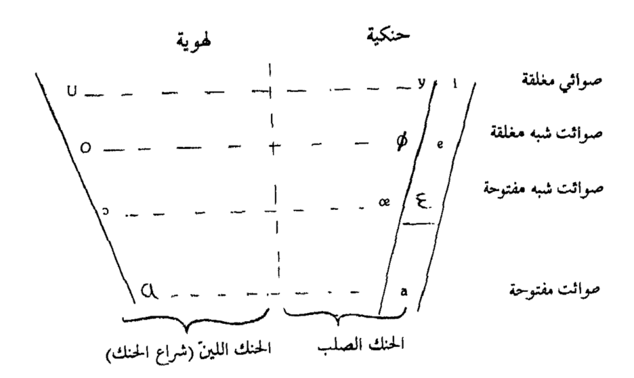
ـ درجة الانفراج : وتحددها حركات اللسان العمودية وتُقاس بالمسافة التي تفصل عند نقطة النطق ، اي في مكان انتفاخ اللسان الأقصى ، تفصِلُ بين اللسان وسقف الحنك .

واذا ما قدّرنا الصوائت في الفرنسية مثلا ، لوجدنا انها تتوزع في درجات انفراج أربع وذلك بحسب مقترح قدّمه برتيل مالمبرغ (70) Bertil Malmberg.

(70) B. Malmberg: (Les domaines de la phonétique Série (Le Linguiste) n 10 , P.U.F , Paris, 1971

أي «مجالات الصوتية» وللمؤلف نفسه :

Id. La phonétique. Coll. Que Sais Je? n° 637 , P. U.F. , Paris, 9e éd. 1971.



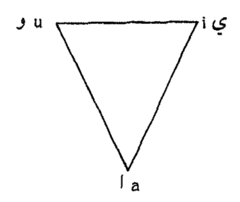
وهذه الصوائت تسمع في الكلمات الفرنسية التالية :

nid (ni) أي عش	mur (myr) جدار	tour (tur) بُرج ، دور
dé (de) قمع ، زهرالنَّرد	peu (pø) قليل	pot (po) وعاء
sel (sɛl) ملح	fleur (flœr) وردة	port (pɔr) مرفأ
patte (pat) قائِمة ، قدم		pas (pa) خُطوة

والشكل السابق يتطّلب التفسيرات الآتية :

ان الخط العمودي المُنّقط يمُثل خطاً مثالياً يَفصِلُ سقف الحنك الى مِنطقتين اثنتين : على اليمين نجد الحنك الصلب . وعلى اليسار نجد الحنك الليّن . اما الخطوط المُنقطة الأفقية فهي تربط الصوائت التي لها درجة انفراج شبه متساوية ، أما الخطوط المستّمرة فهي تمُثل في صعودها تضييق النُطق وهي تحدث في مَيْلها وانحرافها إما نُطقاً أمامياً (صائت أمامي) وإما نُطقاً خلفياً (صائت خلفي) .

وفي طوقنا تبسيط الجدول السابق بشكل مثلث وردّه الى الصوائت الثلاثة المستخدمة وحدها في اللغات كافة . وفي هذه الحالة ، نتحدث عن «المثلث الأساسي» :



لا تملك بعض اللغات إلاّ صوائت ثلاثة كاللغة العربية أو حتى كلغةً بعيدة كل البُعد عنا كلغة الاسكيمو . ففي العربية تُشكل الصوائت الأساسية الثلاثة أ ، و ، ي منظومة معقّدة وذلك على قدرتها ان تكون طويلة او قصيرة ، كما انها تتخذ قيماً دلالية مختلفة . وعندما نقول ان لغات العالم كافة تشترك فيما بينها في هذا المثلث الأساسي ، فمن البديهي ان هذا المثلث انمّا يمُثل نمطاً صائتياً تقريبياً يتّم تحقيقه بشكل مختلف في كل لغة . فالصائت i (ي) في العربية ليس بحاجة ان يُلفظ بوضوح لفظ نظيره في الفرنسية ، إذ أنّنا قادرون ان نفرقّه عن الألف والواو، في حين ينبغي تمييزه في الفرنسية عن الـé والـu على سبيل المثال .

ونستطيع القول ان الصائت i هو أمامي ، مُغلق ومنقبض وبأن u صائت خلفي ، مُغلق ومستدير ، وبأن a صائت متوسط، مفتوح . ويقال عن الصائت إنه أمامي عندما تتقدم كتلة اللسان في الجزء الامامي من التجويف الفمّي وترتفع في الوقت نفسه نحو الحنك الصلب ، ومن هنا جاءت تسميتها بالصوائت الحنكيّة (مثال الفرنسية ici أي هنا) . ويقال عن الصائت انه خلفي عندما تكون نُقطة النطق في منتهى التجويف الفمّي وعندما يرتفع اللسان قليلاً نحو شراع الحنك ومن هنا جاءت تسميتها الصوائت اللهوية (مثل ou في coucou اي وقواق) ويُقال عن الصائت انه مفتوح عندما يُلفظ في وضع للسان منخفض وبفم مفتوح بشكل واسع . ويقال عن الصائت انه مُغلق عندما يرتفع اللسان فوق المحور المتوسط .

ـ التأنيف nasalisation : يشكل التأنيف كما هو الحال في الفرنسية مثلاً طريقة النُطق الثانية للصوائت ، وكانت الصوائت التي وضعناها في الفقرة السابقة تفترض مرور الهواء المزفور والخارج من الرئتين بالفم . غير ان كل صائت قمين بأن يؤنف في حال خروج قسم من الهواء الذي تطردهُ الرئتان من الفم . وهذا المرور الجزئي من الأنف لجزء من الهواء يعطي هذه الصوائت طنيناً أنفياً .

وهكذا نُقابل بين الصوائت الأنفية والاخرى الفميّة (ارتفاع سقف الحنك ، واغلاق الجيوب الأنفية ومرور الهواء من الفم) . وفي الفرنسية مثلاً صوائت مؤنّفة أربعة وهي تُسمع في الكلمات التالية : brun, son, vin, sang أي دم ، نبيذ ، صوت ، بُنيّ ، ويُرمز الى استنساخها الصوتي بـ : brõe, sõ, vɛ̃n sã على التوالي .

ـ التَشْفية : labialisation : وتدلّ طريقة النُطق الثالثة هذه على حركة استدارة الشفتين ، اي حركتهما نحو الأمام وهذا ما يُسمى بالانبساط protraction . ويساعد هذا التقابل على تمييز الصوائت المُشفّهة من الصوائت غير المُشفهة . وبشكل عام ، تكون الصوائت اللهوية مشفّهة (o,u) .

ـ المدّة : وتسمى ايضاً الكميّة . وهذا عامل آخر للتعرّف الى الصوائت في تحديد طُرق النُطق . إن مدّة صائت ما هي ديمومته في الزمن وامتداده فيه . وهذه المدّة مقيدّة بطاقة النَفس او الهواء الذي تطرده الرئتان اثنان الزفير ـ ويمكن للصوائت ان تكون طويلة او قصيرة ، وهذا يعني اننا نستطيع لفظها باطالتنا مدّتها الى حدٍ ما .

وفي اللغات عامة ، فان القواعد التي تقرن مدّة صوتيم ما بصفاته الفيزيائية هي ذاتها تقريباً : فكلما كان الصائت مُغلقاً كان قصيراً ، وهكذا ففي الفرنسية مثلاً ان i أقصر مدّة من e ، وهذا الأخير أقصر من ɛ وهكذا . . . والصوائت الخلفية والغليظة هي أكثر قصراً من الصوائت الأمامية الحادّة .

ـ الشدّة : وهي تعزيز للجُهد العضلي الذي تقوم به اعضاء النُطق يُصاحبه ضغط للهواء أعلى . وهكذا نميّز بين الصوائت المشدودة والصوائت الرّخوة (او الليّنة) . ولا يبدو ان هذا العامل يلعب دوراً حاسماً في التعرف الى طريقة النُطق في اللغة الفرنسية بفعل ان الصوائت كافة هي مشدودة بشكل واضح .

11.2.1.2. الصوامت

من المعروف ان إصدار الصوامت يتمّ بشكل عام لدى مصادفة الهواء المارّ عبر الممّر الفمي عقبة ما او انغلاقاً جزئياً او تاماً وذلك في نطقة واحدة او أكثر . وينتج نُطق الصامت عن وجود مثل ذلك العائق او العقبة ، ولنذكر ان العقبة تعني في الصوتية انغلاق او تضييق الممّر الفمي اثناء النُطق . وكما هي الحال بالنسبة الى الصوائت فان مختلف أنماط الصوامت تحُدّدُ بحسب ثابتتين اثنتين : طريقة النُطق ونقطتها .

11.2.1.2.1 طريقة النُطق :

يمُيّزُ هذا المعيار طريقة اجتياز الصامت العقبة ، اي الطريقة التي يمرّ بها الهواء المطرود من الرئتين خلال النُطق مع اهتزاز الحبال الصوتية وانفتاح كبير الى حدٍ ما للممّر الفمي . وبحسب درجة انسداد الممّر الصوتي فإننا نميّز التصنيف التالي : الانسداديات ، العاصرات والرنينيّات .

- الانسداديات وتتميز بالانسداد او بالانغلاق التامّ للممّر الصوتي .
- العاصرات أو الاحتكاكيات ويتضمن نُطقها عصر او تضييق الممّر الصوتي ولكن من دون انغلاق ، فيمرّ الهواء دون مانع ولكن مع احتكاك يُطلق على هذه الصوامت .
- الرّنينيّات ، وفيها تكون درجة الانسداد الأكثر ضُعفاً ، وهي تقترب بذلك من الصوائت . وتضم هذه الفئة الأنفيات ، والذلقيات ، والانزلاقيات والاهتزازيات .

ويمكن إدخال معايير الجهورية sonorité والتأنيف nasalisation

- فالجهورية او الإجهار تُساعد على مقابلة الصوامت المنطوقة مع اهتزاز الحبال

الصوتية بالصوامت التي لا يرافق اصدارها اهتزاز للحبال الصوتية وذلك ضمن المنظومة الصامتة . ونحصل عندئذٍ على الصوامت المجهورة أو الجهرية ، والصوامت المهموسة او غير الجهرية . وبالنسبة للانسداديات فاننا نحصلُ في الفرنسية مثلاً على : المجهورة (b), (d), (g) ، والمهموسة (p), (t), (k) ، وبالنسبة للعاصرات : المجهورة (z), (ʒ), (v)، والمهموسة (s), (ʃ), (f) .

- أما التأنيف فهو يشكل سمة التصنيف الثانية للصوامت ، وهو يقوم على طنين أنفي يصاحب النُطق . ويمرّ جزء من الهواء الخارج من الرئتين بالجيوب الأنفية وذلك على اثر انخفاض اللهاة . والصوامت الأنفية تقابل الصوامت الفميّة التي يتسّم نُطقها بارتفاع شراع الحنك مما يؤدي الى انغلاق الجيوب الأنفية ومرور الهواء من الفم . وفي الفرنسية ، الصوامت الأنفية هي h,n,m وهذه الاخيرة نسمعها في نهاية كلمة مثل montagne أي جبَل .

11.2.1.2.2. نقطة النُطق (مخرج النطق)

من الخير لنا ان نشير هنا الى نوعين اثنين من التوضيحات : مكان النُطق او مخرج الصوت حيث يحصل العائق (او العقبة) الجزئي او الكليّ ، والعضو الناطق articulateur (اوجزء من هذا العضو) الذي يشكل العقبة .

- يُشير مكان النُطق الى الموضع الذي توجد فيه العقبة ، اي حيث يحصل تضييق او انغلاق الممّر الفميّ اثناء النُطق .

- واما العضو الناطق فيدّل على نوعين من الاعضاء النُطقية التي تتدخل لدى مرور الهواء الحُنجري والتي تغيرّ بفعل حركاتها العديدة التجويف الفمي مانحةً بذلك الأصوات طابعها المتميّز : الناطق العلوي والناطق السُفلي .

والناطق العلوي يحتوي الشفة العليا ، القواطع العليا ، الأسناخ العليا ، الحنك الصلب الأمامي ، المتوسط والخلفي ، الحنك اللين (او شراع الحنك) واللهاة

ويبقى مبدئياً الناطق العلوي ثابتاً ما عدا الشفة واللهاة . أمّا الناطق السُفلي فهو يضمُ الشفة والقواطع السفلى ، طرف اللسان أو ذروته وظهر اللسان الأمامي والمتوسط والخلفي .

وبحسب حركات أعضاء التصويت او النُطق يمكننا التمييز بين ذروة اللسان (نُطق ذروي) وظهره (نطق ظهر لساني) . يؤدي اللسان حركات انتفاخ وتضييق او انغلاق وذلك نحو منطقة من مناطق سقف الحنك . مما يُفضي الى التمييزات التالية :

السن : نُطق اسناني
الشفة : نُطق شفوي
السنخ : نُطق أسناخي
الحنك الصلب : نُطق حنكي (أو غاريّ)
الحنك الليّن : نُطق شراع حنكي (أو طبقيّ)
اللهاة : نُطق لهوي

وإذا ما تفحصنا عن كثب وبدقة الحركات النُطقية لأمكننا تقسيم هذه المناطق المختلفة الى : نُطق قبحنكي (قبل حنكي) اونِطعي ، ووسطحنكي (حنكي وسطي) وخلف حنكي (او حنكي خلفي) ، نطق قبشراعي حنكي ، وشراعي حنكي خلفي ، ونُطق شفتاني ، شفوي سنيّ ، ذروي أسناني ، ظهر لساني لهوي ، الخ . . .

نمط النُطق	الصوامت					
	الانسدادية		العاصرة		الاهتزازية أواللهوية	الأنفية
	مجهورة	مهموسة	مجهورة	مهموسة		
شفتاني	b	p				m
شفوي أسناني			v	f		
ذروي أسناني	d	t			l	n
ذروي أسناخي	ʒ	ʃ				
قبظهر لساني أسناخي			z	s		
ظهر لساني حنكي	g	K				ɲ
ظهر لساني لهوي					R	

واذا ما قابلنا الصوامت الفرنسية بمثيلاتها العربية لحصلنا على الجدول التالي بالنسبة للصوامت العربية .

جدول الصوامت العربية

الصوامت		شفتاني bilabiale	شفوي أسناني labio-dentale	بيأسناني inter dentale	أسناخي alvéo-laire	حنكية palatale: امامية(١) prépala	وسطية médiop	خلفية postpala	لهوية vélaire	حلقية pharyngale	حنجرية laryngale
الانسدادية	مهموسة sourde			ط(٣)	ت			ك	ق		
acclusive	مجهورة sonore	ب		ص(٣)	د						همزة ء
العاصرة (٢)	مهموسة		ف	ث		ص(٣) س	ش		خ	ح	هـ
spirante	مجهورة			ذ	ظ(٣)	ز	ج		غ	ع	
الذلقية	فمية orale				ل						
liquide	أنفية nasale	م			ن						
الاهتزازية vibrante						ر					
شبه الصامته		و					ي				

١) أو قبحنكية أو نطعية

٢) أو الاحتكاكية

٣) صوامت مُفخمة

11.2.1.3. ملاحظات مقارنة

يمكن لنا أن نكشف بعضاً من الملاحظات المقارنة بين لغة وأخرى عبر السمات التالية .

آ ـ سمات عامّة :

اذا ما قارنا ، ولو سريعاً ، بين العربية والفرنسية وذلك من الجوانب الجهورية واجتياز الهواء للعقبة ومشاركة التجويف (الفمّي و/ أو الأنفيّ) نقع على الملاحظات النظرية التالية :

ـ تغلب صفة الجهورية على اللغة الفرنسية إذ أن الصوائت جهورية كلّها ، فضلاً عن وجود عدد كبير من الصوامت الجهورية أيضاً ، بينما نجد في العربية الوضع المعاكس تماماً ، فأصوات العربية هي بمعظمها مهموسة ، ثم إن الصوائت فيها قليلة ، وأمّا عدد الصوامت المهموسة فكبير .

ـ ممّا تتميّز به الفرنسية ، ولا نجده في العربية أن مرور الهواء غالباً ما يكون حراً عبر الفم ، وعدد الصوائت فيها كبير ، فضلاً عن وجود صوائت انفية . أمّا في العربية فالشأن مختلف جداً فالصوامت غالبة طاغية ، والصوائت الانفية غائبة . ثم أن مرور الهواء يصادف تضيقاً يؤدي الى وجود أصوات مخنوقة .

ـ للتجويف الفمي والأنفي دور كبير وأثر بالغ في نطق الفرنسية ثم أن الطنين ، كصفة فيها ، أمامي بشكل عامّ . امّا العربية ، فيأتي الطنين في آخر الفم عامة ، أي في الحنجرة والبلعوم . وهو أمرٌ يؤدي اليه ما يُعرف بالتفخيم emphase .

ب ـ الصوائت

من الظواهر الممكن الاشارة اليها هنا هو كثرة الصوائت في الفرنسية ، إنهّا ستة عشر صائتاً ، في حين تفتقر العربية الى هذا العدد ، فصوائتها ثلاثة هي :

ا ، و ، ي . نقول هذا إذ التمسنا دليلاً في اللغة العربية السليمة ، الفُصحى . دون التحدث عن اللهجات الدارجة حيث تكثر الصوائت . وفوق هذا ، إن معايير التأنيف nasalisation والتشفية labialisation لا أثر لها في اللغة العربية . غير أن ما يلاحظ هنا هو مشاركة الفرنسية للغة العربية من حيث درجة الانفراج والتموضع .

ج ـ الصوامت

تضمّ العربية ثمانية صوامت مهموسة وهي : ت ، س ، ح ، هـ ، ك ، ش ، ف ، خ ، وأربعة صوامت مُفخّمة : ص ، ض ، ط ، ظ ، في حين تحظى الفرنسية بستة صوامت مهموسة وهي p, t, k, f, s, ʃ (وهذا الأخير يُلفظ كالشين ، كما في كلمة cheval أي حصان) .

امّا من حيث الصوامت المجهورة ، فتعدّ العربية سبعة وهي : ب ، د ، ج ، ز ، غ ، ع ، ء همزة)، بينما للفرنسية ستة صوتيات مجهورة تتقابل والصوتيات المهموسة في سلسلة تقابلات وهي : b, d, ġ, v, Z, ʒ (ويلفظ جياً) .

نزيد على ذلك أن للفرنسية صوامت ليس للعربية أدنى حد منها مثل v,p, وعلى العكس ، فالفرنسية لا تعرف الصوامت العربية التالية : ح ، خ ، ص ، ض ، ط ، ظ ، ع ، غ ، ث ، ذ ، ق ، اي الصوامت البيأسنانية واللهوية والحلقية .

وامّا الصوامت المشتركة فهي : أ ، ب ، ت ، ج ، د ، ر ، ز ، س ، ش ، ف ، ك ، ل ، م ، ن ، و ، ي .

وثمة ظاهرة خاصة بالعربية وهي ما يُعرف بالتفخيم emphase ، اي نطق مُشدّد لعدد من الصوامت الأسنانية والقبحنكية (أو النِطعية) ، كالصاد والضاد والطاء والظاء وهي تقابل السين والدال ، والتاء والزاي .

▲ ▲ ▲

11. 3. الصوتية السمعية

11. 3.1. بعض مبادىء في الفيزياء

تَدرُسُ الصوتية السمعية phonétique acoustique الطبيعة الفيزيائية للرسالة الصوتية بعيدا عن شروط وظروف ارسالها واستقبالها .

ان الصوت ينتج كما هو معروف عن اهتزازات جسم مرن . وهذه الاهتزازات تنتقل على شكل موجات صوتية يسجلها جهازنا السمعي منتشرة في الهواء بسرعة ٣٣٠ متراً في الثانية . ان حركة الجسم المرن تدعى تذبذباً أو اهتزازاً . وعندما تكون هذه التذبذبات منتظمة وايقاعية فانها تعطي الأذن انطباع صوت موسيقي . اما عندما تكون غير منتظمة ونعني بذلك حين تفصل بينها مسافات غير متساوية فانها تمنح انطباع تشوّش .

ان الحركة الدورية mouvement périodique هي حركة تتكرر مطابقة لذاتها ضمن مسافات زمنية متعاقبة في مدة زمنية واحدة . ويطلق تعبير فترة التذبذب على الزمن الثابت، ويُسمى الدور ويرمز له بِـ د، وهو الزمن الذي يقطعه جسم مهتز ليقوم بتذبذب واحد (اوسيكل) أي بحركة ذهاب واياب من نقطة الى أخرى من نقاط الحركة القصوى مع مروره في كل مرّة بنقطة الانطلاق ذاتها . وحركة المرور المتعاقبة للتذبذب تدعى التذبذب التام oscillation complète .

أما التواتر fréquence فهو يساوي عدد التذبذبات (أو السيكل) التي تتم خلال وحدة زمنية . ويُقاس التواتر عادة بمقدار التذبذب في الثانية (اوسيكل في الثانية ، او هرتز) فالتواتر ن هو عكس التذبذب بفعل انه يمثل عدد التذبذبات التي تتم خلال ثانية واحدة ويُرمز اليه بالصيغة التالية :

$$\text{تواتر} = \frac{١}{\text{زمن}} \Longleftarrow \text{ن} = \frac{١}{\text{د}}$$

وهذه علاقة بسيطة تساعدنا على حساب التواتر في فترة تذبذب مقاسها $\frac{١}{١٠٠٠}$ ثانية حيث $\frac{١}{١/١٠٠٠}$ = ١٠٠٠ هرتز . ان تواترا منخفضاً أو غليظاً يتضمن

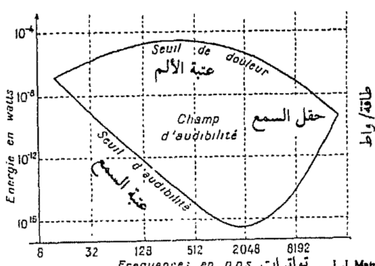
عدداً منخفضاً من الهرتزات في حين أن تواتراً مرتفعاً او حاداً يتضمن عدداً مرتفعاً من الهرتزات .

وفيما يتعلق بالحركة الدورية المهتزة فانَّ الفاصل أو المسافة بين نقطة الثبوت (وضع التوازن) والنقطة القصوى (أي النقطة المتحركة) التي تبلغها الاهتزازات في حركتها الاهتزازية ، ان هذا الفاصل يُسمى المطال élongation . والسعة amplitude هي اكبر مسافة (أي أكبر فاصل) للمطال ، ولا تكون السعة ثابتة نظراً لتخامد الاهتزازات المستمر .

نزيد على ما تقدم اننا اذ نقول ان التجويف الفمّي يلعب دور المرنان résonateur فمعنى ذلك انه يُضخم ويعزز سعة الاهتزاز التي تمر فيه وذلك حينما يكون تواتر هذا الاهتزاز متقارباً وتواتر التجويف .

11.3.2 ادراك الصوت

ان الأذن البشرية لا تدرك جميع الاصوات الصادرة عن العالم الخارجي . وعتبة السمع seuil d'audibilité هي المُنحنى الذي يدّل على الطاقة الدنيا التي تجعل كل صوت مسموعاً قياساً لكل تواتر . وهذه الطاقة يُعبر عنها بالواط . وبالمقابل وفي الحدود العليا ، تصبح الأصوات صعبة الادراك وتتحملها الأذن بعناء كبير بل ربمّا تؤذي الأذن ، فنتكلم في هذه الحالة عن السمع المؤلم ذاك الذي يفضي الى تدمير الأذن الداخلية وتشويهها .



تواترات . J. J. Matras, Le Son, P. U. F. Paris «الصوت» (71)

ان وحدة قياس شدة الصوت هي الديسيبل décibel . وهـكذا فان الهمس يُنتج شدّة مقدارها ٢٠ ديسيبل اما الحديث العادي فيولد شدة مقدارها ٦٥ ديسيبل تقريبا وذلك عبر متر واحد .

11. 3.3. عناصر الصوت

ان عناصر الصوت السمعية هي الارتفاع والشدة والطابع ، وسوف نحاول تعريف كل منها :

ان الارتفاع hauteur هو صفة ذاتية للصوت الناجمة عن تواتر التذبذب الذي يحدثه ويُنتجه هذا الصـوت . وهـو مرتبـط بسرعـة الحـركة الاهتـزازية أي بعـدد الاهتزازات التي تحصل في ثانية واحدة (أي مرتبط بالتواتـر $\nu = \frac{1}{s}$) . وكلما زادت سرعة الاهتزازات كان الصوت حاداً .

أما الشدة فهي قياس الطاقة التـي تُنتجهـا حركة اهتـزازية في وحـدة زمنية وأخرى مساحية . ان الشدّة ترتبط بسعة الاهتـزازات . وهـي تدرك على أنهـا قوّة الصوت ضعيفاً كان أم قوياً . ولنا أن نعرفها بانها الشدة الفزيائية للصوت في حالة انتقاله الى الأذن بتواتر قدره ١٠٠٠ هرتز . اننا ندعو وحدة القوة هذه الـphone .

وأما الطابع فهو صفة سمعية للصوت ناجمة عن تعزيز واضح تقريبا لبعض الاصوات الهارمونية وذلك بعد تعديل القنال النُطقي (مثل تغيير وضعية التجويف الفمي ، استعمال التجويف الأنفي) عند مرور الموجة الصوتية ، وهو ينجـم عن اتحاد بين الصـوت الاسـاسي والاصـوات الاضـافية تلك التـي تُدعـى الاصـوات الهارمونية . وتختلف الطوابع بعضها عن بعض بحسب طبيعة الاصوات الهارمونية التي ترافق الصوت الاساسي المتولد من اهتزاز جسم يهتـز بكليتـه،في حـين يأتي الصوت الهارموني من الاهتزازات الصادرة عن جزء من أجزاء الجسم المهتز . وفي آلية النطق ، ان الصوائت أو الالحان ton تنتج عن تعزيز للصوت الاساسي للاهتزاز الحنجري . وهذا التعزيز هو الذي يحُدد الطابع الخاص لكل صوت وهو الذي يجعل الموجات الصوتية التي تصدرها الحنجرة مسموعة .

11.3. 4. التحليل السمعي

تستخدم حاليا أجهزة دقيقة لقياس تركيب الاصوات السمعي ، نذكر منها ما يلي :

- Kymographe وهو جهاز يسجل مدة الاصوات وشدّتها وارتفاعها ، وهذا النوع من التسجيل يعرف بتسجيل الـKymographie .

- oscillographe وهو أكثر دقة من الجهاز السابق اذ أنه يساعد على تسجيل الأهتزاز على شكل oscillogramme ويمكن تحليل المنحنى المسجل أيا كان شكله وبيان جميع المنحنيات المكونة له .

- Spectrographe وهو جهاز يمكننا من امتلاك ومعرفة طيف اصوات متتالية . وهو يُقطع كل صوت الى عدد من مكّوناته المختلفة . وذلك من حيث الارتفاع ونقصد بذلك طول الموجة المكونة طيف الصوت (بحسب طريقة طيف الضوء) .

- sonagraphe وهو جهاز مشتق من الـ spectrographe ويسجّل شدّة الاصوات ومدّتها .

- syhthétiseurs de parole وهي أيضا أجهزة تساعد على انتاج أصوات اللسان بشكل اصطناعي وعلى اختبار تغيرات كل عنصر مكون للصوت وذلك عبر فعّالية التمييز الذي يتم الحصول عليه .

11.3. 5. الالفباء الصوتي الدولي A. P. I

لا شك أن للكتابة اهمية ذات بال في منظوماتنا الاجتماعية التربوية وهي تسهم الى حد كبير في الاعتقاد السائد ومفاده ان اللغات انما تتطابق متماثلة ورموزها الخطية . غير انها والحالة هذه تبدو لنا بشكل جوهري وكانها انساق أصوات وهو امر خطير في دراسة اللغات أياً كان نوعها .

يمكننا تعريف مبدأ الالفباء الصوتي بانه : «علامة واحدة لكل صوت أو لنقل صوت واحد لكل علامة» ويعني هذا المبدأ ان كل صوت مختلف في لغة ما يُقابله في منظومة عفوية لاستنساخ كتابي علامة كتابية متباينة . ويُشكل الزوج صوت / غراف علامة ثابتة (ان صوتا ما يُترجم أو يُستنسخ خطيا بالطريقة ذاتها دائما) .

إن استنساخ الكلام في منظومة خطيّة يفترض وجود مجموعة من العلامات تمثل الأصوات وترمز اليها . ومن المألوف أن يُرمز الى أكبر عدد من الفوارق الصوتية وحتى تلك التي لا تمثل وظيفة ألسنية نقول أن يُرمز اليها عبر استنساخ يوضع بين أقواس على الشكل التالي : [. .] اما استنساخ السمات الصوتية التي تتمتع بوظيفة ألسنية فيوضع بين خطوط مائلة على هذا الشكل / . . . / .

ان الالفباء الصوتي اذا هو مجموعة علامات صوتية تستخدم لاستنساخ الصوتيات المختلفة للغة ما بشكل متماثل دائما . هذا ، وفي عام ١٨٨٨ قامت «الجمعية الصوتية الدولية» Association Phonétique Internationale بايجاد الالفباء الصوتي الدولي A. P I ذاك الذي تمّ تطويره فيما بعد .

يجدر بنا الان ، فضلاً عما سبق ان نذكر الالفباء الدولي المستعملة في اللغات الاوربية مثلا : (انظر الصفحة التالية)

11.4. الصوتية التجريبية Phonétique expérimentale

. اذ نتحدث عن الصوتية التجريبية نجد أنفسنا مسوقين الى الكلام على بعض طرائق تجريبية اكثر فأكثر اتقاناً وخاصة تلك التي تساعد اليوم على توضيح الملاحظة الصوتية المباشرة وتبيان فوارقها . وهذه الملاحظة إنما ترجع الى مجال الصوتية التجريبية أو الاداتية ، وهي ، فوق ذلك ، منحى علمي خاص وفرع من فروع الصوتيات النُطقية والسمعية معاً .

Table of Phonetic Symbols

Consonants and semiconsonants

[p]	pat [pæt], top [tɔp]
[b]	but [bʌt], tab [tæb]
[m]	mat [mæt], ram [ræm], prism ['priz(ə)m]
[f]	fat [fæt]; laugh [lɑːf]; ruff, rough [rʌf], elephant ['elifənt]
[v]	vat [væt], avail [ə'veil]; rave [reiv]
[t]	tap [tæp]; pat [pæt]; patter ['pætər], trap [træp]
[d]	dab [dæb]; madder ['mædər]; build [bild]
[n]	no, know [nou]; ban [bæn]; banner ['bænər], pancake ['pænkeik]; nab [næb], gnat [næt]
[s]	sat [sæt]; scene [siːn], mouse [maus]; ice [ais], psychology [sai'kɔlədʒi]
[θ]	thatch [θætʃ]; ether ['iːθər]; faith [feiθ], breath [breθ]
[z]	zinc [ziŋk]; buzz [bʌz]; houses ['hauziz], business ['biznis]
[ð]	that [ðæt], there [ðɛər], mother ['mʌðər]; breathe [briːð]
[l]	lad [læd], all [ɔːl]; table ['teibl]; chisel ['tʃiz(ə)l]
[ʃ]	sham [ʃæm]; dish [diʃ], sugar ['ʃugər], ocean ['ouʃ(ə)n], nation ['neiʃ(ə)n]; machine [mə'ʃiːn]
[tʃ]	chat [tʃæt]; search [səːtʃ]; chisel ['tʃiz(ə)l], thatch [θætʃ], rich [ritʃ]
[ʒ]	pleasure ['pleʒər]; vision ['viʒ(ə)n]; beige [beiʒ]
[dʒ]	jam [dʒæm]; jail, gaol [dʒeil], gem [dʒem], gin [dʒin], rage [reidʒ]; edge [edʒ], badger ['bædʒər]
[k]	cat [kæt]; kitten ['kit(ə)n]; choir, quire ['kwaiər], cue, queue [kjuː]; arctic ['ɑːktik]; pique [piːk]; exercise ['eksəsaiz]
[g]	go [gou]; ghost [goust]; guard [gɑːd]; again [ə'gen]; egg [eg]; exist [eg'zist]; hungry ['hʌŋgri]
[h]	hat [hæt], cohere [kou'hiər]
[χ]	loch [lɔχ]
[ŋ]	bang [bæŋ]; sing [siŋ], singer ['siŋər]; anchor ['æŋkər]; anger ['æŋgər]; link [liŋk]
[r]	rat [ræt]; arise [ə'raiz], barring ['bɑːriŋ]
[*r*]	(*sounded only when a final r is carried on to the next word*) far [fɑː*r*]; sailor ['seilə*r*]; finger ['fiŋgə*r*]
[j]	yam [jæm]; yet [jet]; youth [juːθ]
[w]	wall [wɔːl], await [ə'weit]; quite [kwait]
[(h)w]	what [(h)wɔt], why [(h)wai]

Vowels and vowel combinations

[iː]	bee [biː]; fever ['fiːvər]; see, sea [siː]; release [ri'liːs]
[iə]	beer, bier [biər]; appear [ə'piər]; really ['riəli]
[i]	bit [bit]; added ['ædid], drastic ['dræstik], sieve [siv]
[e]	bet [bet]; leopard ['lepəd]; menace ['menəs]; said [sed]
[ei]	date [deit]; day [dei]; rain, rein, reign [rein]
[ɛə]	bear, bare [bɛər], there, their [ðɛər]; airy ['ɛəri]
[æ]	bat [bæt]; add [æd]
[ai]	aisle, isle [ail]; height [hait]; life [laif], fly [flai]; beside [bi'said]
[ɑː]	art [ɑːt]; ask [ɑːsk]; car [kɑː*r*]; father ['fɑːðər]
[au]	fowl, foul [faul]; house [haus]; cow [kau]
[ɔ]	wad [wɔd]; wash [wɔʃ]; lot [lɔt]; what [(h)wɔt]
[ɔː]	all [ɔːl]; haul [hɔːl]; saw [sɔː]; caught, court [kɔːt]; short [ʃɔːt]; wart [wɔːt]; thought [θɔːt]
[ɔi]	boil [bɔil]; toy [tɔi]; oyster ['ɔistər]; loyal ['lɔiəl]
[ou]	low [lou]; soap [soup]; rope [roup]; road, rode, rowed [roud]; sew, so, sow (*verb*) [sou]
[uː]	shoe [ʃuː]; prove [pruːv]; threw, through [θruː]; frugal ['fruːg(ə)l]; (*slightly shorter*) room [ru(ː)m]
[juː]	few [fjuː]; huge [hjuːdʒ]; humour ['hjuːmər]
[(j)uː]	suit [s(j)uːt], suicide ['s(j)uːisaid]
[(j)uə]	lurid ['l(j)uərid]; lure [l(j)uər]
[u]	put [put]; wool [wul]; wood, would [wud]; full [ful]
[ju]	incubate ['inkjubeit]; duplicity [dju'plisiti]
[uə]	poor [puər]; sure [ʃuər]
[ʌ]	cut [kʌt]; sun, son [sʌn]; cover ['kʌvər]; rough [rʌf]
[əː]	curl [kəːl]; herb [həːb], learn [ləːn] myrrh [məː*r*]
[ə]	decency ['diːsənsi]; obey [ə'bei] amend [ə'mend]; delicate ['delikət]

وينهض التجريب على استعمال بعض أجهزة تقوم على رصد وتسجيل حركات جهاز النطق ، بدقة أكبر مما تفعله الملاحظة البشرية المباشرة . ومن بين هذه الاجهزة والطرائق نذكر :

- الستروبوسكوب Stroboscope وهو جهاز يراقب حركات المِزمار وذلك باعتراضه للضوء الذي يقاس تبعاً لحركة الحبال الصوتية .

- المجواف endoscope وهو يساعد على مراقبة حركات الحنجرة .

- palatographie : وهي طريقة تقوم على إدخال حنك اصطناعي في الفم ، ليسجل ملامسة اللسان للحاجز العلوي للتجويف الفمي .

- plastographie : وهي طريقة تقوم على ربط الحنك الاصطناعي بخيوط قصديرية ناعمة مما يساعد على التعرّف الى المظهر الجانبي الصحيح للسان أثناء النُطق .

- التصوير الشعاعي بواسطة الاشعة السينية : ويسمح بتصوير مختلف أوضاع اجهزة النُطق أثناء القيام بوظيفتها . ويمكننا أيضا سماع الصوت المنطوق مع مراقبة طريقة نُطقه في آن واحد على شاشة وبفضل فيلم صوتي .

ولقد تمّ تطور الصوتية التجريبية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر عبر التوصل الى Kymographe الذي وضعه عام ١٨٤٧ الفيزيولوجي الالماني كارل لودفيغ Karl Ludwig وطوّره القس الفرنسي روسلو Rousselot في نهاية القرن نفسه ، وبفضل أبحاث هذا الاخير ومساعدة ابحاث علماء الفيزياء الالمان من أمثال فون هلموتز Von Helmhotz المتعلقة بالرنين (١٨٦٣) ولوديمار هرمان Ludimar Hermann المتعلقة بالعناصر المُركّبة (١٨٩٠) .



12.
التصــويتيّــة

لقد قُدر لعلماء التصويتية أن يغنوا بملاحظاتهـم الفاعلـة وصف الأصـوات وضوحاً وغنىً ، وهو وصف ينزع دائماً الى بيان : «ان عدد الأصـوات التـي تُميِّزُ فيزيائياً بتواترها وبشدّتها وبمدّتها حتى في لغة واحدة ، ان هذا العدد غـير محـدود تقريباً» (72) كما انهم أفضوا عبر بحوثهم الى نتيجة محرجة او تكاد وهي ان المتكلّم «لا ينطق مرتين متتاليتين صائتاً او صامتاً بالطريقة ذاتها تماماً» (73) .

وهذا يعني أن الأختبار التجريبي قد قاد الصوتيين الى طرح تسـاؤلات عدة منها ، لماذا لا تُعيقُ التغيرات التي تطرأ على لفظ صوت ما فهمَ الرسالة ؟ وهذه حال الراء الفرنسية التي تكون ظهر لسانية اذا ما نطقها باريسي ، مهتزّة بين شراع الحنك وظهر اللسان ، في حين تكون ذروية تلفظ عند ذروة اللسان فيما لو لفظها احد سكان منطقة البورغونيّة (اواسط فرنسا) إذ أنها في هذه الحالة الاخيرة هـوية وتنجـم عن اهتزازات تتموضع في مستوى اللهاة . ثم لِمَ تكونُ الاصوات كافةعلى الرغم من تميزها فيزيائياً من متكلّم الى آخر ، لِمَ تكون هي العلامات الألسنية ذاتها ؟

ان هذه الاكتشافات قد دفعت الصوتيين الى البحث عن جواب ما خارج المادة الصوتية للأصوات . وجاء الجواب استدلالياً بأصوات اللغة التـي تتمتّـعُ بوظيفـة تمييزيّة او تقابلية . وهـكذا ولـدت التصـويتية phonologie او الصـوتية الـوظيفية phonétique fonctionnelle

والتصويتية علم يدرس العناصر الصوتية للسلسلة الكلامية للغـة ما ومـن وجهة نظر وظيفتها والدور الذي تلعبه في اللغة المدروسة ، انها تتقابل اذاً والصوتية

---

(72) برتيل مالمبرغ Bertil Malmberg ، ذكره جورج مونان في كتابه المشار اليه في الحاشية رقم 45

(73) المرجع نفسه .

التي تدرس ، كما رأينا ذلك ، هذه العناصر الصوتية ذاتها ولكن بعيدة ومستقلة عن وظائفها الألسنية .

وهكذا ستعالج التصويتية التمييزات الصوتية التي تهدف ـ عبر وظيفتها ـ الى فهم الرسالة الألسنية ومن غير النظر في الواقع السمعي او النطقي لهذه العناصر (وهو واقع يعود الى مجال الصوتية) .

وإذا ما قُدر للتصويتية ان تتكوّن كعلم متميّز ، مستقل عن الصوتية ، فما ذلك إلا بفعل الثنائيات التي أبرزها فردينان دو سوسير كالتقابلات بين اللغة والكلام ، والتزامن والتزمن ، والتركيب والاستبدال ، والدال والمدلول ، والمنظومة والقيمة (أ . 9.3) غير ان الفضل الأكبر يعود الى «حلقة براغ الألسنية» (أ .15.1.1) وخصوصاً مع انعقاد مؤتمر لاهاي الألسني الأول عام ١٩٢٨ إذ قدّم نيكولاي تروبتزكوي Nicolai Troubetzkoy وهو يعتبر مؤسس التصويتية (74) ورومان جاكوبسون Roman Jakobson برنامجاً تصويتياً حدّدا فيه مبادىء التصويتية وطرائقها . ويسعفنا هذا التحديد في ذكر قاعدتين اثنتين اخرجهما تروبتزكوي الى حيّز الوجود :

١ ـ اذا ما ظهَرَ عُنصران صوتيان (اي صوتان) للغة واحدة في محيط صوتي واحد كلياً (أي في سياق) واذا لم يستجر ابدال الواحد بالآخر اختلافاً في المعنى ، يكوّن هذان العنصران متغيّرات حرّة او اختيارية variantes libers لصوتيم واحد (أ . فيما بعد)

وهكذا ففي الفرنسية كمثال على ذلك ، تُقدم الراء مثالاً واضحاً على المتغيرّة، الحرّة . ان كلمة branche فيها ، وتعني غُصن ، تُلفظ من طرف متكلم باريسي براء متموضعة في شراع الحنك ، في حين تكون ذروية ، أي تُلفظ في ذروة اللسان لدى سكان مقاطعة البورغونية في اواسط فرنسا ، وفي كلتا الحالتين ، تحافظ الكلمة على معناها الواحد المشترك ، على الرغم من من اختلاف لفظ الراء . غير ان الحالة غير

---

(74) Grundzüge der Phonologie, Prague 1939

وترجمته الفرنسية Principes de phonologie, Paris, Klincksieck, 1949

اي «مبادىء التصويتية»

متشابهة في العربية إذ نجد مقابل الراء الفرنسية صوتيمين مختلفين كل الاختلاف يؤديان الى كلمتين لهما معنى مختلف : رَمَسَ / غَمَسَ .

٢ ـ واذا ما ظهر عنصران صوتيان في الموقع الصوتي ذاته ، واذا ما أدّى إبدال عنصر بآخر الى تغيّير في المعنى ، يكون هذان العنصران تحقيقين لصوتيمين مختلفين .

وهكذا نرى ان هذه القاعدة إنما تُعلنُ مبدأ الإبدال commutation ، فلو اخذنا في المثال الفرنسي التالي كلمة «vend» :«il vend du bois» اي يبيع خشباً واستبدلناها بكلمة fend أي يشق ، حيث ان العنصرين الصوتيين الاولين f, v يقعان في الموقع الصوتي ذاته (أو في السياق الصوتي ذاته) ، لتغيرّ معنى البيان : «il fend du bois» أي يشق خشباً وهذا الاستبدال يساعد على تأكيد قاعدة سدادة الصوتيات (أ . 2.1.2) اذ نقول والحالة هذه إن التقابل في الفرنسية بين الصوتيمين f, v سديد pertinent .

وبشكل عام ، نميّز في مجال التصويتية العام قسمين متخصصين وهما الصَوْتِيميّة phonématique والتَنْغِيميّة prosodie .

12.1 الصَوْتِيميّة phonématique

تقوم مهمة الصوتيمية على تحليل العناصر الصوتية في لغة ما ، اننا نعني بها الصوتيات phonème وتصنيفها والبحث عن أنساقها المفضية الى الدوال : ان الصوتيم اولنقل الوحدة التمييزية الصُغرى هو الوحدة الصغرى مجردة عن أي معنى عبر امكانية تحديدها في السلسلة الكلامية ، ان هذه الوحدات انما تنتظم في هذه السلسلة مترابطة بالتعاقب على المحور التركيبي syntagmatique فضلاً عن ادراكنا ان اللغة مشكلة من عناصر متميّزة اي انها تتميّز بعضها عن البعض الآخر ، وتدخل في منظومات تقابلية . غير ان الوحدات التمييزية الصغرى تُقيم في ذاتها علاقات أخرى على محور الاستبدال paradigmatique .

وبلغة أخرى، ان كل وحدة تمييزية اوكل صوتيم من صوتيات اللغةيقوى على الترابط مع غيره من الصوتيات بحسب قواعد معيّنة صالحة في اللغة التي ينتمي اليها . «وهذه القواعد تحدد السياق او السياقات حيث يمُكن لهذا الصوتيم ان يظهَر . ويُقيم كل صوتيم علاقات تركيبية مع صوتيات اللغة الأخرى . وفضلاً عن ذلك ، فإن كل صوتيم يَردُ في سياقات يمُكن لصوتيات أخرى ان ترد فيها ، اننا نفسر هذه الواقعة بقولنا إن هذا الصوتيم في تقابل مع الصوتيات الأخرى ومشارك في علاقات استبدالية» (75) . ان هذه العلاقات ما نهدف اليه في دراستنا هذا الموضوع .

12.1.1. جَردُ الصوتيات

لاخراج صوتيات لغة ما ، ننطلق من الوحدات المتميّزة او من الكلمات وربما ايضاً من مقولة اندريه مارتينة André Martinet من «مقاطع من البيان نكون متأكدين انها تحتوي على وقفات مقدّرة» (76) والوقف المقدّر هذاانما هو توقف في السلسلة الكلامية يتطابق وتقطيع البيان الى كلمات ، ليس هذا وحسب ، بل نلجأ من بعد الى استبدال الصوتيات بصوتيات أخرى . وهاتان الطريقتان أي التقطيع والاستبدال يُشكلان ما يُسمى بـ روز الإبدال Test de commutation ذاك الذي يساعد على التعرف على مختلف وحدات اللغة الصوتية وهو يقوم على تبديل صوتيم بأخر في الكلمة ، واذا ما أدى هذا الاستبدال الى تغيرّ في المعنى نقول ان للوحدات القابلة للإبدال فيما بينها وظيفة تمييّزية اي انها سديدة وصحيحة .

لنأخذ مثلاً الكلمتين الفرنسيتين masse, tasse أي فنجان وكتلة نر ان الصوتيم الاول هو المتبدّل في الكلمتين كما يستجرّ تغيراً في المعنى . ثم ان الفارق الصوتي بين

---

(75) «La Linguistique, guide alphabétique» Denoël- Gonthier, Paris, 1969, p.280
«الألسنية : «دليل الفبائي»

(76) «عناصر في الألسنية العامة» .«Eléments de linguistique générale», p.65

التـاء والميم يُساعـد على التمييز بـين هاتـين الكلمتـين . ان هذين العنصرين او الصوتيمين ، التاء والميم ، لا يمكن تجزئتهما الى عناصر أخرى أصغر ، امام هذه الحالة نقول إنهما إنما يشكلان وحدات تمييزيةصغرى او صوتيات. والكلمتان tasse وmasse وهما تتقابلان فيما بينهما بفعل تغيرّ الصوتيم الأوليّ ، تُسميّان زوجاً أصغر paire minimale ، وهذه ايضاً حال الكلمتين الفرنسيتين pain اي خبـز وbain اي حَمّام اللتـين لا تختلفـان إلا في صوتيم واحـد . وهـذه مرة أخرى حال الكلمتين العربيتين خَالب وغَالب ، ان التعرف الى الأزواج الصغرى يُساعد على إقامة جرد صوتيات لغة ما ، ومن هنا نجد ان الفرنسية مثلاً تضمّ ستة وثلاثين صوتياً (ينبغي عدم خلطها بحروف الابجدية الستة والعشرين) . ولكن قبل إقامة جرد للصوتيات ينبغي تحديد كل مقطع «مُوضِّحين ما يميزه في محيطه الصوتي عن بقية / الصوتيات/ التي ربما يُقدر لها ان تَرِد فيه ، مدركين ـ فيما بعد ـ المقاطع المتأتية من سياقات مختلفة يصيبهـا التعـريف نفسـه ، وهـكذا نتعـرف على انهـا تحقيقـات لصـوتيم واحـد أحد» (77) .

12.1.2 السمات التمييزيّة

غالباً ما تقترن كلمـة تمييزّي بالمتـرادف سديد . وكما رأينـا ذلك في الفقـرة السابقة ، إن التعرف على كل صوتيم يقوم على تحديد ما يُميّزه في محيطه الصوتي عن بقية الصوتيات الأخرى التي يمُكن لها ان تَرِدَ مكانه في الدوال المُحلّلـة ، وبـكلام آخر : ان نحدد خصوصية صوتيم ما هذا يعني ان نموضعه ضمن مجموعة السمات التمييزّية التي يشكل تحقيقهـا المتواقـت هذا الصـوتيم ، وفي المثـال التـالي الـذي نستوحيه من الفرنسية il prend un pain اي يأخذ خبـزاً il prend un bain أي يأخذ حماماً نجد ان bain, pain تتقابل بسِمة الجهورية التمييزّية (جهورية/ هَمس) تلك السمة الموجودة في الصوت الاول من كلمـة bain والغائبـة في الصـوت الاول من

(77) المرجع نفسه ص ٦٩ .

الكلمة الأخرى pain . وكذلك ، فان غَالب تُقابل خَالب في سِمة الجهورية اذ ان حرف الغين احد الصوامت العاصرة اللهوية المجهورة في حين ان الخاء من الصوامت العاصرة اللهوية المهموسة ، وفي الفرنسية كذلك إن اللام لا تتضمن إلاّ سمة تمييزية واحدة انها الجانبية latéralité .

12.1.3. المتغيّر النسقي والتوزيع المكمِّل

ربما تُصادف مجموعة من الصوتيات اولا تُصادف في المحيط او السياق ذاته . فإذا ما وَرَدَ صوتيان اثنان في سياق واحد وأمكن استبدال أحدهما بالآخر دون إحداث تغيير في المعنى ، نقول انهما **متغيرات حُرّة او اختيارية** لصوتيم واحد . وهذه هي حال الراء في الفرنسية الذي يُلفظ ملثوغاً حيناً ومهتزاً حيناً آخر (مثل الراء في العربية) .

وإزاء ذلك ، فاذا استنكر صوتيان وجودهما في سياق واحد ، مع انطوائهما على تشابه صوتي، فنحن أمام **مُتغيّرين نَسقيين او بديلتين صوتيميتين allophone** . وهكذا فالصوت كاف K في الفرنسية يتحقّق بالطريقة النُطقية ذاتها في الكلمتين cou أي رقبة وqui أي الذي (التي) ، اننا ندعو هذين التحقيقين : **متغيرين نسقيين** للصوتيم K نفسه في تقابل صامت لهوي / وصامت حنكي ، إن عبارة نسقي تعني ان الصوتيات انما ترتبط في علاقاتها والصوتيات اللاحقة : k مع u في cou ومع i في qui اما التغيير كاف لهوية/ كاف حنكيّة فهو ليس حراً ، اذ لا يوجد في الفرنسية زوج أصغر واحد يُقابل بين هذين المتغيرين لـ k وذلك في سياق واحد متشابه . إننا في هذه الحال نكون أمام ما يدعى بالمتغيرات النسقية التي يمكن وصفها بأنها موجودة في **توزيع مكمِّل** .

12.1.4. التحييد والصوتيم المُشتمل

اذا ما ولجنا في بعض مواقع السلسلة الكلامية ، فاننا قادرون ان نقابل مثلاً بين الصوائت e وE في أزواج صغرى مثل dais/dé اي زهر النَرد وسرُادق وتُلفظ dɛ /de . بيد ان تحقيق هذين الصوتيمين او لفظهما إنما يتم من دون مُراعاة قانون التقابل بينهما ، وبمعنى آخر نقول ان الـ e المُغلق في dé والمفتوح في dais يُلفظ بالطريقة ذاتها ، اننا في هذه الحالة نكون امام ما يعرف بالتحييد neutralisation .
وكذلك فان التقابل في الفرنسية المعاصرة بين pêcheur اي صيّاد سمك pécheur خاطيء ، ان هذا التقابل لم يَعُد صحيحاً . فبين ع في pêcheur وe في pécheur تحقيق لصوتيم تقلّصت سماتُه التمييزية لتتطابق والسمات المشتركة للصوتيمين e و ع.
وهذا الصوتيم الذي يتحقق في موقع التحييد هذا يُدعى صوتماً مُشتملاً archiphonème . وهذه حال الزوج lé / lait اي حليب / عرض قُماش إذ ان التقابل بين e شبه مغلق في lait و ع شبه مفتوح في lé قد تمّ تحييده ، وبلغة أخرى ان التقابل بينهما يتلاشى في هذا الموقع .

وبعبارة أخرى «إذ يحُدد الصوتيم أنه مجموع السمات السديدة ، فان الصوتيم المُشتمل انما هو مجموع السمات السديدة المشتركة بين صوتيمين او أكثر وحيثما يتحقق الصوتيم المشتمل ، يتحقق هناك تحييد»(78) .

12.2. التَنْغيميّة prosodie

كان حديثنا في الفقرات السابقة تحليلاً للعناصر التمييزية الصُغرى في السلسلة الكلامية تلك التي تترابط ضمن وحدات من مرتبة اومن مستوى اعلى (ثمة

(78) اندريه مارتينية ، المرجع المذكور ص ٧٧-٧٨

مراتب ثلاث : مرتبة الجُملة او المستوى الجُملي ، مرتبة الصرفيم او المستوى الصرفيمي او الصرفي ومرتبة الصوتيم او المستوى الصوتيمي) .

خلافاً للصوتيات المتميزة بوجودها ، ثمة وحدات صوتية وظيفية لا وجود ذاتيا لها وهي مرغمة على الاتحاد معصوتيم او متتالية صوتيات من مرتبة أعلى وذلك لتحقّق في السلسلة الكلامية . ان هذه الوحدات الصوتية انما تدعى السمات التنغيمية .

هذا من جهة ومن جهة أخرى ، اذ تكون الصوتيات وحدات متميّزة عائدة الى مستوى المقطع ، فان السمات التنغيمية هي وحدات غير متميّزة تُصيب مقطعاً من السلسلة الكلامية أطول من الصوتيم . ولهذا السبب تعرف السمات التنغيمية بالسمات فوق المقطعية suprasegmentaux .

لنأخذ المثال التالي من الفرنسية ؟ «Ce livre est-il à vous» أي «ألكَ هذا الكتاب ؟» ، يدلّنا التحليل المقطعي ان هذا البيان يتجزأ الى ثلاثة عشر صوتيا (sa livr ɛtil a vu) (نرى ان عدد الصوتيات لا يتطابق وعدد الحروف الابجدية كما بيّنا ذلك سابقاً). ونسق هذه الصوتيات الثلاثة عشر يُشكل كلمات الجملة الست. وكما رأينا ذلك (في الفقرة 12.1.1) فإن التعرف الى الصوتيات او الوحدات المقطعية إنما يتم بتقابلها على محور الاستبدال حسب طريقة الإبدال السابقة . وعلى العكس من ذلك ، فان ادراك السمات الفوق مقطعية او التنغيمية إنما يتحقق بالتعارض لا بالتقابل وذلك على محور التركيب (انظر 9.3.3) في السلسلة الكلامية .

هذا ، وازاء لفظ هذه الصوتيات الثلاثة عشر ، نرى ان المادّة الصوتية (كل صوتيم او مقطع صوتي) تُلفظ بشيء من العزم ، وبارتفاع لحني وطابع معين ومدة ما .

لابد من التذكير هنا (أ .. 11.3.3) ان ارتفاع الصوت يرتبط بتواتره : فكلما ارتفع عدد الاهتزازات في الثانية (تواتر) ، كان الصوت حاداً ، وإلا فهو غليظ . اما الشدّة فانها ترتبط بالقدرة او بقوة الاصوات ، وهذه تكون اما قويّة ام ضعيفة . اما

الطابع فهو يساعد على تمييز منشأ الأصوات ذات الارتفاع الواحد والشدّة الواحدة . أما المدّة فتشكل استمرار الصوت زمنياً او الوقت الذي يستغرقه اصدار الصوت .

12.2.1 التنغيم intonation

ما التنغيم ؟ اننا نطلق تعبير التنغيم على منحنى الجُملة اللحني ، او تغيرّ ارتفاع الصوت الحُنجري الذي لا يستند على صوتيم او مقطع بل على مقطع أطول (كلمة ، متتالية كلمات) ويؤكد هذا المنحنى بُنية الجملة ويدمغ صيغتها ونوعها . ان صيغة الجُملة تحُدد طريقة التواصل القائم بين المتكلّم والمُخاطب وبهذا يكون لنا الصيغ الاخبارية والاستفهامية والتعجبية والأمرية .

ان وقائع التنغيم لا تسدي لنا أية معلومات حول طبيعة وهوية الوحدات الدلالية ، بل حول هوّية المتكلّم ، فوظيفتها اذاً تعبيرية وليست تمييزّية او دلالية .

12.2.2. التنبيرaccentuation

ليست النبرة بأكثر من طريقة صوتية تقوم على «ابراز مقطع صوتي واحد ذاك الذي يمثل في لغة معينة الوحدة النبرية ، وهذه الوحدة النبريةهي في معظم اللغات ما يُسمى عامة «بالكلمة» (79) وفي المثال الذي رأينا سابقاً ، توضع النبرة على المقطع الأول من كلمة livre وعلى الضمير vous

هكذا يقوم التنبير اذاً على لفظ مقطع صوتي او أكثر مع عزم نطقي أكبر ، موسوم بطابع أكثر ارتفاعاً وأطول مدّة مما يلزم للفظ بقية المقاطع الاخرى غير المنبّرة .

---

(79) اندريه مارتينية المرجع نفسه ص ٨٩

12.2.2.1. النَبْرَةُ التنغيميّة

للغة الفرنسية نبرة نغمية وهي تلك التي تُسمع في بيان يُلفظ بلا تكلف خاص ولا انفعال اوتشديد تعبيري ما ، ويقال ان الصائت الحامل للنبرة انما يدعى منبّراً اما بقية الصوائت فتكون غير منبّرة .

تتموضع النبرة النغمية هذه دائماً على آخر صائت ملفوظ : fecondi<u>té</u>, fabrica<u>tion</u>, agglomé<u>rat</u> (أي كُتلة ، انتاج ، خُصوبة)

وعندما تنتهي كلمة فرنسية بالصائت e الذي لا يُلفظ فإنها تقع على الصائت الذي يسبقه : <u>v</u>iennent, <u>e</u>ntre, c<u>â</u>ble, <u>a</u>ime (أي أحبَّ ، كابل ، دَخَلَ ، جاؤوا) .

ان الصائت e الذي لا يُلفظ والواقع في آخر الكلمة قد يحمل النبرة أي أنه قد يصبح منبراً وذلك في حالة واحدة ألا وهي اتباعه بضمير le الشخصي في مثل : donne-<u>le</u>, arrête-<u>le</u>, appelle-<u>le</u> (أي ناديه ، أوقفه ، اعطيه) .

12.2.2.2. نَبْرَةُ الكلمة ، نَبْرةُ المجموعة :

إذ تدخل كلمة ما مجموعة كلمات تفقدُ نبرتها لصالح المجموعة : ففي Monsi<u>eur</u> مثلاً تقع النبرة على الصائت الأخير الملفوظ . وعندما نقول : Monsieur <u>Pierre</u> ، فإن Monsieur تفقد نبرتها التي تؤول الى Pierre ، وقل الأمر نفسه بالقياس الى Pierre في Monsieur Pierre <u>Durand</u> وكذلك في حال étudi<u>ez</u> ، étudiez <u>bien</u> ، étudiez bien <u>vite</u> . (اي ادرسوا ، ادرسوا جيدا ، ادرسوا بسرعة جيدا) ، وهكذا نرى ان النبرة تغيرّ مكانها لصالح المجموعة .

12. 2.2.2.3. المجموعة الايقاعية groupe rythmique

تترابط الكلمات فيما بينها مشكلة ما يُسمى بالمجموعة الايقاعية تلك التي ترمز الى فكرة ما مكونة وحدة المعنى : «في فصل الصيف / مارست رياضة التزلج المائي» ففي هذا المثال ثمة فكرتان اثنتان مصاحبتان لمجموعتين ايقاعيتين . وفي المثال التالي : «أتريد أن تعيرني/ سيارتك/الموجودة في المرآب» نجد أفكاراً ثلاثا ومجموعات ايقاعية ثلاثاً أيضا .

▲ ▲ ▲

13.
مقاربات الفهـــرس ومســائلــه

اذا كنا قد تطرقنا ـ قبلاً ـ الى دراسة الصوتية والتصويتية فما ذلك إلا رغبة منا في الوقوف على خصائص الوحدات الالسنية التابعة للتمفصل الثاني (أ5.2.6) وكما رأينا ذلك سابقا فان هذه الوحدات تترابط فيما بينها مشكلة وحدات ذات معنى ونعني بها الكلمات غير اننا في هذا الفصل سنرمي الى عرض جميع المشكلات التي تطرحها الكلمات .

13.1. اشكالية الوحدة الفهرسية : Unité lexicale

بداءة نعترف أن تصور «الكلمة» وعلى الرغم من كونـه مألوفـا لدى جمهـرة واسعة من الناس ، يطرح على الالسنيين اكثر من صعوبة نظـرية وحقيقية وهـوـ التصـورـ فوق اعتباره تقليديا ، حاملاً لمعنى ومؤلفا من حرف أو أكثر . الا ان النظر اليه قد أعيد مرة أخرى عبر الالسنية الحديثة ، اذ انها حبته تعـديلات وتبلـورات أساسية . وفي الواقع ، تُدرس الكلمة في الالسنية التقليدية ضمن منحى الصرف الذي يوزّع الكلمات الى فئات (الاسم ، الصفـة ، الفعـل ؛ الظـرف الـخ . .) ويدرس التغـيرّات التـي تطـرأ عليهـا (النهـايات الاعـرابية) وطرائـق الاشتقــاق والنحت ، إن الكلمة تدل على غرض (اسم) او عمل أو حالة (فعـل) او وصـف (صفة) أو علاقة (حرف جر) الخ .

غير ان هذا التصور ، على ما هو عليه ، عاجز عن إغنائنا بمعلومـات حول واقعة ان المفاهيم نفسها ، كالعمل او الوصف مثلاً ، يمكن التعبير عنهـا بطريقـة مختلفة بواسطة كلمات تعود الى فئات مختلفة (مثلاً فكرة العمل في قفَز وقفْزٌ أو الصفة

في أحمر واحمْرار) أوحول مشكلة ان للكلمة الواحدة عادة معاني عديدة وليس معنى واحد .

إن الكلمة بتأثير الكتابة تُدرك على الفور بعبارات خطيّة . وتعرَّفُ على انها مقطع او تجمّع حروف يفصل بينها وبين تجمع آخر فراغ مطبعي . ولكن التساؤل هنا يدور على معنى الفراغ المطبعي او الكتابي في مُتتالية حروف ؟ ثم هلْ تُشكل الفاصلة العليا أو علامة الوصل فراغاً ؟

إنه لا يمكن اعتبار الكتابة معيارَ تحديدٍ قيّم مقبولاً للكلمة . ان متتالية صوتية مثل pomme de terre في الفرنسية ومعناها بطاطا تُعتبر بهذا المعيار مكوّنة من ثلاث كلمات : 1) pomme ، 2) de ، 3) terre . بيد ان سوسير لم يبق هذا المعيار على حاله ، إذ أعاد النظر في تفوق الكلمة وسموّها مغيراً النموذج التقليدي التالي :

مقطع خطّي ←كلمة ←فكرة

بالنموذج الآتي :

صور سمعية ←دال ←مدلول

ولم يكن هذا هو صنيع سوسير المتميز بل إن منطقه وتفكيره قادا الى ان «دُمرت أسس تفوّق الكلمة بفعل الأولوية المعطاة الى السلسلة الكلامية على حساب الشكل الكتابي» (80) . غير اننا لا نجد في «محاضرات الألسنية العامة» اي اثر للتقابل الهام بين اللغة والكتابة (81) على الرغم من ان سوسير قد وضع يديه على جماع نتيجة مهمة مؤداها أنه يجب البحث عن الوحدة الحسية في موضع آخر غير الكلمة .

13.1.1. معايير التحديد

لقد انطلق الألسنيون وذلك لتدارك هذه المثالب والنواقص نحو اقتراح معايير تحديد عدة ، لابد للمتبصر الالسني من ان يقف عندها :

(80) لويس غيلبير : الخلق الفهرسي Louis Guilbert, La Créativité lexicale Paris, Larousse, 1975, p.108

(81) راجع الفصل الثاني من «المحاضرات» في النص العربي ص ص ١٢٥ ـ ١٣٠

13.1.1.1. المعيار الصوتي

يقوم هذا المعيار على معاينة وادراك ان النبرة تلعب دوراً تحديدياً في بعض اللغات كالهنغارية والفنلندية والتشيكية حيث تتموضع دائماً على المقطع الصوتي الأول . ولكن النبرة في الفرنسية انما تكون عامة على الصائت الأخير في الكلمة باستثناء الصائت e غير الملفوظ، ومع ذلك فليس للنبرة أية قيمة اذا ما تعلق الأمر بتركيب او بمجموعة كلمات ، وفي هذه الحالة تتركز النبرة المسماة بنبرة المجموعة (أ.12.2.2.2) على الكلمة الأخيرة في المجموعة . هذا ويستطيع المتكلمون بتأثير ارادة تعبيرية معينة ازاحة موضع النبرة او تحقيق وقفات في نقاط مختلفة من السلسلة الكلامية ذاتها . وهذا المعيار الصوتي لا يساعد على تفهم العمل الحقيقي للعُنصر الكلمة .

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإن تقطيع السلسلة الكلامية لا يتطابق دائما والرامزة code الكتابية كما أثبتت ذلك ظواهر كثيرة من مثل الوصل والحذف élision . وفي هذا الصدد ، يقول اندريه مارتينيه André Martinet في مقال له : إنه لو أراد أجنبي ما أن يدوّن ما يسمعه لكتب jlaluidonne في مقطع واحد في حين ان الرسم الخطيّ والبنى القواعدية تميّز في هذا المقطع كلمات أربع : je la lui donne أي اعطه إياها (82) .

13.1.1.2. المعيار النحوي

وهو المعيار القمين بمساعدتنا على عزل الوحدات في عملها : فلا وجود لعنصر ألسني إلاّ إذا ما منحه المتكلمون قيمة استخدامية تكون خاصّة به فيكتسب عندئذٍ

A. Martinet: Le Mot, in Problèmes du langage, Paris, Gallimard, 1966 (82)

صفـات الوحـدة التمييزية كافـة ، وبفعـل معـايير الاتصـال الألسنـي والابــدال commutation يمكننا أيضا تعريف العنصر ذاته inséparabilité .

اما معيار الاتصال فيقوم على استحالة دمج عنصر ما في الوحدة الألسنية ، وهو ينطبق على الوحدات البسيطة على الصعيد الخطيّ والصرفي ، مثال crayon, horloge, maison في الفرنسية ومعناها منزل ، وساعة حائط وقلـم ، كما ينطبـق ايضـاً على الوحدات المركبة صرفياً مثال الفرنسية antidémocratiquement أي بشـكل معـادي للديمقراطية ، فضلاً عن انطباقه على الوحدات المعقّدة خطياً مثال : chemin de fer أي السكك الحديدية أو sécurité sociale أي الضمان الاجتماعي ، وهنا يعـزُّ علينـا فصل عناصر الوحدة الألسنية ودمج عنـاصر أخـرى فيهـا ، كقولنـا مثـلاً chemin français de fer * اي* السكك الفـرنسية الحـديدية او sécurité idéale sociale * أي* الضمان المثالي الاجتماعي (83) .

وأما معيار الإبدال فهو القادر على تبديل وحدة معقّدة مُفهْرَسَة lexicalisé (اي تدخلُ في عِداد مفردات لغة ما) بوحدة أخرى بسيطة وذلك في شبكة تقابل ، وهكذا يقدر لنا وضع radis اي فُجل في الفرنسية او betterave ومعناها شمندر محل pomme de terre اي بطاطا في الجملة التالية :

La fille a dessiné une pomme de terre

اي : «رَسَمت الفتاة بطاطا» الأمـر الـذي يقودنـا إلى الجـدول الاستبـدالي التالي .

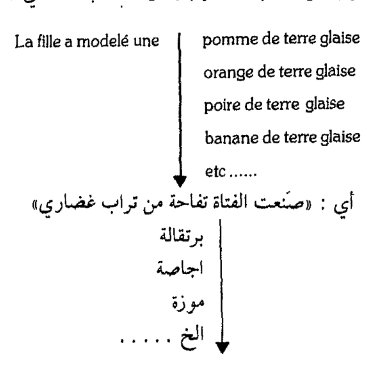
رسمت الفتاة	بطاطا
	فجلاً
	شمندراً
	الخ ↓

غير اننا في جملة فرنسية اخرى ولتكن :

La fille a modelé une pomme de terre glaise

(83) تدل النجيمة على أن الجملة غير مقبولة وغير نحوية .

ومعناها : صَنعت الفتاة تفاحة (:pomme) من تراب (:terre) غَضاري (:glaise) ، انما نقع على ثلاث وحدات بسيطة في pomme de terre ومعناها «تفاحة من تراب» لا على وحدة ألسنية معقدة التركيب وواحدة pomme de terre ومعناها بطاطا ، وذلك بفعل دمج صفة ما ولتكن lourd أي كثيف بين de من جهة و terre من جهة أخرى أمرٌ ممكن : une pomme de lourde terre glaise اي تفاحة من تراب غَضاري كثيف وفي هذا المثال ايضاً نقوى على ابدال pomme بالجدول الاستبدال التالي :



13.1.1.3. المعيار الدلالي

يبدو لنا ، وبشكل جلي واضح ، ان ما ذكرناه من معايير ومقاييس ليس وحده كافياً لتحديد معالم الوحدة الفهرسية ، ذلك ان معيار الاتصال يفقد قيمته في الوحدة المعقّدة الفرنسية faire peur أي أخافَ إذ ان الجمل التالية :

il me fait terriblement peur

il me fait très peur

ومعناها : «انه يرعبني بشكل مُريع» و«انه يخيفني كثيراً» ممكنة . هذا ، ولكون

الوحدة المعقدة من حيث التركيب هي رابطة ثابتةلصرفيات تُرجعُ الى تصوّر واحد concept ، فان خير معيار لتحديد الكلمة ، كما يبدو لنا انما هو من مرتبة دلالية . ففي قولنا eau de Cologne أي ماء كولونيا ، ان كلمة eau لا تعني ماءً عادياً وإنما تدلّ على مُستحضر ذي قاعدة كحولية تدخل في تركيبه خُلاصـات عديدة ، ثم إن العلاقة مع مدينة كولونيا مفقودة كلياً او إن المتكلمين فقدوا إحساسهم بها .

13.1.2. تصنيف الوحدات الفهرسية وفروع دراستها

إذ ندخل مجال الوحدات الفهرسية ، نبدأ بمحاولة تقديم تصنيف لها ذي مستويات عملياتية ثلاثة : مستوى المنظومة système ، مستوى المعيار norme ومستوى الخطاب discours (أ . جدول الصفحة التالية) .

إن المنظومة هي الحقل اللازمني لإمكانات الفعل حيث تتموضع الوحدات المُتعرَّف عليها والمشكّلة للغة والقواعد التي تُنظمُ استعمالها . وهذا ما ندعوه مستوى الانتاظامات المُدركة والذي يحتوي فيما يحتويه المستويين الآخرين . وإزاء مستوى المنظومة هذا ، نجد ان الخطاب يشكل مجال التحقيقات الألسنية ، والتعبير عن قدرة المتكلم امتلاك المنظومة وبيانها . وهذا التحقق لا يمكن له ان يكون الاّ عبر مروره مستوى متوسط ، وهو مستوى التجريد الاول الذي يمكن لنا ان ندعوه مستوى المعيار ، وهذا الاخير يفترض قبلياً التجريد الثاني أي : مستوى المنظومة . إن المعيار يشكل ذلك الحيِّز الاجتماعي الثقافي الذي يرصد بعض التعليمات المحدّدة (تلك التي تكون من طبيعة غير ألسنية) .

إننا إذ نعتمد هنا الطرح الذي بناه برنار كيمادا Bernard Quémada ، نجد أن الوحدات الالسنية ، إنما تُدرك بحسب ظهورها وتموضعها في الشكل المبنّي هذا (84) .

---

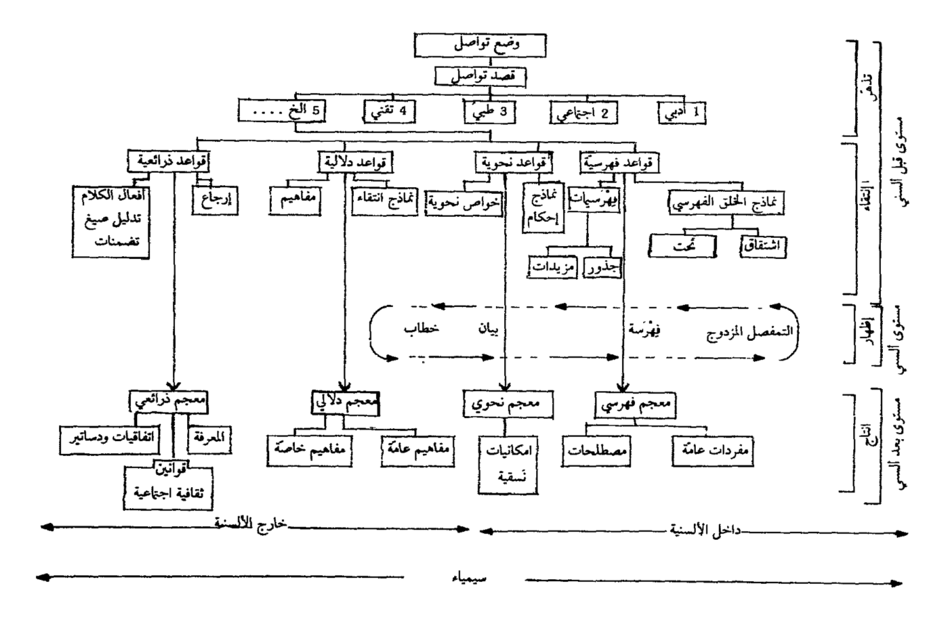
(84) محاضرات ألقيت في باريس في عام ١٩٧٩ ـ ١٩٨٠ Ecole Pratique des Hautes Etudes

مستوى niveau	نوع	و نوع تحتي		منحى discipline
المنظومة Système	فهرَسَة lexes	فهرَسيم مزيد (سابق، لاحق، أوسط)	lexèmes affixes	فهرَساتيّة lexématique
المعيار norme	مُفْرَدَة lexies	simples بسيطة construites مركّبة complexes معقّدة réduites مَقلّصة	dérivées مشتقة composées منحوتة tronqueés مجتزأة elliptiques مُضمرة acronymes مختزلة siglées استهلالية	المُفرداتيّة lexicologie
الخطاب discours	شبه مفردة lexoïdes	لفظة شبه جملة مختصرة بديلة	vocables périphrases abréviation substituts	عباراتيّة lexicographie

وهكذا اذاً تتخذ الوحدات الالسنية كل حسب نوعها تسمية خاصة في كل مستوى من هذه المستويات الثلاثة . ففي مستوى المنظومة وهو مستوى الديمومة ، هناك ما يُسمى بالفرنسية بـ lexe.s اي الوحدات الأساسية وهي توزع الى lexèmes اي فِهْرَسات (ج فِهْرَسة) وهي تضم اولاً جذور الكلمات وثانياً مزيدات تشمل السوابق واللواحق ، اننا ندعو هذه الاخيرة بالصرفيات الفهرسية morphèmes lexicaux . وفي المستوى المتوسط اي مستوى المعيار ، نجد هناك المفردات (ج مُفْرَدَة) وتكون إمّا بسيطة ، أو مركبة ، أو معقدّة أو مُقلّصة ، وأما المفردات المركبة فتكون إمّا مُشتقة وتدخل فيها السوابق واللواحق ، أو كلتاهما ، وإمّا منحوتة . والمفردات المقلّصة هي مجْتَزَأة أو مُضمرة او مُختَزلة او اسْتِهْلالِيّة . أمّا في مستوى الخطاب فثمة ما يُسمى بـ lexoides اي اشباه المفردات وتضم الالفاظ vocables تلك التي تشكل الغالبية العُظمى وأشباه الجُمل périphrase فضلاً عن الاختصارات abréviations ، ولنا عودة أخرى لشرح هذه الأمور جملة وتفصيلاً . (أ 13.3.) واخيراً البدائل substituts .

13.2. الفهرس في المنظومة الألسنية

لا بد أن نعترف مسبقاً أن معالجة مشكلة الفهرس lexique كواقعة لغوية تتداخل مع جملة من الاشكالات اللغوية التي لا نود الدخول فيها هنا ، ولكن حسبنا قبل كل شيء ، أن نتساءل عن كيفية تمثيل الفهرس ، أو بلغة أخرى ما الحيّز الذي يكوّنه الفهرس قياساً إلى مكونات اللغة الأخرى ؟ إن الجدول التالي كفيل ، في رأينا ، بكشف مكانة الفهرس بشكل جلي واضح . ولكن قبل الشروع في بيان مكانته في المنظومة اللغوية ، علينا أن نقدم تعريف لهذا المصطلح «الفهرس» مع الرجوع اليه مرة أخرى (أ 2.2.13.) وذلك لإبراز الفوارق بينه وبين أنماط دراسات أخرى تهتم هي أيضا بالكلمات . أما الفهرس فهو جملة الوحدات الألسنية الدالة على أوجه النشاط البشري كافة لأفراد الطائفة اللغوية



مستوى قبل النص
تلفظ
انتقاء
مستوى النص
إظهار
مستوى بعد النص
إنتاج
وضع تواصل
قصد تواصل
1 أدبي
2 اجتماعي
3 طبي
4 تقني
5 الخ . . . .
قواعد فهرسيّة
قواعد نحوية
قواعد دلالية
قواعد ذرائعية
نماذج الخلق الفهرسي
اشتقاق
نحت
فهرسيات
جذور
مزيدات
نماذج إحكام
خواص نحوية
نماذج انتقاء
مفاهيم
إرجاع
أفعال الكلام
تدليل صيغ
تضمنات
التمفصل المزدوج
فهرسة
بيان
خطاب
معجم فهرسي
معجم نحوي
معجم دلالي
معجم ذرائعي
مفردات عامّة
مصطلحات
امكانيات نسقية
مفاهيم عامّة
مفاهيم خاصّة
المعرفة
اتفاقيات ودساتير
قوانين
ثقافية اجتماعية
داخل الألسنية
خارج الألسنة
سيمياء

المحددة كلياً . وهذه الوحدات تضعها اللغة قيد وبين يدي المتكلمين الذين ينتمون إليها . ومن هذا التعريف البسيط نجد أن الفهرس إنما هو مجموعة الكلمات التي تشتملها لغة ما ، منطلقة من حرف الالف حتى الياء ، عبر مرافق الفكر والثقافة والعلوم وكل المعارف التي - يستوحيها - عبر الاستخدام - متكلمو هذه اللغة أو تلك .

13.2.1. الفهرس : مكانته في المنظومة

أما الآن ، فلنا أن نطوف بالجدول الذي قدمنا محاولين - قدر الامكان - ادراك المكانة التي يتخذها الفهرس إزاء مكونات اللغة الأخرى . إن نقطة انطلاق النموذج إنما تكمن في عملية التواصل ونعني بذلك مجموعة الشروط الضرورية لتحقيق تبادل يتمُّ برامزة ما ويُدخل علاقات بين المتكلمين في حد ذاتهم من جهة وبينهم وبين لغتهم من جهة أخرى . إن قصد ونزوع متكلم ما يتنامى في تطوير فكرة عبر مراحل مختلفة أو لنقل مستويات متتالية ثلاثة : مستوى التذهن ومستوى الانتقاء ومستوى الإظهار أو البيان . فالمستويان الأولان يشكلان مرحلة ما قبل الالسنية أماالمستوى الثالث فيكوّن المستوى الألسني . نزيدعلى ماتقدم إن التذهن يشكل المستوى حيث يحدث الفِكرُ وهو المجال المَجّرد للشمولي وللعمليات الذهنية . إن طبيعة ودور الآليات الدماغية التي تعمل في ادراك المعارف وتعلمها بشكل عام واللغة بشكل خاص لا تُتيح لنا الآن إطلاق أي تأكيدات يقينية جازمة . ولذا فنحن ننتظر أن تقدم لنا العلوم الاخرى (مثل علم الحياة وعلم النفس والعصبية . . . .) أجوبة مُرضية لهذا الموضوع . وهكذا فنحن ، مرة أخرى ، حذرين نحجم في هذا الباب عن الإضافة في مشكلة العلاقات بين اللغة والفكر ، مكتفين حالياً بالقول أنه في هذا المستوى تتموضع مقاصد المتكلمين في الدخول في عمليات تواصل مع افراد طائفتهم اللغوية .

إذا انتهينا من مستوى التذهن جئنا إلى مستوى الانتقاء الذي يشكل مع السابق «التذهن» مرحلتين قبل ألسنية أي أن الألسني لم يتدّخل بعد بشكل مباشر

ليحلّل مادة دراسته وغرضها . ومستوى الانتقاء هذا يكون الحيّز «المكان» حيث تؤدّى بعض العمليات الهادفة إلى انتقاء المقولات المنطقية ـ الألسنية تلك التي يمضي نسقها إلى بُنية قابلة للمعاينة على مستوى البيان الكلامي وذلك في المجالين الألسني وخارجه ولكن ضمن القواعد الأربع المتميزة .

أما المستوى الثالث فهو مستوى الاظهار «البيان» أي مستوى تحوّل قصد التواصل إلى كلام فعلي يَنطقُ به المتكلم ، وهذا المستوى هو أولاً ما يستأثر باهتمام الألسني ، فهو موضع الملاحظة التي يقوم بها الألسني للعلامات الألسنية . وهذه القواعد الأربع (الفهرسية ، النحوية ، الدلالية والذرائعية) تُشارك في المستوى الأعراضي للتواصل ، نزيد على ما تقدم بعض الشروحات التي تظهر فحوى هذه القواعد وماهيتها :

ـ فعلى المستوى «داخل الالسني» ثمة زاوية فئوية أولى تتضمن قواعد فهرسية ، قوامها مجموع الفِهرسات lexèmes (أي الجذور) والصرفيات morphèmes (السوابق واللواحق) التي تحتوي عليها نماذج التشكّل الفهرسي أي تشكل الكلمات بفعل الاشتقاق والنحت .

ـ إن الفئة الثانية في المستوى نفسه إنما تحتلّها قواعد نحوية وهي مجموعة نماذج إحكام العناصر الألسنية المتولدة من النسقية الفهرسية السابقة ، أي المتأتية من قواعد تشكّل الكلمات . ونماذج الإحكام هي التي تجعلنا نُقرر مُطابقة صيغ الفعل مثلاً مع طبيعة الاسم الفاعل ، أو الصفة مع الموصوف . وهذه القواعد تُعتبر حيّز التمفصل بين السمات النحوية والدلالية الضرورية لتشكيل وترتيب العناصر الألسنية في الجُمل .

ـ أما في المستوى «خارج الألسني» فهناك قواعد دلالية وأخرى ذرائعية . والقواعد الدلالية تُساوي ما يُمكن تسميته لُغة الافكار . وهي مكوّنة من قوانين انتقاء ومن مجموعة مفاهيم . فقوانين الانتقاء هي التي تسمح لنا تقرير أية أفعال تتناسب مع أية أسماء وتمنعنا مثلاً أن نضع فعلاً يصلُحُ للجنس الحيّ مع اسم غير حيّ كقولنا : «حَلِمَ المنزلُ» أو «صرَخَ الحائطُ» والقواعد الدلالية هذه يمكن تشبيهها كما قلنا بلُغة الافكار تلك التي تسمح لنا مثلاً بالتعبير عن فكرة واحدة بطرائق مختلفة أو بالتعبير

عنها عبر بُنى نحوية مختلفة عبر كلمات هي الاخرى مختلفة ، مثال ذلك فكرة «موت انسان» ، اننا نقول :

انتقل زيد إلى جوار ربه
انتقل زيد إلى رحمته تعالى
توفي زيد
مات زيد
خطفت يد المنون زيدا
داهمت المنيّة زيداً
فارق زيد الحياة
رحل عنا زيد
قضى زيد
لفظ زيد أنفاسه الأخيرة
أسلمَ زيدٌ روحَه لله
ارتاح زيدٌ من الدنيا الخ

أما الفئة الثانية في المستوى خارج الالسني هذا فهي مخصصة للقواعد الذرائعية . ونعني بالذرائعية هنا استخدام فرد ما للغة في معرض الخطاب . وبالطبع فإن هذه القواعد تهتم بالارجاع référence وبشكل عام بمعرفتنا للعالم غير الألسني مع كل ما تتضمنه هذه المعرفة نفسها من قوانين ودساتير وأصول . هذا ، وتهتم القواعد الذرائعية بكل المُسبقات والافتراضات التي تُرافق الخطاب أياً يكن نوعه ومراميه .

إن لنا ، فضلاً عما يتحفنا به الجدول ، أن نبرز مرحلة أخرى هي بعد ألسنية تدعى بمرحلة الانتاج بالمعنى الاقتصادي للكلمة . وبالانتاج هنا نعني اعداد معاجم محددة ومميزة ، فإزاء القواعد الفهرسية أحدثنا معجماً فهرسياً يشمل المفردات العامة التي يشتملها فهرس لغة ما ، أو تلك الأخرى المنوطة بمصطلحات تقنية مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً ببحث علمي أو تقني متميز . كما وضعنا ، وذلك تجاه القواعد النحوية ، المعجم النحوي الرامي إلى جرد الامكانات النسقية للمعجم الفهرسي عبر أحد مجالات المعرفة العلمية أو العامة . نضيف إلى ما تقدم إقامتنا المعجم الدلالي

موازياً لما يعرف بالقواعد والنظم الدلالية ، وهو ينطوي على المفاهيم عامة كانت أم خاصة وسواء تعلقت بالمجال العلمي أم غيره من المجالات الأخرى . وفوق هذا وذاك ، فقد أعددنا معجماً مغايراً للمعاجم التي سبقت وهو موسوم بالذرائعية ، ولهذا سميناه بالمعجم الذرائعي ، مقابل القواعد الذرائعية ، وهو معلق بمعرفتنا بالعالم غير الألسني بشكل عام ، والقوانين الاجتماعية السائدة تلك التي تستخدم مفردات بدل أخرى . إننا مثلا لا نتوجه بكلمة من مثل «معاليكم» عبر رسالة شخصية نبعث بها لصديق تربطنا به علائق حميمة ، وشفيعنا في هذا أن الدساتير الاجتماعية ترفض صيغة كهذه بين صديقين من هذا الطراز .

13.2.2. بعض الفوارق الأساسية

أن نلج دراسة الوحدات الفهرسية ، هذا يعني قبل كل شيء أن نميز بين بعض المصطلحات مثل : الفهرس lexique ، المفردات vocabulaire ، والمَشْرَح glossaire ، والكنز trésor والمَسْرَد index وغيرها مما يدخل في نطاق المعجم وأنواعه .

13.2.2.1. الفهرس والمفردات

يمكن القول : إن الفهرس lexique ليس بأكثر من مجموع الوحدات **الفهرسية، أو لنقل مجموع كلمات لغةما، المتموضع بين يدي من ينطق بهذه اللغةأو** تلك . أمّا المفردات vocabulaire فهي مجموع الوحدات الفهرسية الذي يستخدمه طائفة من الافراد ، وهذا المجموع كل المجموع ، هو ما يشكل الفهرس الذي يعزُ الحصول عليه إلاّ بالمفردات ذاتها . وإذا يرجع الفهرس إلى جملة المجالات أياً كان **نوعها: اجتماعياً أم ثقافياً أم غير ذلك، نرى أن المفردات لتقتصر منحصرةبين دفتي** نص ما أو مؤلَف ما ، إننا نقول مثلاً عن جماع الكلم الذي يستخدمه موليير في

مسرحياته ، نقول إنه لينطوي ضمن «مفردات موليير» . ولكن إنه لمن الصعب جرد الوحدات كلها بفعل عملية الخلق المستمر ، إذ بين بداية مرحلة هذا الجرد ونهايته تكون سلسلة ولادات مفرداتية مختلفة قد ألقت بنفسها في معترك اللغة التي هي قيد الدرس والجرد معاً .

أما «المشْرَحُ» glossaire فما هو إلاّ اختيار اتفاقي لكلمات يشتملها نص ما يُعتقد أنها عزيزة المنال ، ولذا يعمد الشارح glossateur إلى تفسيرها بكلمات أخرى . وتقتصر عادة وظيفة المشْرَح على ترجمة معنى كلمات نادرة الاستعمال أو غير معروفة كل المعرفة . وهكذا فإذا ما وقع تحت ايدينا نص جاهلي مثلاً رأينا مَشْرَحاً في نهاية النص يُسهم في فك مفاليق المفردات التي هجرها عصرنا هذا .

وأما الكنز trésor فهو نوع معجمي يقوم على جرد وزج كل ما احتوته سابقاً وتحتويه حالياً لغة ما من كلمات قديمة كانت أم حديثة ، مهجورة أم متداولة ، عامة أم متخصّصة . وبكلام آخر يقوم الكنز على جمع كل الوحدات الفهرسية التي عرفتها لغة ما منذ أعمق وأقدم العصور التاريخية الممكن الرجوع إليها . ومهمة الكنز هذا ووظيفته هي اذن في تكديس كل ما أفرزته لغة ما من الكلمات إلى حيّز الوجود والتعامل معاً .

نحن نرى أن هذه الفوارق ملّحة للتمييز بين أنواع المعاجم ووظائفها اللغوية والمعرفية ، ولنا سنحة فيما بعد للعودة إلى المُعْجَميّة la dictionnairique في بحث منفصل يتعلّق بنشوء المعاجم وتاريخها وأنواعها ووظائفها الألسنية . وسنقتصر هنا على تقديم الخطوط العريضة لذلك البحث .

13.2.2.2. الفهرس والنحو

إذا ما قارنا الفهرس بالنحو syntaxe ونعني بذلك قواعد تركيب الكلمات المتعاضدة في الجمل ، تبين لنا أنه يكون الأكثر زحزحة والأقل ثباتاً من بين مكونات اللغة الأخرى . فالفهرس يتغير ويتجدد دائماً ، فضلاً عن تغلغل وحدات ألسنية

جديدة ، مولّدة ، في مساربه وذلك بفعل تكاثر المعارف البشرية أولاً ، والحاجة إلى تسمية المفاهيم والتصورات والاختراعات الجديدة ثانياً . إزاء هذا ، نجد أنه ـ الفهرس ـ في حركة تضخم مطرد ، في حين يظل النحو ثابتاً لا يصيبه أدنى تغيير إلاّ في حالات لا قيمة لها غير مدركة من الفرد الناطق . ولكن ما النحو؟ إنه مجموعة القواعد والبنى التي تفرض شخصيتها على مستخدمي اللغة ، وهذه القواعد نفسها خارجة عن قوى وإرادة المتكلمين أولئك الذين في واقع الحال غير قادرين على إدخال تغيير أو تعديلات عليها . أمّا الفهرس فهو على عكس ذلك ، فالناطقون بلغة ما ، قادرون عن قصد أم غير قصد على إغناء ورفد فهرسها خلقاً وابداعاً من جهة أو إبعاداً واقصاءً لبعض المفردات . فمن هذه الزاوية نجد أن خلق وتوليد مفردات جديدة شيء ممكن حصوله ، أمّا النظم النحوية فهي ثابتة في الأكثر الأعم ولا يستطيع فرد ما أن يزيد عليها أو يحذف منها .

13.3. المُفْرَدَاتيّة

في طوقنا تعريف المُفرداتيّة lexicologie بأنهّا الدراسة العلمية للمفردات أو لِنَقْل وصف بُنى هذه المفردات. إنهّاعلم حديث ناشىء يقوم على فرضية مفادُها أن كل كلمةتخضع لآليتين ثنتين : فمن جهة تُشارك في بنية أشكال واستعمالات ومن جهة أخرى فهي محور تأثيرات متبادلة بين وقائع ألسنية وأخرى اجتماعية ـ اقتصادية .

تتجهُ مُهمّة المفرداتية نحو تقديم وصف لتراكيب المفردات ولآليات تشغيلها . ويتمّ هذا الوصف حول محور البُنى الصرفية للمفردات وبُناها الدلالية .

ويؤدّي النوع الاول من الدراسة، أي القائم على البُني الصرفيةألى المفرداتية الصرفية (morpho- lexicologie) في حين يقود النوع الثاني إلى الدلاليّة (بَدل : علم الدلالة) أي وصف البُنى الدلالية . وفي الدراسة الأولى يتّم تحليل الوحدات الألسنية من وجهة نظر تكوينها الشكلي أو ما يُسمى عادة بالاشتقاق والنحت . أمّا المنحى الثاني فهو يدرسُها ويُعالجها من جانب قيمتها مؤسساً ومشيدا في وقت واحد دلالتها اللغوية .

13.3.1 بُنى المُفردَات الشكليّة

أدركَ أهلُ اللغـة أنّ تشـكل الـكلمات تقليدياً انمّـا يرجـع إلى آليتين هما : الاشتقاق والنحت . ويُعرَّفُ الاشتقاق أنه «إلصاق عناصر فهرسيةٍ في شكل واحد متّصل ، جذر من جهة وعنصر مضاف أو مزيد من جهة أخرى يُدعى لاحقـاً إذا وُضِعَ بعد الجذر وسابقاً إذا وضعَ قبله» (85) . أمّا النحت فهوإلصاق وثيق إلى حدٍ ما بين عناصر فهرسية لهـا استقـلال ذاتـي وذلك . من حيث كونهـا مصطلحـات فهرسية» (86) .

غير أننا سندع هذا الجانب التقليدي في تحليل تشكلّ الكلمات لننطلـق إلى محاولةتصنيف آليات الخلق الفهرسي على ضوء المعطيات الألسنية الحديثة (87) ولنا عودة إلى هذه المواضيع بالتفصيل في بحث مستقل لاحق .

نعترفُ قبلياً ان هذه الصياغة التقليديّة تبقى مقبولة من حيث الأسس العامة جداً ، غير أنها لا تقف في وجه النقد الألسني الحديث إذ أنهّا تتناسى أو تجهل آليات خلق لا تأخذها في حسابها .

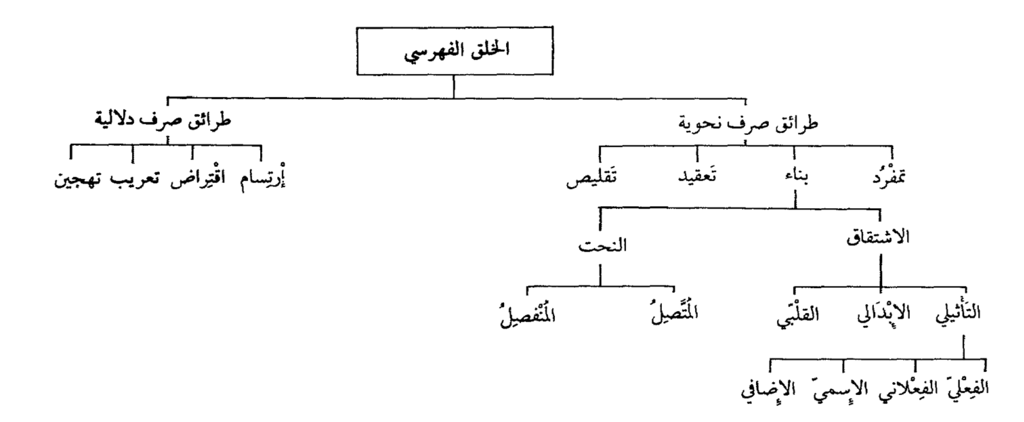
ولهذه الأسباب المنهجيّة فإننا سنمضي إلى التشكّل الفهرس من جانبين اثنين : **جانب صرفي نحوي وآخر صرفي دلالي. ففي الأول ستتكلم عماّ نُسميه بالبناء(وهو مصطلح عام نستعمله للاشارة الى الاشتقاق والتركيب)**والتعقيد. ومن الجدير هنا أن نضيف إلى هذه الآليات حالة التَمَفْرُد تلك التي نُطلق عليها بحسب مصطلحاتنـا الخاصّة في الفرنسية lexémisation وفيها تكون المُفْردَة lexie غير قابلة للتجزيء إلى عناصر صغرى وتتطابق حينئذٍ مع ما نسميه الفِهْرَسَبَة lexème (أ. الجـدول في الصفحة التالية) .

---

(85) لويس غيلبير ، مدخل إلى معجم لاروس الكبير للغة الفرنسيّة الجزء الأوّل ، صIX

(86) المرجع السابق صIX

(87) وذلك في أطروحة دافعنا عنها لنيل شهادة دكتوراه الدولة من جامعة السوربون في باريس بعنوان : Contenu lexical et apprentissage du vocabulaire جامعة باريس الثالثة ، حزيران ١٩٨٣ ، ١٥٦٠ صفحـة .



جدول الخلق الفهرسي

أمّا ما يُناط بظواهر الاستهلال siglaison وبطرائق الاجتزاء الأخرى troncation والتي ينبغي أن تدخل في إطار الخلق الفهرسي ، فإنّ اللغة العربية لم تتمثلها بعد بشكل تام ، ولهذا فهي بمنأى عن كل وصف ألسني الأمر الذي يدعونا إلى تصنيف جديد للخلق الفهرسي في اللغة العربية طارحين جانباً الوصف التقليدي لأنواع تشكل الكلمات إذ لا يمكننا إطلاق تسمية مشتركة على آليات مختلفة .

13.3.1.1 الطرائق الصرف ـ نحوية :

13.3.1.1.1. الاشتقاق dérivation

من الواضح أن تحليلنا ووصفنا لطرائق الخلق الفهرسي يندُّ بنا عن الوصف التقليدي الذي يتعرّض للاشتقاق ليوزّعه بين اشتقاق أصغر واشتقاق كبير وآخر أكبر . وهذا الوصف التقليدي لم يَعُد يتلاءم وطبيعة الكلمات الحديثة والمعاصرة في اللغة العربية بفعل التطورات العلمية والتقنية الهائلة التي طرأت على المعارف الانسانية فأثرت في اللغة كل التأثير (أ. جدول **الصفحة السابقة**) .

13.3.1.1.1.1. الاشتقاق التأثيلي d.étymologique

رُبمّا كان من الممكن وصف الاشتقاق التأثيلي (= من أصل الكلمة) بطرائق تحتيّة أربع : هناك أولاً ما يُمكن تسميته بالاشتقاق الفعلي ويقوم على أخذ صيغة فِعل من فعل آخر كقولنا **كَاتَبَ** فهي مأخوذة من صيغة **كتَبَ** . وهناك ثانياً الاشتقاق «الفعلاني» وهو أخذ صيغة اسم من جذر فعل كقولنا **كاتبٌ** من كتَبَ ، وهناك ثالثاً الاشتقاق الاسمي ويقوم على اشتقاق اسم أو صفة أو فعل من صيغة اسم أو صيغة صفة ، كما يجدر بنا اضافة نوع رابع من الاشتقاق وهو نوع صنّفه النحاة العرب

ووضعوه في باب النحت وهو ما نُسميه بالاشتقاق «الاضافي» . وفيما يلي وقفة عند كل منها :

آ ـ الاشتقاق الفِعْلي d. déverbative

يهدفُ هذا النوع إلى توليد فعل من فعل آخر ، وهذا الخلق الصرفي هو ما يميّز تمييزاً خاصاً اللغة العربية التي تتضمن قرابة خمسة عشر نموذجاً أو صيغة تُسمى الأوزان . إنّ مبدأ هذا الاشتقاق يكمنُ في الجذر الثلاثي (88) للفعل المجرّد الدال على حدث ما والذي لا تقبل صوتياته (أي حروفه) الردّ إلى صوتيات أصلية أخرى . هذا ، وتدخل السوابق واللواحق والأواسط على هذا الجذر بل إنها قد تضاعف بعض جذوره مشيرة إلى سلسلة من الفوارق الدلالية مثل التكرار والسببيّة والتوكيد والتعدية والانعكاس والمطاوعة واليقين الخ . . . .

لنأخذ مثالاً على ذلك وليكن الجذر الثلاثي ق ت ل ذاك الذي يدّل على مفهوم «القتل» ، إنّه يقدّم قتَلَ نموذج انطلاق الاشتقاق . وهذا النموذج هو صيغة الضمير الثالث في المفرد المذكر وفي الماضي في حين أن لغات أخرى كالفرنسية مثلاً تتمتع بصيغة مصدرية خاصة للفعل مثل travailler (أي اشتَغَلَ) .

وإذا عُدنا إلى قتَلَ وضاعفنا عين الفعل كان لنا قتَّلَ الذي يدلّ على التوكيد أو على التكرار في بعض الحالات . ثم إذا اقحمنا زائدة بين فاء الفعل وعينه حصلنا على صيغة قاتَلَ التي تدلّ على جهد مبذول وهي صيغة متعدية مبدئياً . وإذا اضفنا

(88) من المفيد التذكير هنا بالنقاش الذي دارَ بين نحاة من الكوفة والبصرة لمعرفة أصل الاشتقاق أهو الفعل ام المصدر . غير أن هذه المشادة لم تجد فتيل نفع في رأينا ذلك أن الفعل والمصدر لا يمكن تعريف الواحد منهما إلاّ بالقياس إلى الآخر . وبعبارات منطقيّة لا تاريخية يرّجع البعض الاسمَ إلى الفعل كالهنود والأغريق في حين يعطي البعض الآخر ـ ومنهم أصحاب المذهب الاسمي (في العصر الوسيط القديس أوغسطينوس) مثل الفلاسفة ليبنيز وبرتران راسل ـ يعطون الأولية للاسم إذ أن سماته داخلية وليست سياقية كسمات الفعل ، والاسم هو الذي يتحكم بقوانين المطابقة وله قدرة إرجاعية ذاتية ، ففي التعريف ليس للمُعرَّف من حالة سوى الحالة الاسمية .

إليه السابقة ألف وضاعفنا عين الفعل وقعنا على صيغة **اقْتَتَلَ** الدالة على الانعكاس المتبادل أو المطاوعة . أمّا إذا وضعنا السابقة ان قبل الجذر الاصلي فإنّ ذلك يؤدي إلى صيغة **انْقتَلَ** التي تبينّ معنى وقوع الحدث على الضمير الذي تدلّ عليه صيغة الفعل ، وهكذا دو اليك حتى تأتي على استنفاذ الصيغ العشر الأكثر استعمالاً تلك التي يؤدي إليها هذا النوع من الاشتقاق .

ب ـ الاشتقاق الفعلاني d. déverbale

إنّ هذا الاشتقاق الذي ندعوه «فِعلانياً» إنّما يقوم على أخذ صيغ أسمية انطلاقاً من الصيغ العشر التي يؤدي إليها الاشتقاق الفعلي . وتستطيع اللغة العربية اشتقاق مصدر أو صيغة اسمية لأوزان الافعال التي تضعها تحت تصرّف الناطقين بها . ونتيجة لهذا فنحن قادرين على الحصول على الصيغ التالية : **قتْلٌ ، تقتيلٌ ، مُقاتَلةٌ ، تَقاتُلٌ ، تقتّلٌ ، إقْتِتال ، إ سْتِقْتَالٌ** . . . . نزيد إلى ذلك أن العربية تشتقّ اسماء الفاعل والمفعول : قاتِلٌ ، مَقْتولٌ ، فضلاً عن أن الشكل الثلاثي يمكن أن يولِّد أسماء المكان والزمان والآلة من الأفعال التي يقبلُ موضوعها تحولاً من مثل هذا التحوّل .

ج ـ الاشتقاق الاسمي

يتمّ هذا الاشتقاق عبر استخراج مشتقات من أسماء جامدة غير مأخوذة من أصل الفعل ، تدلّ على أسماء مواد نحو : **ذهَبٌ ، فِضّة** . . . . أو اسماء حيوانات : **أسدٌ** ، **كبشٌ** ، أو أعضاء جسدية : **عينٌ ، يَدٌ الخ** . . . .

هذا ، ويمكننا أن نميّز فيه طريقتين فرعيتين تمنحنا الاولى صفات وأفعالاً كما تقدّم الثانية صفات وحسب . إنّنا نُطلق على الاشتقاق الأول اسم الاشتقاق

«الفعلي ـ النعتيّ» نحو : **ذَهَبٌ مُذهَّبٌ ذَهَّبَ** ، وعلى الآخر «**الاشتقاق العلائقي**» نحو : **شكْلٌ شكليّ ، جَمالٌ جَمَاليّ** ، **فاللاحقة ي** المشددة تدلّ على الانتماء أو على العلاقة ، أمّا النعت الذي يُعبّر عن هذه العلاقة فيُمسي بدوره قاعدة تشكيل اسم مجرد بإضافة اللاحقة ت : جماليّ ← ، جماليّة ← ، اشتراكيّ ← ، اشتراكيّة .

د ـ الاشتقاق الإضافي d. additive

لم يعالج ويدرس هذا النوع من الاشتقاق إلاّ ضمن اطار النحت . وهذا الاشتقاق الذي نسميه «إضافياً» يتميز باضافة صوتيم زائد إلى الجذر قد يتّخذ صورة أحد المواقع الثلاثة ونعني بها السوابق واللواحق والأواسط . وإذا ما جعلنا طريقة الخلق الفهرسي هذه في باب الاشتقاق فمَردُّ ذلك أن هذا الصوتيم الزائد لا يتمتّع باستقلال ذاتي فهرسي ، فضلاً عن أن طريقة اضافته إلى الجذر تتنافى والتعريف الذي قدمناه للنحت وهوِ «الصاق وثيق إلى حدٍ ما لعناصر فهرسية لها استقلال ذاتي وذلك من حيث كونها مصطلحات فهرسية» (89) .

إننا ـ انطلاقاً من الحروف ر ك ل في مادة ركلَ ـ نضيف السابقة ب فيتشكل معنا الفعل بَرْكلَ أي مشى في الطين والماء . أمّا إذا أضفنا اللاحقة م على الجذر بَرَعَ فنحصل على بَرْعَمَ .

إن إضافة صوتيات الزيادة هذه قد عللّها العرب قديماً بالدراسات الاسلوبية المتعلقة بتعبيرية الحروف العربية وبالشعور السائد بأن هناك تناسباً بين الصوتيات والاشياء التي تدلّ عليها . ولقد وصل الجدل الدائر بين الفلاسفة الاغريق من اتفاقيين وطبيعيين إلى سمع النحاة العرب الذين لم يأخذوا بفكرة ما نُسميه اليوم اعتباطية العلامة الألسنية (أي الاتفاق) وبِسِمَتها غير المعللّة فقد رَأوْا أن ثمة رابطاً طبيعياً موجود في الواقع بين الدال والمدلول . ولقد قادَ النقاش حول التناسب

(89) انظر الحاشية رقم84 .

الطبيعي هذا والذي عززّته الرغبة في رد الصيغ الفهرسية كافة إلى جذور ثلاثية ، نقول قادَ النُحاة إلى تقصّي البُنى الفهرسية بغية تحديد أثل أو أصل الكلمات أي بغية اكتشاف طبيعتها الحقيقية .

وما دمنا في هذا المجال فلا بد أن نُشير إلى أنّ فكرة المنشأ الطبيعي للكلمات العربية ما زالت راسخة رسوخاً عميقاً في أذهان فقهاء اللغة والنحاة العرب المعاصرين الذين يضعون على الأصوات المكوّنة للكلمات صفات فيزيائية (شدّة ، نعومة ، قوّة الخ . . . .) .

لقد طورّت الرمزية الصوتية أو قل العلاقة بين العلامات الألسنية وأشياء الإرجاع الموجودة في العالم غير الألسني ، طوّرت دراسة الاشتقاق ممّا دفع النحاة العرب إلى محاولة ردّ فهرس لغتهم إلى شريحة أساسية من الفِهْرَسَات (ج فِهْرَسة) مكونّة من جذور ابتدائية هي أساس الخلق الكلامي .

بيد أن مقاربة كهذه أو معالجة للأمور بهذه الطريقة لا تقاوم التحليل الموضوعي ، فها هي مكتسبات الألسنية الحديثة تدحض بشكل شبه تام(90) تصوراً كهذا . واللغة العربية لا تلجأ بتاتاً إلى طريقة الخلق اللغوي هذه ، أي الاشتقاق الإضافي ، التي تبدو وكأنها ثبتَت في عدد من المفردات التي غدت الشاهد الوحيد على هذا «الاشتقاق الإحائي» paléodérivation .

13.3.1.1.1.2. الاشتقاق الإبدالي

تنزع طريقة الاشتقاق الإبدالي إلى إبدال صوتيات أو حروف جذر واحد فيما

---

(90) نقول شبه تامّ إذ أن هناك استثناءً عاماً لمبدأ اعتباطية العلامة الذي طورّه فرديتان دوسوسير ألا وهو المحاكاة الصوتية onomatopées ففيها يكون احكام الصوتيات مُنسقاً بحيث يحُاكي الصوت الطبيعي المُراد التعبير عنه . ولا يسعنا في هذا الصدد إلا الاستعانة بما كتبه «غريماس» حين قال انه لمن الممكن - ولكن هذه مسألة فلسفية لا ألسنية - أن تكون ظاهرة اللسان سريّة في حدّ ذاتها ، ولكن لا سرٍّ في اللغة .

A J. Greimas Sémantique structurale, Larousse Paris, 1966, 262 pages.

بينها . هذا ، وإذا عرفنا أنّ لكل جذر ثلاثي في الاشتقاق التأثيلي معنى عاماً يتحقق ويتكرّر على الرغم من وجود اختلافات في كل وحدة ألسنية تحتوي على هذه الصوتيات نفسها في ترتيبها الأصلي نجد أن الأمر يتغيرّ في الأشتقاق الابدالي ، ذلك أن الصوتيات الثلاثة في هذا النوع من الاشتقاق الابدالي إنّما تتحّد فيا بينها في معنى عام يتكرّر أياً يكن ترتيب الصوتيات وذلك بالقياس إلى عدد من الجذور محدّد . نزيد على ما تقدّم أن الوحدة المُشتقة ، وذلك في الاشتقاق التأثيلي تتضمن بالضرورة عدداً أكبر من الحروف أو الصوتيات المنوجدة في الوحدة الأصلية التي هي أصل الاشتقاق وأسّه الأول .

أمّا في الاشتقاق الابدالي فلا شيء من هذا ، إذ يبقى عدد الحروف ثابتاً فضلاً عن أن المادّة نفسها صوتية كانت أم خطيّة تؤدي فيا تؤدي إلى خلق وبعث وحدات فهرسية جديدة وذلك عبر تبديل مواقع الحروف الأصلية .

وهكذا ، فإن الحروف ج ب ر تُعبّر في مادة جَبَرَ عن القوّة والشدّة اللتين نجدهما في الاشكال الستة للابدال الممكن القيام به : جَبَرَ ، جَرَبَ ، بَجَرَ ، بَرَجَ ، رَجَبَ ، رَبَجَ .

وفي هذا المجال لا بّد من الالماح إلى أن المعاجم العربية الأولى في القرن الثامن الميلادي كانت تلجأ إلى جمع مشتقات صيغة واحدة للمادّة ذاتها بغية التأكد من جرد كليّ للكلمات يتسّم بالاستنفاذ exhaustivité

وفي الواقع ، فإنّ طريقة الاشتقاق الابدالي هذه إنّما هي في الظاهر محددّة عددياً بفعل حدود الألفباء ذاتها . وهذا التحديد لم يغب عن بال القدامى ، فها هو السيوطي يقول : «إن الحروف قليلة ، وأنواع المعاني المتفاهمة لا تكاد تتناهى ، فخصوّا كل تركيب بنوع منها ليفيدوا بالتراكيب والهيئات أنواعاً كثيرة ، ولو اقتصروا على تغاير المواد حتى لا يدلوا على معنى الاكرام والتعظيم إلا بما ليس فيه شيء من حروف الايلام والضرب ـ لمنافاتهما لهما ـ لضاق الأمر جداً ، ولاحتاجوا إلى الوف حروف لا يجدونها» (91) .

---

(91) «المزهر في علوم اللغة وأنواعها» الطبعة الثالثة ، دار احياء الكتب العربية ، ص ١٦٤

13.3.1.1.1.3. الاشتقاق القلبي

تنهض طريقة الاشتقاق القلبي على تبديل أحد صوتيمات أو حروف الجذر في مُفردة ما بصوتيم آخر يتمتع بسمات صوتية متشابهة او يتموضع من حيث نُطقه قرب مخرج الحرف الذي يقع عليه القَلْب . إنّنا نُسمي هذه الطريقة من طرائق الخلق الفهرسي بالقلب métaphonie ونعني به ذلك التغيرّ الصوتي الذي يقع على الجذر مؤدياً الى تبديل أحد حروفه . غير أن المُفردة المشتقة تصون المعنى نفسه للمفردة أساس الاشتقاق على الرغم من التغيرّ الصوتي الذي يطرأ على جذر هذه الأخيرة نحو : سراط/ صراط ، ساطع / صاطع ، قشَط/ كشَط . ولا شك ان هذه الطريقة تفضي الى إغناء المترادفات في عالم الخلق الشعري والأدبي معاً .

13.3.1.1.2. النحت Composition

اذا كانت اللغة العربية تشترك ولغات اخرى في مفهوم النحت كالفرنسية والانكليزية مثلاً ، إلا ان آلية النحت فيها لا تماثلها تماماً . وصحيح ان المنهج هو ذاته من حيث المبدأ اذ انه يقوم على ضمّ عنصرين فهرسيين مستقلين فهرسياً ضماً وثيقاً يقوى المتكلمّون على التعرف عليهما . غير ان آلية الضمّ هذه تختلف من لغة الى أخرى .

يبدو لنا أن العربية تفتقر قليلاً الى هذه الآلية ـ النحت ـ بالقياس الى اللغات الاوروبية كالفرنسية والانكليزية على سبيل المثال ، اذ ان هذه الطريقة تبقى ثانوية في عمليات الخلق الفهرسي .

ويمكن تفسير هذا النقص برفض اللغة ونفورها من قبول بُنى صرفية مستكرهة ـ ومنفِّرة قد تُسيء الى نسيجها الألسني وخاصة فيما يتعلق باللفظ . ذلك إن المبدأ الاساس الذي يخضع له أكثر النحاة العرب يقوم على منح الأولوية ـ وذلك في كل

عملية لغــوية الى الــذوق والأذن وهما كفيلان بحــذف ورفض كل الصيغ التي ينكرها الذوق ويحجُمُ عنها السمع .

ويقف هذان المعياران الذاتيان ـ أي الذوق والسمــع ـ وراء بعض عمليات التنظيم الصوتي التي أدخلتْ على آليات الخلق الفهرسي الصرفي ـ النحــوي مثـل حذف وقلب وإضافة بعض الحروف الى الجذر الأصلي وصولاً الى خير صيغة صوتية ممُكنة .

بيد أن عُقم هذه الطريقة لم يثـن قدامـى المتكلمّين من ايجاد بعض المنحوتات (الكلمات المنحوتة) إلاّ ان عددها قليلٌ جداً على الرغم من محاولة بعض أهل هذا الزمان من الدخول في مجالها . هذا من جهة ومن جهة أخرى ، إن النموذج الذي يمكن تقريبه من النمـوذج المُسمّـى النمـوذج العلمـي لـم يظهـر الاّ بحـذر وتهيّب شديدين . وربما كان مآل ذلك ان العربية كلغة تميل بصورة جليّة الى السعي الى الوحدات التركيبية syntagmatique تلك التي تنطوي على مفردات يستقل بعضها عن بعض كتابياً . انّنا ندعو هذه الآلية التعقيد complexification وهي تقابل في تصنيفنا هذا التَمَفْرُد من جهة والبناء نحتاً واشتقاقاً من جهة أخرى .

وعلى كل حال فنحن قادرون على التمييز بين طريقتين تحتيتـينّ للنحت وذلك بحسب طبيعة عملية النحت نفسها وِشكل النِتاج النهائي ، انهّما النحت المُتّصـل والآخر المُنفصل .

13.3.1.1.2.1. النَحْت المُتّصل .

يمُكن وصفـُ هذه الطريقة ـ مقابلة بالخلق الاشتقاقي ـ بأنهّا تقوم على تقريب وحدتين مستقلتينّ الواحدة من الاخرى وذلك بعد حذف صوتيم نهائي او اكثر من الوحدة الفهـرسية الاولى وحـذف صوتيم ابتدائـي اوأكثـر من الوحـدة الفهـرسية الثـانية .

لنأخذ مثلاً الكلمة **كهرطيسي** ، نَرَ أنها منحوتة من الوحدة الفهرسية المستقلة **كهر بائي** ومن وحدة ثانية هي الاخرى مستقلة فهرسياً : **مغناطيسي** ، ويقوم التقريب على حذف الصوتيات النهائية في الوحدة الاولى (**بائي**) والصوتيات الابتدائية من الوحدة الثانية (مغنا) الأمر الذي يُفضي الى المنحوتة : **كهْرَطيسي** .

. وبينما يُصيب الاجتزاء troncation الصوتيات النهائية للمكوِّن الأول في اللغات الفرنسية والانكليزية مثلاً على نحو électro- magnétique, hydrodynamic ، نُلاحظ ان حذف الصوتيات في العربية لا يتبع قانوناً سوى الحرص على أفضل تناغم صوتي ممكن في المنحوتة المولّدة . وهكذا ففي المنحوتة **افر و اسيوي** نرى ان المكوِّن الأول هو الذي وقع عليه الاجتزاء وكذلك الامر في **هندو اوروبي** حيث **تُصبح افريقي وهندي أفرو ، وهندو** ولا شك ان للنحت في اللغات الاوروبية تأثيراً واضحاً كل الوضوح في منحوتات كهذه حيث يُمكننا التعرف الى صوتيم الوصل o في اللغات المذكورة : pharmacodépendance, cardiovasculaire, **hydroélectrique** . الخ . . . غير ان استعمال صوتيم الوصل o هذا يبقى غير مقيّد بقاعدة في العربية اذ غالباً ما يتّم الالتحام بين الوحدات الفهرسية من دون اللجوء اليه ولكن عبر سقوط الصوتيم النهائي في المكوِّن الأول مثال ذلك : **برمائي بدل بريّ مائي** .

هذا من جهة ومن جهة اخرى فان ترتيب عناصر النحت كما يبدو في اللغات الاوروبية التي تقدم في معظم الحالات نموذجاً للعربية ، ان هذا الترتيب قد يتغيرّ في العربية وذلك صوناً لرَخامة المنحوتة . وهكذا فهي تحُافظ في كلمة **كهرطيسي** التي تقابلها في الفرنسية والانكليزية كلمة électro- magnétique على الترتيب المتتالي للمصطلح الأجنبيّ ، في حين انها تقلب ترتيب المكوِّنات في كلمتي photo- électrique وaérobie اللتين تُصبحان **كهرضوئي وحيهوائي** .

ان طريقة النحت المتصل في العربية شبيهة بمثيلتها في الفرنسية مثلاً حيث يُطلق فيها اسم «النموذج العلمي» على هذه الآلية في ضمّ المفردات بعضها الى البعض الآخر . إننا نرى ان الربط الصرفي ـ النحوي **متشابه من حيث المبدأ** في اللغتين غير أن كيفيات هذا الربط تختلف قليلاً كما رأينا وفقاً لمصادر عبقرية كل لغة وموسيقيتها الخاصّة .

13.3.1.1.2.2. النَحتُ المنفصل

انّ آلية النحت المنفصل تبدو مباينة لسابقتها ونعني بذلك النحت المتّصل ، إذ أن المفردات التي يُقدّر لها أن تُصاب بتقارب صرفي ـ نحوي حميم لا تمُنى في النحت المنفصل بتغيرات صوتيميّة . وينهض مبدأ النحت هذا على وضع مفردتين مستقلتين استقلالاً كلياً جنباً الى جنب فضلاً عن ادخال التشكيل الجديد في الاستعمال وبالتالي على ادراجه في الفهرس مثل : **نفسّي** و **جسميّ** وهما كلمتان لهما استقلال فهرسي تام فتصبحان : **نفسي ـ جسميّ** psychosomatique في منحوتة جديدة واحدة . وبهذا ، تكون العلاقة بين الوحدات الفهرسيّة المقرّبة من بعضها في التشكيل الجديد علاقة تجاور juxtaposition .

وهذه العلاقة تعني ان العُنصرين المتميّزين للمُفردة المنحوتة نحتاً مُنفصلاً لا يخضع أحدهما للآخر . وبمعنى آخر إنه ليس لاحدهما علاقة تبعية بالآخر على الصعيد النحوي اذ يمكننا قلب موضع المكوِّنات فنقول مثلاً **جسمي ـ نفسي** مع الاحتفاظ بالمعنى كاملاً . وهذا يعني كذلك ان العُنصرين انمّا يرجعان بالضرورة الى فئة قواعدية واحدة ولهما وظيفة اعرابية واحدة ؛ نقول بالضرورة لأنّه اذا ما اختلفت الوظيفة القواعدية ، فان العلاقة النحوية تُصبح علاقة إضافة وتخرجُ المُفْرَدَة المنحوتة من إطار النحت لتدخل في إطار التعقيد وهو ما سنعالجه في الفقرة التالية .

ان مكوِّنات المُفردة المنحوتة المنفصلة (اي التي تُنحت بحسب آلية النحت المُنفصل) تقيمُ اذاً في ثناياها علاقة تجاور ليس غير . وتتدرّج هذه المكوِّنات بين الاسم أو الصفة . لِنَر ذلك من خلال الأمثلة :

ـ حالة صفتينّ :

مثال ذلك : أذيني ـ بُطيني ، نووي ـ حراري ، هندي ـ امريكي ، أصمّ ـ أبكم ، مُضحك ـ مُبكي الخ . . . . (92)

---

(92) ليست علامة الوصل المطبعية بعدُ ذات استعمال شائع كما هي الحال في اللغات الاخرى الاوروبية مثلاً . لذا نقترح ان يتمّ الاتفاق على استعمال صيغة موحّدة . فإمّا أن نُدخلها في الطباعة ـ وهذا عين الصواب ـ او نرفضها .

ـ حالة اسمين :

مثـال ذلك : **قاذفـة مُقاتلـة ، أرض ـ أرض (صـاروخ ـ) ، نقطـة فاصلـة الخ ....**

ومـن الملاحـظ ان علاقـة التجـاور تؤدي الى تشابـه في الوظيفـة القواعـدية للمكوِّنين والتي تتبدّى مثلاً على مستوى التعريف . فان كان المكوِّنـان اسمين في حالة أوصفتين في أخرى ، فهما يحملان علامة التعريف او التنكير ذاتها ، ويمُكن ان يضاف اليهما ال التعريف في حالة المعرفة او التنوين في حالة النكرة .

13.3.1.1.3. التعقيد Complexification

ان العلاقة بين العناصر هي ، كما رأينا ذلك قبلاً ، في النحت المُنفصل علاقة تجاور . ولكن ما ان تقوم بين المكوِّنات علاقة تبعيّة نحوية او علاقة إضافة حتى يتغيرّ نموذج تشكيل المفردة وتصبح هذه الأخيرة مُفردة معقدّة وذلك بحسب الطريقة التي نُطلق عليها اسم «التعقيد» . مثال ذلك : ردٌّ فعل ، علمُ النَفسِ .

إن الاضافة تعني حالة بناء تعريفيّ قائم على تجاور عناصر يحُدّد فيه العُنصر الثاني العُنصر الأول ، وهي على نوعين : اضافة تبعية ويكون فيها العُنصر الأول محُدّداً نحوياً ودلالياً بفعل العُنصر الذي يليه ، نحو : «مَزْرَعَةُ الوزير» ، واضافـة نعتيّة وهي تختلف عن الأولى دلالياً ، إذ انها لا تدلّ ، اولاً ، على التبعية وانمّا على صفة ترتبط بشخص او بشيء ، وثانياً يكون عُنصر الاضافة الأول محدداً نحوياً بفعل فقدانه التنوين من جهة وعدم دخول اداة التعريف عليه من جهة اخرى ، ولكنّه مع ذلك لا يمثل دلالياً غرضاً محدّداً ، نحو : «كبير القامة» .

لابد من الاشارة هنا الى ان طريقة الخلق الفهرسي تلك التي دعوناها تعقيداً ، قد يكون المكوِّن الاول فيها اسم فاعل نحو : **حاملة الطائرات ، مخُفِّض اللسان ، قاذف اللهب ، خفر الساحل** .

كما قد يكون في حالات أخرى اسم شيء نحو : **صندوق بريد ، ساعةُ يد** ، أو مصدراً نحو : **التهاب الكبد ، فقرُ دم ، تَصنيعُ صدري** .

هذا ، وقياساً الى عدد المكوِّنات وطبيعتها النحوية ، فانّ المفردات المعقّدة التي تنجم عن هذه الطريقة تتخذ أشكالاً متعدّدة . غير انه من الممكن توزيع مفردات هذه الطريقة نفسها الى زمرتين رئيسيتين نُميِّز فيهما تبعاً لوجود او لعدم وجود واصل (اداة وصل) بين المكوِّنات الأمور التالية :

آ ـ المفردات المعقدّة من دون واصل

ان المفردات ذات الشكل التركيبي في اللغات الأجنبية ونعني بذلك تلك التي تدخل فيها زيادات (لواحق وسوابق) مثل hyper في hypertension (اي ارتفاع الضغط) او تلك التي تتبّع ما يُسمى بالنموذج العلمي نحو hydrocarbure (المشكّلة من hydro اي ماء و carbure اي فحم) تُصبح في العربية مفردات تحليلية : **ارتفاع الضغط** مقابل التركيب hypertension وفي المفردات العلمية والتقنيّة ، تتخذ هذه الظاهرة أبعاداً عملاقة إذ يُصار الى تعريب السوابق واللواحق الاجنبية عبر مفردات مستقلّة استقلالاً فهرسياً تاماً . وهكذا ، وبينما لا يكون للسوابق الاجنبية مثل ,-a anti-, hyper-, hypo-, para-, sur- أو للواحق مثل ification, -ine, - ome-one استقلال ذاتيّ في سياق الكلام ، فان العربية تسعى الى التعبير عنها بتراكيب تحليليّة يتمّ بها تقريب مفردات ذات استقلالية ووضعها الواحدة الى جانب الأخرى . ان avirulent (الـ a اداة نفي) تُصبح **فاقد الفوعة** anti toxine **مُضاد الذيفان** و hyperallergie **فرط الحساسيّة** و hyposécrétion **نقص الأفراز** و paratuberculeux **نظير السلّ** و surcharge **فرط الحمولة او زيادة التحمّل** وفي حالة اللواحق ، نرى ان اللاحقة -ite تصبح **التهاباً** في العربية و -ome **ورماً** : hépatite **التهاب الكبد** ، ganglioneurome **ورم الخلية العصبية** .

وفي هذه الزمرة الاولى ، نستطيع تبينّ اشكال عديدة للمفردات المعقّدة وذلك بحسب عدد المكوِّنات وفئتها النحوية :

١ ـ اسم + اسم :

يكون العنصر الثاني في هذه المتتالية في حالة تبعية نحوية تجاه العُنصر الأوّل ، اي اننا نكون امام حالة مضاف ومضاف اليه :
التهاب السحايا méningite ، **نهايةُ الانبساط** télédiastole ، **فرطُ الحمولة** surcharge ، **تقيّح الكلية** pyonéphrose .

٢ ـ اسم + صفة :

تكون الصفةُ نعتاً في هذه المتتالية : **تصوير شعاعي** radiographie ، **ورمٌ كاذب** pseudo- tumeur .

٣ ـ اسم + اسم + اسم :

يتضمّن نموذج الخلق الفهرسي هذا ثلاثة اسماء يكون فيها الاخيران مجتمعين في حالة اضافة قياساً الى العُنصر الأوّل **زيادةُ شحومِ الدمِ** hyperlipidémie .

٤ ـ اسم + اسم + صفة :

وفي هذا النوع من التشكيل الفهرسي ، تكون الصفة نعتاً للاسم الاوّل في حين يكون الاسم الثاني مُضافاً الى سابقه : **تصوير الوتين الشُعاعي** aortographie .

وفي حالات اخرى ، تكون الصفة نعتاً للاسم الثاني الذي تُشكل معه على حدة مُفردة معقّدة : **تصوير الأوعية الاكليلية** coronarographie .

وفي زمرة ثالثة ، نجد ان الصفة ترجع الى الاسمين الأولينّ اللذين يُشكلان مفردة معقدة من النموذج المذكور في الفقرة ١ ـ : **ارتفاع التوتر البابيّ** ، **تقيّح الكلية البولي** .

٥ ـ اسم + اسم + صفة + صفة :

في هذا التشكيل ، ينتمي الاسمان الى النموذج ١ ـ وتكون الصفتان نعتينْ لهما : **فقردم انحلالي ولادي**

٦ ـ اسم + صفة + صفة + صفة :

في هذه الزُمرة يُشكل الاسم والصفة مفردة معقّدة من النموذج ٢ ـ تُضاف اليها صفتان اثنتان : **رسم شعاعي بولي وريدي** ، **وريد أجوف علوي أيسر** ، **ناسور شرياني وريدي اكليلي** .

٧ ـ اسم + صفة + صفة + صفة + صفة :

تتكوّن هذه الزمرة من صفات أربع يكون وجودها عاملاً قوياً في زيادة تحديد الاسم وتعريفه : **الشريان الاكليلي الامامي النازل الأيسر** .

ب ـ المفردات المعقدة ذات الواصِل :

ان مفردات هذه المجموعة ، خلافاً لمفردات المجموعة آ السابقة ، تتميّز بوجود واصل joncteur (أي أداة وصل) بين عناصرها المكوِّنة . وهذا الواصِل هو غالباً من حيث المبدأ ، حرف جرّ :

ذبحة قبل احتشائية (الواصل قبل) ، **عبر الحاجز الأذيني** (عَبر) **ضغط ضمن الأوعية** ، **ضمن الصدر** (ضمن) الخ . . .

13.3.1.1.4. التقليص réduction

تقوم آليات التقليص في اللغات الاجنبية كالفرنسية والانكليزية مثلاً على اجتزاء عدد من صوتيات مُفردة ما ، او على إضمار مفردة بأكملها في التركيب او على تداخل مفردتين فيا بينهما ، او على اختزال عدد من صوتيات مُفردة ما ، او على عملية الاستهلال .

والاجتزاء troncation هو حذف مقطع صوتي أو أكثر من المُفردة ، مثال ذلك كلمة ميترو métro التي كان أصلها métropolitain (متروبوليت تعني العاصمة) او كلمة ciné وهي اجتزاء شعبي لِـcinéma وهذه الاخيرة اجتزاء لِـcinématographie وقل الأمر نفسه بالنسبة لِـautomobile التي تُصبح مجتزأة في auto .

امّا الإضمار ellipse فيقوم على حذف كلمة بأكملها ضمن مُفردة معقّده كقولنا : une deux chevaux بدلَ une voiture deux chevaux اي سيارّة بحصانين وهي ماركة سيارة فرنسية ويُرمز لها بِـ2CV .

امّا التداخُل emboitement فيقوم على دمج مفردتين شرط ان يحُذف مقطع

صوتي او اكثر من نهاية المُفردة الاولى ومقطع صوتي أو اكثر من بداية المفردة الثانية ، مثال ذلك في الفرنسية stagflation وهي تداخل المفردتين stagnation اي ركود وinflation أي تَضَخُّم ، فيؤخذ من الاولى stag, flation من الثانية . وكذلك الأمر بالنسبة الى الانكليزية smog وهي تداخل بين smoke اي دُخان وfog اي ضباب ، وتجدر الاشارة هنا الى ان التداخل قد أدّى الى تناول smo من الاولى وog من الثانية للدلالة على ضباب كثيف يتشكل من قطرات ماء ومن سُخام هو سواد الدخان ، وذلك في المناطق الصناعية الرطبة .

وامّا الاستهلال siglaison ، فيرتكز على مبدأ تناول الصوتيم الاستهلالي الاول من عدّة مفردات ، كقولنا : .U.N وهي حروف استهلالية لِـ United Nations او UNESCO لِـ United Nations of Education, Sciences and Culture Organisation .

يجدر بنا ان نذكر في هذا المقام أن العربية طورّت سابقاً بعض ظواهر التقليص هذه ، وخاصة آلية الاستهلال ، مثل : صلعم ، **بَسْمَل** ، **حَوْقل** ، **حَيْعَلَ** . . كقول الشاعر :

ألا رُبَّ طيْفٍ بات منكِ مُعانيقي
إلى أن دَعَا دَاعِي الفلاحِ فحَيْعَلا

ويريدُ : «قال : حيَّ على الفلاح» وكذلكَ الأمر في : «تَعَبْشَمَ الرجُلُ ورَجُلٌ عَبْشَميٌّ» اذا كان من عَبْدِ شَمْسٍ ، كقول عبد يغوث بن وقاص الحارثي :

وتَضْحَكُ منّي شَيْخَة عَبْشَمية
كأنْ لم تَرى قبلي أسيراً يمانيا

ولقد عرف قدامى العرب قرابة اربعين مُفردة مُقَلّصة مثال ذلك :

حَسْبَل : حسبي الله
حَمْدَل : الحمدلله
دَمْعَز : أدام الله عزّك
جَعْفَل : جعلني الله فداك
وَيْلم : وي (ويل)لأمة

طَلْبَق : أطال الله بقاءك

سَمْعَل : السلام عليكم الخ . . .

غير أن الصوتيات المختارة ليست بالضرورة استهلالية فالصوتيم الميمـي في صلعم/ ليس استهلالياً، ولكنه انتهائي وذلك رغبة في احداث رخامة مُثلى . ويعود سبب ظهور الاستهلال إلى التكرارالكبير في استخدام تشكيل مفرداتـي في نصّ ما الأمر الذي يدفع المتكلمين ، وذلك بحسب قانون الجُهد الأقلّ ، الى الاستعاضة عن التشكيل بأكمله والاكتفاء بصوتياته الاستهلالية .

وظهرت في اللغة العربية المعاصرة بعض الاستهلالات (ج إِسْتِهْلالَة ويقابلها في الفرنسية Sigle وفي الانكليزيةInitial) ، ولكنها تبقى قليلة اذا ما قيست بمثيلاتها في اللغات الاوروبية مثلا :م ط اي مضاد للطيران ؛ ج .ع .س . = الجمهـورية العربية السورية ؛ ص .ب = صنـدوق بريد ؛ و .ص .ف . وكالـة الصحافـة الفرنسية ؛ م د = مضاد للدرع الخ . . . وهذه الاستهلالات تُلفظ بشكل منفصل إلا أن هناك استهلالات غيرها تُلفظ وكأنها مفردات تامةمستقلّة :مِتاع = مؤسسة التعمير والانشاءات العسكرية (في سوريا) .

هذا وقد تلجأ بعض المؤسسات الرسمية او شبه الرسمية الى انتقاء إِسْتِهْلالة مأخوذة من مفردات اجنبية ، وربما كان ذلك رغبـة منهـا لاعطائهـا طابـع تداول دولي ، كما هي الحال بالنسبة لوكالة الانباء العربية السورية ساناالمأخوذة من Syrian Arab News Agency .

13.3.1.2. الطرائق الصرف ـ دلالية

اذ كنا قد عقدنا الباب الاول من الخلق الفهرسي على الطرائق الصرف نحوية فإننا عازمون على ان يكون الباب الثاني دراسة للطرائق الصرف دلالية عاملين بذلك على تمييز أربع ظواهر هي : الارتسام والاقتراض والتعريب والتهجين .

13.3.1.2.1. الارتسام Calque

لعل ظاهرة الارتسام كغيرها من الظواهر الدلالية(93) شائعة الاستعمال في اللغة العربية المعاصرة ، ويكفينا مطالعة الصحف أو سماع الانباء للتأكد من انتشار هذه الآلية الألسنية .

ان الارتسام يقوم على تقليد وترجمة مفاهيم لاوجود لها ولا مقابل في اللغة العربية ، وذلك باللجوء الى تجميع مفردات موجودة في اللغة التي تقترض من غيرها وتقريب بعضها من البعض الآخر بغية التعبير عن مفهوم جديد انما نقول تجميع بفعل أن الارتسام يتّخذ في معظم الحالات شكل مُفرده مركبة او معقّده ، فكل ناطق بالعربية يعرف ما هو الجِسرّ مثلا وما معنى كلمة جويّ فالجسر يدخل في مصطلحات البناء والعمران والصفة جوّي ترتبط بمفردات الطيران . ومع ظهور مفهوم اوروبي جديد يقوم على خلق اتصال مباشر ومستمر بين مدينتين مثلا لامداد احداهما بما تحتاج اليه من الاخرى نَشَأ المصطلح Pont aérien بالفرنسية (Air lift بالانكليزية) حيث لا رابط بين pont ومانعرفه عن المفهوم العمراني سوى التشبيه . ومن هنا عمدت العربية الى الارتسام بترجمتها المصطلح الأجنبي كما هو وأعطت هذه الترجمة المُفْرَدَة «جسر جوي» . وفي عملية الارتسام ، ان ما ينقل من لغة الى اخرى انما هو المضمون الدلالي الذي اخترعه متكلّموا اللغة المترجم عنها . وهكذا هي حال المفاهيم التالية : **ناطحة سحب** ، **طاولة مستديرة**(حتى ولو جلس المؤتمرون او المجتمعون في مدرّج او التفوا حول طاولةمستطيلة !)**مؤتمر قمة** ، **مستوى الحياة** ، **غلاء المعيشة** ، **ناقلة نفط** ، **حاملة طائرات** ، **علاقات عامة** الخ . . . فهي كلّها مفاهيم وفدت الى العربية من لغات الشعوب التي اوجدتها .

---

(93) بوسعنا الزعم أن ظاهر التوليدالفهرسي néologie تتّم في الوقت الراهن وفي كثير من الحالات حسب آلية الارتسام ، لأن مركز ظهور وانتشار المفاهيم والافكار والاختراعات . . . لم يعد ومنذ زمن بعيد في الرقعة الجغرافية العربية .

13.3.1.2.2 الاقتراض Emprunt

إن الامر مختلف في الاقتراض بل هو معاكس لما رأيناه في الفقرة السابقة ، ذلك اننا نلاحظ فيه عجز اللغة عن استخراج العناصر الألسنية من مخزنها اللغوي أي من رصيدها الفهرسي وذلك لترجمة الوقائع غير الالسنية التي ظهرت في البلدان التي لها السبق في تسميتها . وفي هذه الحالة ، تكتفي اللغة العربية باقتراض الوحدات الألسنية الأجنبية وتبقيها على حالها من غير أن تزيد عليها شيئاً .

و فضلاً عن هذا وذاك ، إن لائحة المفردات التي اقترضتها العربية ومازالت تقترضها من اللغات الاجنبية ولاسيما الفرنسية والانكليزية منها طويلة جداً . ولن نقدم هنـا إلاّ بعضها تاركين للقارىء مهمة اخراج غيرها من مطالعاته الخاصة .

ومن بين هذه المفردات المقترضة تلك التي يعود معظمها الى مجالات العلوم والتقنيات الحديثة . هنـاك ما يُنـاط باسماء العلـوم وبـالمواد الـكيماوية وبالاجهـزة وبالآليات وبالادوات الخ الخ . . . :

انسولـين ، بنسلـين ، هيدروجـين ، اوكسيجـين ، اوزون ، هيدروليك ، الكترونيك ، كومبيوتر ، مانومتر ، مترو ، باص ، سينما ، كازينو ، فيلـم ، أرشيف ، فيديو ، كاسيت ، تلفزيون ، جيولوجيا ، ديموغـرافيا ، جغـرافيا ، انتروبولـوجيا ، فيزيولوجيا ، مونولوج ، سيناريو ، استديو ، راديو ، اوبـرا ، سمفـونية ، كونسـير ، كلاسيك ، كاريكاتور ، كيلوغرام ، سنتيمتر ، متر ، نيترون ، ميكانيك ، دكتاتور ، برلمان ، ستروفوئيد(منحنى من الدرجة الثالثة في الرياضيات) ، **طبولوجي ، كروم ، غرانيت ، شيست ، كاياك ، كينين ، صويا** . . . الى غير ذلك من المفردات .

ومن الملاحظ ان التعرف الى هذه المفردات المُقتَرَضة يتم مباشرة إذ أن نسـق صوتياتها لا يمت بصلة الى نسـق صوتيات العـربية ، وقلّما يلحـق هذه المفـردات تغيرات صوتية اللهم إلا فيما يتعلق بلفظ بعض الصوائت التي لا وجود لها في العربية مثل é, è, u أو الصوتيات المؤنّفة in, im, un مثلا .

13.3.1.2.3. التعريب Arabisation

رأينا في حالة الاقتراض ان المُفردة المقترضة من اللغات الأجنبية تحُافظ في العربية على متتاليتها الصوتية ، امّا في التعريب وهو لون من الوان الاقتراض ، فان المُفردة تمُنى بتغيرات صوتية الهدف منها جعل المفردة المقترضة تنسجم والنسيج الصوتي العربي . وهذا الاندماج يخضع لأوزان الاشتقاق ونماذجه إذ أن جذر المفردة المُقترضة يُصبح متصاوتاً Homophone (= شبيهاً بالأصوات العربية) والمفردات العربية مما يساعد ويسمح للوحدةالمُقتَرَضة أن تكون قاعدة لخلق جدول اشتقاقي : ان Polymères (صفة مُركبات كيماوية تُشكّل بالتكثيف) أصبحت بَلمَرة وأعطت الفعل بَلْمَرَ والمصدر بَلْمَرَه ، وCathèter غدت قثطر التي منحت الفعل قَثْطَرَ والمصدر قَثْطَرَة و pasteurisé(نسبة الى العالم الفرنسي باستور) اضحت مُبَستَر ، الى جانب الفعل بَسْتَرَ والمصدر بَسْتَرَة .

نضيف الى ما تقدم أن هناك جمُلة من المفردات المقترضة يَشُقُ على غير المتبصر معرفة اصلها ، فيظنها الناس عربية الأصل نحو : تبغ المأخوذة من الاسبانية Tabaco وهذه الأخيرة مشتقة من لغة جزيرة هاييتي Tsibatl ، وتنباك المأخوذة من الفرنسية التي اخذتها من Tambac في اللغة السيامية .

13.3.1.2.4. التهجين Hybridation

عمدت العربية ، فضلاً عما عالجناه من ظواهر فهرسية ، الى نوع جديد من الاقتراض الصرفيمي Morphémique وطوّرته في علوم كثيرة كالطب والكيمياء مثلا . وهذا النوع الجديد هو ما نسميه بالتهجين وهو الذي يمكن تعريفه بأنه محاولة اقتراض فريدة من نوعها تنهض على ترجمة مفردات أجنبية وذلك باستخدام الجذر العربي الذي يدل على جذر المفردة الأجنبية مضافاً اليه اللاحق او السابق الاجنبي ، وغالبا ما تنتمي هذه السوابق واللواحق الى المجالات العلمية والتقنية .

ولقد اعتمدنا شخصيا طريقة التهجين هذه في تعـريب بعض مصطلحـات كتاب فردينان دو سوسير مؤسس الألسـنية الحديثـة ورائـد التيار البنيوي وعنوانـه «محـاضرات في الألسـنية العامـة» ومصطلحــات ألســنية اخــرى(94)، فترجمنــا Phonème (المركبة من Phon الصوت ومن اللاحقème) بِ صوتيم وMorphème بـ صرفيم و Classème بِـ صنفيم Sémantème بِـ دِلاليم ، Virtuème بِـ فَرْضيم الخ . . . في حين يستخدم العاملون في حقل الألسنية عبارات مثل فونيم و مورفيم الخ . . . وتتميز ترجمة كهذه على الترجمة التحليلية المكونة من مفردتين او اكثر انها تقدم قاعدة اشتقاق مشروعة فنقول صَوتيمي و صرفيمي و صِنفيمي الخ . . .(95)

وطريقة التهجين هذه ليست جديدة ، فهي تستعمل في المجالات العلمية ؛ لنأخذ امثلة على ذلك اللواحق ...ine, -ique, -ate في المفردات التقنية thrombine, ferrique, sulfite, sulfate, pepsine, نَر ان العربية تلجأ للتعبير عنها الى الجذر العربي المقابل لِ peps وهو هَضَمَ وتضيف اليه اللاحق ين ine الدولي الذي يدل على مادة كياوية فتصبح المفردة هَضمين ، وقل الامر نفسه بالنسبة الى خِثرين(من خَثَرَ)و حديديك (من حديد) وكبريتيت(من كبريت)وكبريتات .

13.3.2. بُنى المفردات الدلالية

كنا بحثنا في الفقـرة السابقـة ما يعـرف بالوحـدات الفهـرسية معالجـةً عبر جانبها الشكلي ، مظهرين بذلك بُناها الشكلية ويجدر بنـا الآن أن ندور في افـق العلامة الالسنية (اي الكلمة) التي تتميز باتحاد دالها ومدلولهـا معـا بشـكل يأبـى الانفصال .

---

(94) انظر الحاشية رقم2.

(95) ان المصطلحات التي يعصف بها هذا الكتاب مستقاة من معجم ألسني عكفت على أعداده منذ زمن ليس بالقليل وسوف أدفع به قريبا الى المطبعة آملا أن يجد فيه الباحث والطالب الجهاز الاصطلاحي اللازم للّحاق بموكب البحث الألسني بكل ما فيه من اشكالية تجمع بين التجهّم والاشراق .

إن دراسة المدلولات هي غرض ما نطلق عليه اسم الدلاليّة ونعني بذلك La Sémantique (بدل علم الدلالة)(96) ، تلك التي تكون الفرع الثاني من فروع المفرداتية Lexicologie والتي تعرف على انها علم الدلالات Significations الألسنية .

إن ما يواجه الدلالية في وظيفتها هو مشكلة بَنْيَنَة الفهرس (اي وضعه ضمن بُنى) Structuration ، اذ يتعلق الأمر بدراسة بعض المجموعات الفهرسية من حيث بناها الألسنية . وبلغة اخرى إن الأمر هنا ليتعلق باظهار الوحدات الفهرسية التي تشكل هذه المجموعات ، وذلك وفقاً لوظيفتها الالسنية واستخلاص نظم قواعد استعمالها .

13.3.2.1. الحقول الدلالية

إذ نرى ان الوحدات الفهرسية للغة تنتظم بشكل بنيوي ، نطرح فرضية ان بنية هذه اللغة إن هي إلاّ مؤلفة من مجموعات تُقيم عناصرها المكوِّنة علاقات تبعية متبادلة مشكلة ما يسمى بالحقول الألسنية الفهرسية والدلالية : فهرسية لكونها مؤلفة من كلمات ، ودلالية لارتدادها ولإرجاعها الى العلاقة بين الدال والمدلول .

ولدراسة الحقول الألسنية هذه ، ثمة منحيان متميزان : المَعَانية sémasiologie والتسمياتيَّة onomasiologie . فالمنحى المعاني يقوم على الانطلاق من العلامة الالسنية بحثاً عما تدل عليه وتعنيه ، أي بحثاً عن معانيها ، أو قل انطلاقاً من الدال الى المدلولات . أما المنحى التسمياتي فهو ينطلق من المفهوم بحثاً عن العلامات (اي الكلمات) او التسميات التي تعبر عنه .

وهكذا ، فالبحث عن معاني كلمة عَقيقة مثلا يخص المعانيّة ، فمفردة عقيقة تعني :

١ـ الشاة التي تذبح عن المولود يوم اسبوعه

(96) ونترك مصطلح دلالة لـ Signification.

٢ـ الشَّعرُ الذي يولد الولد به
٣ـ ع . البرق : مايبقى في السحاب من شُعاعه
٤ـ خرزه حمراء
٥ـ السهم الذي يُرمى به نحو السماء (97)

اما البحث عن العلامات الألسنية كافة أي الكلمات التي تُعَبِّرُ عن مفهوم ما وليكن مفهوم «الهيمنه» وهي : **سُلطة ، نفوذ ، سطوة ، تأثير ، سلطان ، قوة ، بأس ، أثر ، سيطرة ، سيادة ، قدرة ، تفوّق ، طغيان ، تسلط** . . . إن هذا البحث يدخل في ما سميناه التسمياتية او البحث عن التسميات المختلفة لمعنى واحد . وفي هذا المنحى الثاني ، يقودنا البحث من المفهوم نحو الدوال في حين ننطلق في منحى المَعَانيّة وهو كما ذكرنا البحث عن معاني دال ما من الدال نحو المدلولات .

13.3.2.1.1. المَعَانيّــة

اذا ما ولجنا حقل المعانية وأمعنا النظر في العلاقات القائمة بين مكوّناتـه ، لاستطعنا استخلاص العلاقات الدلالية التالية : وحدانية المعنى ، واشتراك المعاني والمُلافظة او الاشتراك اللفظي .

13.3.2.1.1.1. وحدانية المعنى

يمكن تعريف وحدانية المعنى Monosémie بأنها علاقة ثابتة بين دال ومدلول ، اي ان الدال لايقابله سوى مدلول واحد . ان وقفة عند «منجد الطلاب» في حرف الباء مثلاً تبين لنا ان الكلمات التالية : **بابـور ، بابونـج ، باذنجـان ، بشر ، بادية** ،

/97/ وكانوا يسمّونه في الجاهلية «سهم الاعتذار» فان عاد ملطخاً بالدماءلم يرضوا إلا بالقوَد وان عادَ نقياً مسحوا لحاهم علامة الرضى وصالحوا على الديّة .

بارجـة ، بارد ، باز ، بارة ، بارود ، بازار ، بأس ، باشـا ، باقـة ، باميا ، ببـر ، ببغاء الخ . . . نقول ان هذه الكلمات ذات علاقة ثابتة من حيث علاقـة الشـكل بالمضمون اومن حيث علاقة الدال بالمدلول ، اذ ليس هناك من تعدد في المعاني او لبس فيها لدى قراءتنا او سماعنا هذه المفردات .

وفضلا عن ذلك ، فإن المفردات احادية المعنى إنما تأتي باعـداد كبـيرة من المصطلحية terminologie العلمية والتقنية . وهدف هذه المفردات ازالة كل غموض ممكن وتجنّبه في الخطاب وهذا ما يُرمى اليه في المجالات العلمية والتقنية .

13.3.2.1.1.2. اشتراك المعاني

وبالمقابل ، قد يكون لدال واحد أكثر من مدلول الأمر الذي يدفع بنـا لأن نطلق عليه اسم اشتراك المعاني polysémie . ان الوحدة الفهرسية ذاتها تكتسب ، من حيث المبدأ ، مدلولات مختلفة في فترات تاريخية متباينة .

وفي كتابه «**الموجز في الدلالية الفرنسية**» يستخلص **صموئيل اولمان** /89/ أربعة مصادر تغذي اشتراك المعاني وهي :

١ـ انحراف المعنى

٢ـ العبارات المجازية

٣ ـ التأثيل الشعبي

٤ـ التأثيرات الأجنبية

● ان المثال الاول المفسر لانحراف المعنى يمكن التماسه في مفردة «**عملية**» حيث نستخدمها في سياقات عديدة مثل : **عملية جراحية ، عملية حسابية ، عملية مالية ، عملية عسكرية** ، الخ . . وغني عن القول ان كلمة **عملية** تكتسب معنى يختلف من مثال لآخر .

Samuel Ulmann, Précis de sémantique française, Ed. A. Francke, Berne, 1952, 4 éd. 1969. p.p.200-207 /98/

●إن كلمة «فصل» تقدم لنا مثالا مشرقاً وواضحاً للعبارات المجازية التي اتسع معناها بدءاً من معناها الحسي وصولاً الى معناها المجرّد او لنقل المجازي :

فصل الرأس عن الجسد
فصل طالب من مدرسة
فصل قسيمة
فصل من فصول السنة
فصل كاسد تجارياً
فصل في مسرحية
فصل الخطاب (أمّا بعد)
فصل يوم الفصل (الدينونة) الخ . .

●ويمكن لنا ان نسوق مثالا على التأثيل الشعبي من اللغة الفرنسية ـ فكلمة Souci تعني آذريون وهي صنف من اصناف الزهور مشتقة من اللاتينية Solsequia ، وكلمة Souci تعني كذلك هَمّ وهي منحدرة من اللاتينية من الفعل Sollicitare ، اي حرّك كلياً . اما الناطقون بالفرنسية فيعتقدون ان ثمة صلة بين الكلمتين في حين ان أصلهما يفنّد اعتقاداً مغلوطاً كهذا .

● أمّا التأثير الاجنبي فنلاحظه مثلاً في الفرنسية في فعل réaliser الذي يعني أصلاً : حققّ أي جعل الشيء حقيقياً ، وبتأثير من الفعل الانكليزي to realise صار يعني ابتداءاً من عام ١٨٩٥ تقريباً ادْرَكَ وفَهِمَ زيادةً على المعنى الأصلي .

وهكذا نرى أن كل وحدة فهرسية قادرة على الانتقال من مساحة دلالية الى أخرى ، وهذا ما يُسمى بظاهرة التضمين Connotation في الألسنية الحديثة وهي تقابل ظاهرة التعيين dénotation وهما مصطلحان أخذتهما الألسنية من المنطق السكولائي . فالتضمين مجموعة ـ سمات اجتماعية وثقافية وتاريخية . . . تُضاف الى المعنى الاصلي لكلمة ما عند طائفة لغوية معيّنة . لنأخذ مثلاً اللون الأحمر ، نرَ أنه **يُعَيَنّ في المعنى الفيزيولوجي للكلمة لوناً محدداً يَتَوَجدُ تبعاً لعناصر ثلاثة وهي جهاز البَصر والضوء المُنبعث من مصدرٍ ما والمسافة الفاصلة بينهما . . . لكنّ الأحمر**

يتضمن معاني أخرى ، فهو يرمز الى الخطر مثلاً في الثقافة الفرنسية ، بينما يتضمن معنى الحرية والتحرّر عند الشيوعي الروسي أو غيره (الساحة الحمراء والرايات الحمر . . .) في حين ترى المكارثية (أتباع مكارثي الامريكي في الخمسينات) في الأحمر اشارة خطر داهم على النظام الليبرالي الأميركي برمّته . وقل الأمر نفسه بالنسبة إلى كلمة حمار فهي تُعينّ ذلك الحيوان الاليف من الثدييات . . . غير أنها تتضمن معاني الصبر على العمل أو معنى الغباء عند انسان ذي عقل محدود لا يفهم ما يُقال له (صه يا حمار !) .

13.3.2.1.1.3. المُلافظة

المُلافظة تعبير نُطلقه في مصطلحاتنا على ما يُسمّى بالاشتراك اللفظي homonymie ، وهي آلية لغوية تقوم على اشتراك مدلولين أو أكثر في دالٍ واحد . وعندما يتعلق الأمر بمفردتين يُلفظ دالّـهما بطريقة واحدة ، نقول أننا أمام ما ندعوه مُصاوتة homophonie أي تشابه الصوت أو النُطق في كلمتين . وهكذا نقول مثلاً في الكلمات الفرنسية التالية والتي تكتب بدال مختلف أي بهيئة مختلفة مع الاحتفاظ باللفظ ذاته : Saut قفزٌ Sceau دَلْوٌ، Sot أحمق، إننا ندعوها مُصاوتة ، وعندما تكتب مفردتان أو أكثر بطريقة واحدة ، من غير أن تكون هذه هي القاعدة كما في الفرنسية أو الانكليزية ، نكون أمام ما نُسميه بحالة المُكاتَبَة homographie إنّنا نَدْعو الكلمات الفرنسية le faux أي الخطأ وla faux أي المَنْجَل مُكاتبة homographe ، وكذلك هو الأمر في المثال التالي :

les fils de Sami أي أبناء سامي وles fils de laine أي خيوط الصوف وكذلك هي الحال في الانكليزية meat أي لحمٌ وmeet أي صادَفَ .

وبالطبع لقد وصف العرب القُدامى هذه الظاهرة الفهرسية واطلقوا عليها اسم المشترك أو الاشتراك اللفظي وعرّفها صاحبُ «المزهر» أنها «اللفظ الواحد الدال

على معنيين مختلفين فأكْثـر دلالة على السواء عند أهل تلك اللغة» (99) . ونضربُ مثالاً على ذلك كلمة عين في :

التهاب العين
راق في عين فلان
نَظَر بعين الاعتبار
عين الحق
عين الماء
عين السحاب
عين المال
الخ . . .

التَسْمياتيّة 13. 3.2.1.2.

ربما كان مصطلح onomasiologie الـذي ندعـوه التَسْـمياتيّة من أقـل المصطلحات التي تواجهنا في الألسنية على الرغم من أن ولادته ليست حديثة بل ترجع الى بداية القرن العشرين . ان التسمياتية تعني قبل كل شيء الحقول التي ننطلق فيها من المدلول الى الدوال ، وهي تُسعفنا في استخلاص العلاقات والروابط الدلالية التالية : الحقول الترابطية champs associatifs والأخرى الجنسية génériques وفي هذه الأخيرة يمكن التحدث عن الترادف والتضاد والتضمن .

وسوف نحاول فيما يلي اعطاء فكرة عن كل واحد من هذه المفاهيم التي مررنا بها .

(99) السيوطي ، المزهر في علوم الدين ، ص ٣٦٩

آ ـ الحقل الترابطي

ليست اللغة مكونة من عناصر متغايرة بل من أخرى **تمتح قيمتها** من مواضعها البنيوية . وقد أضاء سوسير في «**محاضراته**» هذا الجانب حينما قال : «ان **قيمة** أية عبارة انما هي محددة بمحيطها»(100) وهذا المبدأ يتأتى من مقارنة مجموعة كلمات ذات معنى واحد تقريبا . وهو ـ سوسير ـ يزيد قائلا : «وضمن لغة واحدة ، ان جميع الكلمات التي تعبّر عن أفكار متشابهة انما يحدد بعضها بعضا ، وليس لمترادفات مثل craindre, redouter avoir peur أي **ارتابَ ، خشي ، خافَ** ، من قيمة خاصة إلاّ في تقابلها ، فاذا كانت redouter غير موجودة توزّع مضمونها كاملاً على مثيلاتها» (101) ان هذا المبدأ يدفع بنا للقول أن ليس هناك تعادل بين قيمة عبارات متماثلة في لغات متباينة .

هذا ، وفضلا عن سوسير ، فقد ألّح شارل بالي Charles Bally الى الحقل الترابطي حينما عرّفه : «بأنه هالة تحيط بالعلامة وتمتزج أهدابها بما يحيط بها»(102) ان الحقل الترابطي يتكون اذا من مجموعة الفئات الترابطية لعبارة ما ، أو لمجموعة عبارات . وهكذا ، فنحن إذ نذكر كلمة ثور مثلا ، نتصور في الوقت ذاته كلمات أخرى مثل **عجل ، بقرة ، قرون ، اجتر ، خارَ ، حراثة ، محراث ، نير ، فدّان ، لحم ، مسلخ ، ملحمة** ، أفكار **قوّة ومقاومة وصبر على العمل الخ** . . الى غير ذلك من كليم المتفرق الذي يمكن لذاكرتنا أن تصدع به .

ب ـ الترادف Synonymie

يحدّد الترادف بكونه علاقة دلالية تنهض على التشابه في المدلول بين دالين أو

---

(100) «محاضرات في الألسنية العامة» ص ١٤١ من الترجمة العربية ، أ . حاشية رقم2

(101) المرجع نفسه ص ١٤١

(102) «اعتباطية العلامة» ، مجلة La Français moderne ، ١٩٤٠ ، ص . ص ١٩٣ ـ ٢٠٦

أكثر . هذا ، وقد يتفق أن يكون الترادف كاملا أو ناقصا ، غير أنّ تطبيق اللغة الفعلي يبين صعوبة الوقوع على مترادفات تامة . إن الافعال التالية : **ظلَّ ، مكث ، بقي ، أقام** ليست دائما مترادفات ، وان قدر لها أن تكون كذلك فان السياق الذي تقع فيه هو ما يحدد كونها مترادفات أم لا .

ولا ينظر لكلمتين اثنتين على أنها مترادفات إلاّ إذا كان لنا أن نبدل الواحدة بالاخرى في السياقات كافة الممكن أن تتواجدا فيها . وتجدر هنا الاشارة الى ما يمكن ان نسميه **نظير الترادف** Parasynonymie وذلك في حال عدم تطابق كلمتين مع بعضهما تطابقاً تاماً وعدم القدرة على ابدال احداهما بالاخرى في المواضع الجُملية كافةً . واذاتعذرت مثل تلك العملية- الابدال - فإن هذايعود الى القيود الاجتماعية الثقافية التي يُقدّر للسياق ان يُعنى بها ، كحال الكلمات **بطن ، كرش** ، أو الاخرى التي تخضع لسياق عاطفي مثل **ضئيل ، بسيط** .

ج - التضادّ antonymie

تبني هذه العلاقة معاني متضادّة بين علامتين ألسنيتين ، ويمكن ان نتبينّ ثلاثة نماذج ضمن مفهوم «الأضداد» addad . فثمة أولاً العبارات التي تقبل التدرج وبالتالي جميع علامات المقارنة وأفعل التفضيل والمفاضلة مثل **جميل : أجمل ، جميل جداً . . . أو قبيح ، أقبح ، قبيح جداً** . وهناك ثانياً عبارات التكامل الذي يميّز الوحدات المتقابلة فيما بينها والتي لا تقبل مثل ذلك التدرّج مثل : **ميت/ حيٌ** فلا يمكننا القول : **ميت جداً** مثلاً . ونقول عن زوج وحدات انه مُكمّل عندما يتضمن نفي الوحدة الاولى منهما توكيد الثانية كقولنا : **انثى وذكر** . وهناك اخيراً علاقة التبادل التي تفترض علاقات عكسية أو فكرة مقايضة تتم في آن واحد من العبارة الاولى الى الثانية ومن هذه الاخيرة نحو الاولى مثل **اشترى/ باع ، ذهب/ أتى ، صَعَدَ/ نزلَ** ، الخ . . .

د ـ التَضَمّن hyponymie

نُطلق مُصطلح تَضَمَّن على الكلمة ـ وتُسمى في هذه الحالة مُتَضَمِّنة hyponyme ـ التي تكونُ مكونات مدلولها أكثر نوعية من مكونات كلمة أخرى تسلسلا . إن كلمات **بنفسج ، شقائق النعمان ، سوسن ، نرجس ، ورد ، زنبق ، خشخاش ، ياسمين ، قرنفل** . . . انمّا هي **مُتَضَمِّنات مُشاركة** co-hyponymes وهي في علاقة تَضَمُّن قياسا الى كلمة زهرة التي تمثل **المتضمن الأعلى** hyperonyme . وبدورها ، فان كلمة زهرة تنضوي في علاقة تَضَمُّن قياساً الى كلمة نبات التي تدلّ على علاقة نوعية أكثر شمولية . وهذا يذكّرنا بالتمييز المعروف في الفلسفة بين نطاق extension المفهوم ومدلوله compréhension .

13.4. المعجميّة La dictionnairique

نريد بالمعجميّة تقنية صناعة المعاجم وتحليلها الألسني . وإذا رغبنا في تقصّي تاريخها وجدناه يرتد الى بلاد سومر وحضارتها ، إذ أن شعوب تلك البلاد قد كانت ـ حسب معلوماتنا الحالية ـ صاحبة السبق في هذا المضمار الألسني . ولنا فيما صنعه الآشوريون قبل الميلاد بستة قرون ، وما قام به الصينيون حوالي قرن ونصف القرن قبل الميلاد أيضاً دليل واضح جلي على ما نذهب إليه . غير أن العرب(103) ـ والحق يقال ـ قد عرفوا هذا الطراز الألسني وخاصة على يدي الخليل بن أحمد الفراهيدي اذ كان معجمه «**العين**» أوّل خطوة في هذا المجال ، وهم بهذا قد سبقوا الأوروبيين في صناعة المعاجم ، ذلك ان الاوروبيين وخاصة الفرنسيين لم يحظوا بلقاء مع المعاجم إلاّ مع روبير استيين R.Estienne الذي كان اوّل من وضع معجماً ثنائياً بين اللغتين الفرنسية واللاتينية وكان ذلك عام ١٥٣٨ .

---

(103) من جملة اسباب تقصير العرب في وضع المعاجم اعتمادهم اللغة المحلية رئيسياً والآثار الأدبية الشعرية في تفسير ما أشكل عليهم من لفظ وما استغلق من معنى ، وخاصة من ألفاظ القرآن ومعانيه . .

لا نريد في هذا المقام أن نؤرخ للمعاجم ولا لتطورها ، ولكن همّنا الأول والأمثل يكمن في كشف السمات الأساسية التي يتحلى بها المعجم .

13.4.1. المعجم : سماته

كان لتطوّر الألسنية الحديثة ولا سيا اطارها المفرداتي lexicologie اثركبير ذو بال في ارتقاء وتبلور الممارسة المعجمية حتى إنها وصلت الى حيز لامع سمح لها أن تتخذ مكاناً بين العلوم على تباينها . بل نستطيع القول إن المعجمية غدت علماً له منهجه ومذهبه. ولكن السؤال الذي يعترضنا هناهو ما السبيل الى وصف المعجم وهو النِتاج القادر على سدّ حاجات الناس على الصعيد الاعلامي والتواصلي ؟ اجابة عن هذا السؤال فإننا قادرون على مسح إجابتنا عبر تصورات ثلاثة للمعجم ، وهذه التصورات يمكن ان نتمثلها على النحو التالي :

13.4.1.1. المعجم : أداة عمل

يطمح المعجم الى تقديم المعرفة اللازمة ألسنية كانت أم علمية وذلك لترميم وسدّ ما يجده رواد المعرفة من قصور في تواصلهم . ومن هذا الجانب ، يتبدّى المعجم واسطة اكتساب معلومات أو لنقل اكتساب زادٍ معرفي أو للتحقق من سلامة المادّة اللغوية المستخدمة ، اذ يقودنا أخيراً الى استلهام ثلاث وظائف هي : ألسنية ، وشارحة ، وخارج ألسنية .

13.4.1.1.1. المعجم : وظيفته الألسنية

يرمي المعجم من حيث وظيفته الألسنية الى تحقيق هدفين اثنين : الترميز اولاً وفكّ الترميز ثانياً . إن الأوّل ـ الترميز ـ إنمّا يتمّ متحققاً في بحثنا عبر صفحاته وطياته

عن تفسير كلمة ما لسنا مطمئنين الى معرفتنا عنها . ولهذا ، فإنه يقدّم لنا ، عبر استشارتنا إياه كل المعاني التي تدور حول كلمة محدّدة . امّا الثاني ونقصد به فكّ الترميز فينهض على السعي الى المعجم بغية التحقق من كيفية استخدام كلمة ما استخداماً قواعدياً سلبياً . هذا ، واذا كان المعجم في هدفه الأول وصفياً فلنا اعتباره في هدفه الثاني معيارياً .

13.4.1.1.2. المعجم : وظيفته الشارحة

ربّما كان الفضل يعود الى رومان جاكسون في وقوفه وشرحه هذه الوظيفة (أ .5.2.5) إذ أنها تمثل احدى وظائف اللسان الجوهري . فالمعجم في هذا النطاق يفيض في هذه الوظيفة الشارِحَة métalinguistique . وما هو غير خطاب (اي تفسير) يدور حول المُسَمّى . وهو كذلك خطاب يدور حول العلامة الألسنية ، وبعبارة اخرى ، انه خطاب شارح للكلمة .

13.4.1.1.3. المعجم : وظيفته خارج الألسنية

امام هذه الوظيفة اللصيقة بسمات المعجم ، نستطيع القول ان مهمته هنا تكمن وتدور حول كل الأمور والاشياء والرؤى التي لا ترقى أبداً الى افق اللغة او تتصّل بها ، ولهذا ، فإن وظيفته هنا تتجلى لنا موسوعية شمولية .

13.4.1.2. المعجم : شاهد على ثقافة

واضافة الى هذا الجانب الاستشاري ، يوحي لنا المعجم بل يؤكد أن في طوقنا

النظر اليه من حيث كونه شاهداً أميناً للغة وذلك عبر صيانته وخزنه لاستعمالات المفردات عبر عصره . وهو من هذا الجانب ليُقدر ارشيفاً حافظاً لكنز اللغة بكل ما يستعمله الناس منها . ومن هُنا ، يتبدى لنا مرّة اخرى «المكان الأفضل في الإرجاع الى العلم والمعرفة الألسنية والثقافية» (104) .

13.4.1.3. المعجم : نتاج مصنوع

يمكن لنا أن نزيد على ما قدّمنا من سمات المعجم سمة جديدة اخرى وهي ، في منظورنا ، نتاج تجاري وصناعة تقنية . وما هذا إلاّ لكونه يساهم في صناعة الكتاب ويخضع للقيود الاجتماعية والاقتصادية للنشر والطباعة . ومن هذا المنطلق ، فإن التطور العلمي والتقني معاً قد دفع بصناعة المعجم لتكون نزوعاً الى استخدام مكتسبات جديدة . وقد ساعد على ذلك المعالجة الآلية للاعلام التي شرعت له آفاقاً جديدة .

13.4.2. أنواع المعاجم

بفعل معايير ثلاثة يبدو لنا أننا امام أنواع معجمية ثلاثة :

13.4.2.1. لغة مصدر/ لغة هدف

إن طبيعة اللغة مصدراً وهدفاً هي ما يميّز النوع المعجمي الأول . فاذا تباينت

(104) Jean et Claude Dubois, Introduction à la lexicogaphie, Larousse, Paris, P.8

اللغتان كالفرنسية والعربية فنحن أمام معجم ثنائي اللغة (او متعدداللغات) . أمّا اذا اقتصر المعجم على لغة واحدة ليس غير ، فإننا ، والحالة هذه ، أمام معجم أحادي اللغة .

13.4.2.2. المعلومات حول مداخل المادّة

إن المدخل يعني قبل كل شيء أوجه المعاني التي تتّسم بها وحدة ألسنية ما . فاذا ما سعى المعجم مثلاً الى تفسير المعاني التي تنتقب بها كلمة جَلدٌ فإنه يكسرها على مدخلين اثنين ، واضعاً أمام المدخل الأول المعنى المعجمي الأوّل للكلمة وهو هنا السماء ، كما يضع أمام مدخل الكلمة الثاني ما يناسب المعنى الثاني أي الصقيع .

إن هذا المعيار المعجمي القائم على نوعية المعلومات أو المعرفة المنوطة بالمداخل إنّما يميّز بين معاجم الكلمات dictionnaires de mots ومعاجم الأشياء d.de choses ففي الأول ، نجد أن كلمات مدوّنة المعجم nomenclature تحلّل من حيث كونها مواد اللغة اي كلماتها التي تدفع بنا الى المعلومات الصرفية والنحوية والدلالية . امّا في معاجم الاشياء ، فنحن أمام شيء آخر مخالف للأول ، اذ أنّ هذا الضرب من المعاجم لا يتناول الكلمات (= الدوال) إلا ليقدّم من خلالها معلومات حول الاشياء . ويسمى النوع الأول معجم اللغة والثاني المعجم الموسوعي .

13.4.2.3. كثافة المدونة

هذا نوع من المعايير التي تجعلنا نقف أمام نوعين اثنين من المعاجم : الاولى ندعوها بالمعاجم الواسعة extensifs والأخرى بالمعاجم المقيّدة restrictifs . إن الاولى تجنح الى محاولة مطابقة مدوّنتها ومجموع الوحدات الفهرسية التي تختزنها اللغة ، في حين يقيم النوع الثاني اختياراً وانتقاء ضمن هذا الكل .

13.4.3. وصف المعجم

إن الأمر هنا حبيس بمعالجة المعجم الأوروبي اياً كان نوعه ، ذلك أن معرفتنا بالمعجم العربي قد تدفعنا للاعتقاد بأن المعاجم الأوروبية مبنية ، مثلاً ، بالطريقة ذاتها تلك التي يقوم عليها بناء وهيكل المعجم العربي ، اذ أن الأمر ليس كذلك ، فالمعجمان مختلفان قليلاً من حيث المعلومات التي يحتويها أو يقدمها كل واحد منهما . لتفسير هذه الظاهرة نسعى الى الوقوف أمام مادة كلمة اجنبية لنرى كيف يقدّمها المعجم . إننا ولا شك سوف نحظى بالمعلومات التالية :

ـ المادّة ـ العنوان : vedette ونعني بها الكلمة التي يحدّدها المعجم ويعرّفها ثم يصنّفها عادة تصنيفاً الفبائياً .

ـ الاستنساخ الصوتي transcription phonétique ويقابله في العربية الى حد ما التحريك . وهو يعني في اللغة الاجنبية كالفرنسية او الانكليزية طريقة لفظ المادّة بحسب الابجدية الصوتية الدولية (أ . 11.3.5) وهي طريقة مُتعارف عليها كونياً .

ـ الفئة النحوية : catégorie grammaticale وتسعى الى توضيح المادة نحوياً : أهي اسم مذكر ام مؤنث ، مفرد ام جمع ، اسم ممنوع من الصرف ، صفة ، فعل ، ظرف ، حرف جرّ الخ . . . .

ـ التأريخ : datation ويرتّد بنا الى شهادة ميلاد الكلمة المزعوم ، فيبينّ تاريخ ظهورها لأوّل مرّة في محفوظات اللغة وكتبها . وهذا التأريخ يتّم عبر الوثائق الكتابية التي تظهر فيها الكلمة بكراً ، فهو من هذا الجانب كفيل وضمان للدراسة العلمية للمفردات .

ـ التأثيل : étymologie وهو الرجوع بالمادّة اي الكلمة الى أصلها الأول الذي صدرت عنه . ان كلمة diminuer في الفرنسية وتعني : قَلَّلَ ، خَفَّضَ ترقى الى عام ١٢٦٥ وهي مشتقة من مصدرها اللاتيني الذي هو الفعل diminuere الدال على : حَطَّمَ ، قَطَّعَ إرباً إرباً .

ـ المدخل : entrée قد يتبع المادة مدخل او أكثر وذلك بحسب ما يفرضه معنى الكلمة ، وذلك من حيث معناها الحسّي او المجرّد . إننا نعني بالمدخل هنا ترتيب وتصنيف معاني الكلمة ودلالاتها بفعل ما يفرضه السياق الذي تدخله ، مبينين بذلك معانيها واستخداماتها من خلال الأمثلة الموضحة للفكرة . وهي أمثلة مستقاة من آثار الادباء او من صنع صاحب المعجم .

هذه هي جملة السمات التي نقع عليها في المقال المعجمي article ونعني به كل ما نقع عليه من معلومات تُفسر وتشرح المادة أصلاً ومعنى وتطوراً .

▲ ▲ ▲

14. عناصر في النحو

14.1. النحو التقليدي

اتفق أهل اللغة على أنّ النحو هو جزء من القواعد يهدف إلى وصف جملة القوانين التي تتعاضد بفضلها الكلمات لتكوين الجملة ، كما يشكل دراسة العلائق المتواجدة في الأشكال الألسنية أي الكِلم التي يتكوّن منها الخطاب discours . وهذا التعريف الذي قلنا به هنا تقليدي من الطراز الأول ، وإذا كان كذلك فهو يقيم ما يعرف بالتقابل بين النحو هكذا معرفاً ، والصرف أو دراسة صيغ الكلمات منفردة ومنعزلة عن علائقها التركيبية في الجملة بحسب الانماط القواعدية وأقسام الكلام المنطوية تحت فيئها : اسم ، فعل ، صفة ، ظرف الخ . . . .

لا شك أن تطور الألسنية في القرن العشرين قد أطلق شيئاً من الاحكام النقدية حول النحو التقليدي، بتقسيماته التي رأينا قليلاً، وهذا النحو مبني على مفهوم أقسام الكلام التقليدي ، وهو ينظر إلى الكلمات على انها ماهيات مستقلة ولا يأخذ في الحسبان العلائق القائمة بينها . ولكننا نزيد على هذا أن المنطق اليوناني قد نظر إلى الكلمات من حيث وظائفها في التقابل الثنائي التالي : مسند/ مسند إليه ، (أو مبتدأ/ خبر) . وهكذا نرى أن الاسم مثلاً انمّا يحتلّ وظيفة الفاعل أو المسند إليه والفعل وظيفة المُسند Prédicat .

إن هذه الوظائف إنمّا يتمّ تحديدها قياساً إلى عبارات منطقية ـ دلالية logico-sémantique : فالفاعل هو من يقوم بالفعل ، وأمّا المفعول فهو ما يقع عليه الفعل . **إن هذه النزعة الدلالية التي يُعملُ من خلالها ويُبنى عليها المنطق والنحو معاً تمنح** النحو منحى يُفسرّ العلاقات الدلالية الكامنة في البيان énoncé أكثر مما يحلّل

وحداته . كما يرمي هذا النحو إلى البحث عن نظام داخل اللغة ذاتها حتى ولو كان مثل هذا النظام مفقوداً . وعلى كلٍ ، فإن نماذج الاقتصاد في العناصر الألسنية تُفَسرً بإضمارها ، ثم تُعاد عبر توسع منطقي كما نلمح ذلك في المثال التالي المأخوذ من الفرنسية :

«Cettemerveillequ'est ton corps, cette plus étonnante encore , ton esprit» (André Gide)

إذ تردم هوة النقص **بتكملة الجُملة** :

«هذه التحفة التي هي جسدك ، وهذه الأكثر دهشةَ التي هي فكرك» (اندريه جيد) .

أمام هذا المثال ، إن النحو التقليدي يعمد إلى اتمام النقص في العناصر باضافة «وهذه **التحفة** الأكثر دهشة التي هي فكرك» والبحث عن مثل هذه التنظيمات المزعومة ينأى بالقواعد عن هدفها الأساسي وهو : تصنيف الوقائع الألسنية واضعاً اياها في منظور معياري قوامه الالماح إلى طريقة ضمّ الكلمات لتكوّن فيما بينها الجُمل السليمة .

هذا من جهة ومن جهة أخرى ، فإن دائرية Circularité التعاريف الدلالية ـ ونقصد بها تلك التي تنطلق من تعريف إلى آخر لتعود بنا إلى التعريف الأول ـ ورفضها للتطابق عبر التطبيق على جملة عبارات كان لا بدّ لها أولاً أن تطبق عليها يعزّز حجم الغموض واللبس بل يزيده أيضاً . فإذا ما عُرف الاسم بأنه ما يشير إلى الشخص أو الشيء أو المكان فإن هذا الأمر يصبح قلقاً مضطرباً إزاء وقوفنا أمام كلمات من مثل «**بياض**» ، «**عدالة**» ، «**جمال**» . إننا والحالة هذه محاصرون بالقبول بأن الأمر منوطهنا بأشياء ، وذلك لكونها اسماء ، وفوق هذا ، إننا إذا ما قدرنا كلمة «**بياض**» في حدّ ذاتها فإنها تدعونا للتساؤل عن شرعية ما يميّز الاسم عن الصفة (يُعرّف البياض بصفة ما هو أبيض ، والأبيض بما يتمتع بصفة البياض) .

ولكن ، كيف نميز بين النحو والصرف ؟ إن امراً كهذا لا بّد ، في رأينا ، أن ينهض على ادراك حقيقي واضح لمفهوم الكلمة ، وبأكثر دقة على الدراسة التأثيلية للكلمة . ذلك أن تمحوراً كهذا الذي نرى إنما يتمترس في الكلمة نفسها وهو وحده

القادر على المساهمة في جعلها الوحدة الأساسية في الدرس القواعدي ، الأمر الذي أفضى أخيراً وبرؤية سليمة إلى عكوف التفكير على معنى الكلمة ودلالتها ، وذلك على حساب دراسة بنيتها وعلاقاتها والكلمات الأخرى .

هذا شيء وشيء آخر لا بدّ من الوقوف ازاءه وهو أن التمييز بين الصرف morphologie والنحوsyntaxe يثير زوبعة من التحفظات الخطيرة ، بفعل ان الكلمة قد خرجت عن طور وصفها الوحدة الدلالية الاساسية . وممّا يثري معالجتنا هذه جملة التساؤلات التي ولدّتها تلك التحفظات مثل : الكلمة وحدودها ، الكلمة والتركيب ، وبمعنى آخر ، ما الكلمة ؟ وأين نضع الحدّ الفاصل الشكلي بين الكلمة والتركيب (أنظر المفرداتية ص ١٧١) . وزيادة في الايضاح نجد أن من الخير لنا أن نلجأ إلى شيء من الجُمل التي تبينّ ما نقصد إليه من بيان . إن الجملة الفرنسية التالية :

Les parisiens sont partis en vacances

»(أي «ذهب الباريسيون إلى العطلة») تشتمل من وجهة نظر النحو التقليدي كلمات ست . ولكننا مع ذلك نجد أنفسنا في حيرة أمام ما يشبه الصيغ التالية مثل : sont partis وهي صيغة الماضي المركب الفعلية والمكوّنة من كلمتين مقارنة ومقابلة بصيغة المستقبل partiront (أي «سيذهبون») وهي صيغة واحدة عصية على أي تجزيء .

إن مبعث هذا الاضطراب الذي يواجهنا يكمن في أن القواعد التقليدية تخضع لوحي التصورات الألسنية للقواعد اليونانية ، إذ أن هذه الأخيرة قد تشكلت وتبلورت تحت ضوء المقولات الفكرية المنطقية تلك التي يعزّ على أهل اللغة اليوم القبول بها في وصفهم للغة أياً كانت . وذلك أن الجملة بوصفها الوحدة الثانية بعد الكلمة في النحو التقليدي ستجد نفسها متموضعة في مستوى المنطق ومشبهة بالمقولة المنطقية ، أي أنها ستظل هي ذاتها بمثابة تعبير عن حكم ما .

إن القواعد التقليدية تتميّز فضلاً عماّ تقدم بنزعة تجريبية ولدّها أولاً اهتمام استثنائي أو يكاد أن يكون كذلك ، تبديه نظرة هذه القواعد إلى الوقائع متموضعة في مستوى المعاينة المباشرة ، وجسدّها ثانياً تشكل منظومة تصورات عامّة ، وهي

منظومة مستقلة عن بنية لغة ما . إن ما يمثل هذه النزعة ويبلورها تصوّر الشموليات الألسنية universaux linguistiques أو تصور أغراض لنا أن نستنتجها بدءاً من خصوصيات بنية الفكر المنطقية .

هكذا نجد إذاً أن تصنيف الكلمات الدلالية (وهي ما يمكن أن يُقابل الكلمات القواعدية مثل الأدوات والحروف) إلى فئتي الاسم والفعل ، إنّما يُعلن عن جموحها في البحث عن منظومة عامة للتصورات الألسنية .

نزيد على ما تقدم أن ما يعصف بالنحو التقليدي من نزعة تجريبية يترجم في تحليلها السمات الخاصة لا العامة لما تدرس من أغراض . وبلغة أخرى ، يمكن القول أنها تضرب جانباً بمكانة وجدوى السمات العامة للوحدات الألسنية مثل الكلمة ومجموعة الكلمات والجملة . إن هذه النزعة التجريبية تتبدى باشراق في رفض هذه القواعد لعلم الدلالة في المعجم (وهو المكوِّن الثالث للغة مصاحباً القواعد ووسائل التعبير الماديّة) . إن الوصف الدلالي هذا يتقلّص جوهرياً كتمييز مغلق الأبعاد لكلمات مدروسة بشكل مستقل عن علاقاتها المتبادلة والمتعاقدة في الجملة . وأياً يكن من أمر هذه النزعة فإننا نأخذ بما قال به سوسير بلا تردد أو حذر إن هذا الوصف مرفوض كلياً ولا مكانة له اليوم ، ذلك أن الكلمات تقيم فيما بينها شبكة علاقات على محوري التركيب والاستبدال (**انظر** 9.3.3) .

وعلى كلٍ ، إن التمييز بين النحو وعلم الدلالة يبعد كل البعد عن الوصف الدقيق الجاد ، ولهذا فهو يسعى بنا لأن نفكر في أن اللغة تعمل بشكل بسيط لا تعقيد فيه ولا غموض ، وبأن وصفها كاملة وبصورة شمولية أمر ممكن . غير أن هذا الغموض في رسم المجالات وتحديدها يصدر عن عمليات تبسيطية وهفوات ترفض كلياً ولا مجال لتسويغها . وإذا ما أردنا مثالاً حياً على هذا الغموض والابهام فإننا واجدوه في تصنيف القواعد التقليدية «مفعول المكان» انطلاقاً من المكان الذي نحن فيه : je suis à Paris «أنا في باريس» أو المكان الذي سنذهب إليه : Je vais à Paris «سأذهب إلى باريس» ، أو المكان الذي نأتي منه : Je viens de Paris «أنا قادم من باريس» أو المكان الذي نمّر به : Je passe par Paris «أمُرّ بباريس» . لا شك أن هذا التصنيف المأخوذ عن اللاتينية يستند إلى صوى دلالية . فالمعنى العام والكليّ لكلٍ

من هذه الأمثلة لا يستخرج رئيسياً إلاّ من الفعل لا من «المفعول الدال على المكان (نعني من الاسم المجرور) .

إن ما تقدّم هنا يحفز للتساؤل عن شرعية هذا التصنيف النحوية ، ذلك أن اسم المكان في مجموعة الأمثلة إنّما يرتبط بحرف جر نعني بعنصر ذي طبيعة واحدة وهو اضافة إلى ذلك عنصر يذكر مكرراً في حالتين اثنين à Paris .

14.2. النحو البنيوي

إذا قُدِّر للقواعد التقليدية أن تقع تحت وطأة جملة من العيوب والمثالب ، فإنها ، والحق يقال ، قد عرفت بعض الجوانب الايجابية التي لا تخلو من جدوى ونفع .

يجب التذكر دائماً أن هذه القواعد قد اعتصرت عبر زمن سحيق كوكبة من الملاحظات والتحليلات المرتبطة بالوقائع اللغوية ارتباطاً قوياً ، غير أنها مع ذلك ظلت جزئية وموضعية . إنها لا تصف مثلاً النماذج المختلفة للآليات المسيرّة للغة . وأمام هذا القصور نجد أن الألسنية الحديثة تدلف مجال البحث اللغوي لتسبر عمقه وتكتشف جوهره راصدة بذلك المنظومة اللغوية بكل أبعادها .

لقد كان لكتاب فردينان دوسوسير «**محاضرات في الألسنية العامّة**» وما أودع فيه من المبادىء اللغوية ثورة حقيقية تدميرية عصفت بكثير من التراث اللغوي التقليدي . وبظهور هذا الكتاب ظهرت الألسنية البنيوية متبلورة في جملة من التيارات الألسنية ، متمظهرة تحت أبواب المدارس البنيوية (التوزيعية le distribution nalisme ، الوظيفة le fonctionnalisme ، والليسَانيمية La glossématique .

لا نريد هنا أن ندخل في شبكة هذه المدارس البنيوية ، ولكن حسبنا أن نقول إنها جميعاً تفترض وتطرح نموذجاً ألسنياً واحداً : فلكل لغة بنيتها الخاصة بها تعبيراً ومحتوى والتي لا يمكن إرجاعها أو ردّها إلى غيرها من اللغات . ثم إن اللغة تكونها

جملة عناصر اعتباطية متعاقدة في منظومات تحدّدها وحسب العلاقات التي تنهض بها العناصر المكونة .

إن ما يتميّز به النحو البنيوي يمكن أن نردّه إلى عملية رفض ثلاثي الشكل يتعارض والتأكيدات التي بُني عليها النحو التقليدي :رفض للإضمار ellipse ، ورفض للنزعة الدلالية ، ورفض للتمييز بين الصرف والنحو .

لا شك أن كتاب ليونار بلومفيلد «اللسان» (105) هو النموذج الأول والأوفى للنحو البنيوي ، وهو ذو تأثير كبير في جيل كامل من الألسنيين الاميركيين ، كما أنه عبّد الطريق أمام المدرسة البنيوية الاميركية عبر اتجاهين اثنين : الأول ، وهو ما يعرف بالمنهج التوزيعي ، والثاني بمنهج المكونات المباشرة Constituants immédiats .

هذا ، وإذا ما أردنا أي نبحث عن التطور الذي مُنيت به الألسنية الأميركية قلنا أنه يماشي في نقاط عدة تطور الألسنية الأوروبية. فالألسنية الاميركية تجمهر تفكيرها نظرياً حول لغات قليلة الوصف إن لم تكن مجهولة في حين أن الألسنية الأوروبية قد التمست في النموذج الهند وأوروبي محوراً لدراساتها الألسنية جملة وتفصيلاً .

14.2.1. النحو التوزيعي

14.2.1.1. المبادىء النظرية

لقد تميّز هذا اللون النحوي باتخاذه منهجاً تحليلياً خاصاً به ، وتقنيةً ترسم معالم وحدته منطلقة في ذلك من المبادىء الأساسية التالية التي تشكل في وقت واحد بعضاً من سمات اللسان الأساسية .

---

(106) وترجمته الفرنسية . L- Bloomfield, Language, New York, Holt, 1933 Le Langage, Paris, Payot, 1970

14.2.1.1.1. سِمة العناصر التمييزية

بداية ، يطرح التحليل الفكرة التالية وهي تكمن في أن العناصر المُشكلة للبنية الألسنية إنمّا هي مقاطع تمييزية تلك التي نجد ملامحها بحزم وتأكيد عند سوسير . إننا لنتعرف عبر الاستمرار الفيزيائي لتدفق الكلام على تلك العناصر التي أخذنا بصفتها التمييزية éléments distinctifs بتقطيع segmentation نرمي إليه عبر الكلام ذاته ؛ وهذا التقطيع أيضا هو الذي يدع مجالا لتقسيم البيان énoncé إلى وحدات تميي!ية تمثل كل واحدة منها صرفيا morphème .

14.2.1.1.2. اعتباطية العناصر وخطيّة انساقها

ليس جديدا أن نقول إن الرابط بين العناصر القواعدية وما ترمز إليه من أشياء هو اعتباطي اصطلاحي (أ . 6.2.1.) «فما يفرض معنى ما لعناصر معينة إنمّا النمط الذي تتموضع فيه نماذج الانساق combinaison المحتوية للعناصر ذاتها ، ثم إن الاختلافات الدلالية لعنصر ما إنمّا تتولد من تباينات في محيطه environnement الألسني .

إذا ما عرفنا هذا الذي تقدم هنا ادركنا كيف يمكننا تحديد توزيع distribution العُنصر ، إذْ أننا ننطلق في ذلك من هذا المحيط أو السياق contexte المتشكل مما يسبق العنصر أو يليه . فمحيط العنصر آ أو لِنَقُل سياقه هو طريقة تنضيد العناصر المتموضعة المحيطة به عبر نقطة من الجملة وصولاً إلى تشكيل البيان .

وفوق هذا ، إن البيانات المتوالدة والمنبعثة عبر صفتها التركيبية من عناصر متميّزة لتنتظم خطياً (أ . 6.2.2.) . ومن هنا نستطيع القول إن متتالية صوتيات تؤلف صرفياً ، وأخرى من الصرفيات تشكل تركيباً ، وثالثة من التراكيب تولّد جملة وهذه الأخيرة تكوّن في تتابعها ما يُعرف بالخطاب discours .

14.2.1.1.3. سمة الانساق المنهية

إنّ ما تعنيه وتقرره هذه السمة إنمّا هو كون العناصر القواعدية تشكل مادة مغلقة أو لنقل منهية ، فضلاً عن أنها تبينّ أنه إذا كان تطبيق القواعد أو القوانين rules,règles مكرراً récursif ممكن إلى أبعاد لا انتهاء لها ـ وهذه سمة التكرارية récursivité ـ فالجملة إذاً متتالية منتهية Séquence finie تكونها عناصر تمييزيّة .

13.2.1.1.4. حصر الأنساق

إن قواعد لغة ما تُبنى بفعل عدد محدد محصور من انساق عناصر ألسنية ليس لها حرية كاملة في تموضعها أو تنضيدها في الجملة . وهذه القيود restrictions تُسهم في تحديد العناصر القواعدية . إن انساق الصوتيات تحُدّد مثلاً بالضغوط التي تخضع لها الصوتيات المُشكلة للصرفيات . كما أن أنساق الجُمل تتآلف بفعل قوة وضغوط الصرفيات المكونة لها . إن غرض الوصف هذا إنمّا هو ترتيب فئات هذه المكونات (الصوتيات ، الصرفيات ، التراكيب ، الجُمل) عبر قيود الانساق قياسا إلى ما هو ممكن نظريا . إننا ندعو هذا النوع من التصنيف بالصِنافة taxinomie .

14.2.1.2. المنهج

14.2.1.2.1. إعداد المادّة

لا وصف ممكناً للغة ما إلاّ انطلاقاً من دراسة البيانات énoncés التي تصدر حقيقة وفعلاً عن متكلميها . فالألسني الراغبُ في وصفها يجمعها ويحلّلها لا على اعتبارها مكوناً عاماً للغة بل كعينّة منها وحسب ، ثم يذهب إلى إعداد المادّة corpus

وبلورتها تحت فعل عدد من المعايير : التمثيلية représentativité ، التجانس homogénéité ثم الاستنفاذ exhaustivité .

14.2.1.2.2. التصنيف الشكلي

إذْ ينتهي الألسني من اعداد المادة المُراد دراستها ، لا بد له من الانتقال إلى تصنيف البيانات التي يطمح إليها منطلقاً في ذلك من أسس شكلية formel صرف إن هذاالنموذج من الطرائق ينهض على فكرةمفادها أن الوصف لايعتبر المعنى أساسا للتصنيف فضلاً عن مشقة تعريفه بذاته من حيث كونه معنى . ثم يخيل إلينا أنه من المحال الإحاطة بكل خيوط ماهيته ولاسبيل إلى ذلك إلاّ الوسائط اللغوية التي تمكننا من القيام بهذه المهمة .

وفي الحقيقة أن الوضع situation هو الذي يحدّد المعنى ويعرفه . وهذا الوضع أو ذاك هو ما يجعل المتكلم يولّد بيانات تحمل في حد ذاتها مدار أجوبتها عند مستمع ما . ومن هنا يبدو لنا أن الدلالية أو علم الدلالة sémantique مرفوض من حيث كونه اداة توصيلية لمعرفة بُنى اللغة أولاً وطريقة تحليلها ثانياً .

ومع ذلك يجدر بنا أن نبينّ هنا أن أهمية المعنى ليست هي المرفوضة هنا أو المُنكرة بل امكانية بناء التحليل على أساس معنوي وحسب ، ذلك أن المعنى لا يتسرب في عملية التحليل ولا يتدخل إلاّ بصفته «تقنية» نتعرف بها على البيانات المتتالية» (106)

14.2.1.2.3. الدراسة التركيبية للبيانات

ينزع هذا اللون من التصنيف إلى ما يعرف بالابدال commutation سبيلا إلى

(106) Jean Dubois, Essai de lexico- statistique historique du français contemporain, in La Linguistique, Paris, P.U.F., 1965, n° 2, p.7.

اظهار انتظام المادّة corpus ، ممّا يؤدي إلى أن يردّ هذا الاختيار على التحليل منهجية صارمة دقيقة . وهذه الطريقة تلجأ إلى تقطيع المادّة لتقريب مقاطع البيانات المتشابهة في محيط هو الآخر متشابه .

لا شك أن تصوّر المحيط أو تمثله هو ما يبني النحو التوزيعي بحجة أن العناصر لا تُحَدَّد إلاّ بفعل موقعها لا وظيفتها أو عملها النحوي . وتنهض هذه الفرضية على أن عناصر المادة لا تتحد فيما بينها بشكل مستقل منفرد بل تخضع لضوابط وضغوط جُمْلية séquentiel أو توزيعية . إن توزيع distribution عنصر ما إنّما يتحدّد بكونه «مجموع كل المحيطات التي يظهر فيها ، أي مجموع مواقعه كافة مقارنة ومقيسة إلى موقع عناصر أخرى» (107) .

يَدلِفُ بنا مبدأ الانتظامات وإمكانية تحليلها إلى الملاحظة التالية : وهي أن عنصراً واحداً معيناً سيحتل متخذاً في زمن ما مكاناً ما هو الآخر محدد ، مستثنياً في ذلك جميع العناصر الأخرى التي لا تقوى على التموضع في موضعه . ففي التركيب الفرنسي une note (أي علامة موسيقية) ، لا نستطيع أن نختار بين لفظتي pointue, aiguë (أي حادّ) ، ذلك أن ما هو ممكن هنا هو لفظة aiguë ليس غير . وإذْ يتماثل عنصران اثنان مثل آ و ب فما ذلك إلاّ لكون سياقاتهما أو لنقل توزيعاتهما متشابهة ، ثم لا بدّ من الاقرار هنا أن العناصر التي يُقدر لها أن توجد في السياقات ذاتها إنّما تعود إلى فئة توزيعية واحدة أيضاً .

لنأخذ المثال التالي : Le philosophe pense (أي يفكر الفيلسوف) إنّ لنا هنا أن نصادف كلمة l'histoire (أي التاريخ) أو الكلمة الاخرى profondément (أي بعمق) . وإذا كان الأمر كذلك ، فهل نقوى على استنتاج أن profondément, l'histoire ينتميان إلى فئة توزيعية واحدة لكونهما في سياق متماثل ؟ إن تأكيد ذلك محال من دون أدنى شك اللهم إلاّ إذا قُدِّرَ لنا ابدال هذين العنصرين نفسهما في عدد من السياقات غير محدود . ولكن إبدالاً من مثل هذا الابدال مرفوض أصلاً إذ لا يمكن لهذين العنصرين ـ وهذا ما تفيدنا به التجربة ـ إن يتواجدا عبر سياق واحد :

---

(107) Z. Harris, «Distributional strncture», in Fodor et katg éd., 1954, p.33

(أي يفـكر الفيلســوف بالتــاريخ Le philosophe pense lhistoire profondément بعمق) . غير أنّ لنا ازاء ذلك أن نجد في السياق التالي . . . . Le philosophe pense الكلمات التالية : Le monde, les évènements, l'avenir (أي العالم ، الأحداث ، المستقبل) الخ . . . .

وفي حال اشتراك عنصرين ما في سياقات متماثلة نقول عنهما أنهّما متماثلين توزيعياً وهذه حال درّاجة وعربة على سبيل المثال : . . . . بَطل السباق ؛ لا يملك إلاّ . . . . واحدة ؛ إنهّا . . ـه ؛ يا لها من . . . . سريعة ، الخ . . . . وعلى العكس من ذلك ، فعندما لا يكون لعنصرين أي سياق مشترك نقول أنهما في توزيع مُكمِّل distribution complémentaire (أ . . 12.1.3.) .

14.2.1.3. المكوِّنات المباشرة

لعلّ أهمّ ما تفضي إليه التصورات التي عالجناها سابقاً هو قدرة التحليل التوزيعي على رسم منهج لتقسيم بيانات المادّة corpus إلى مكوناتها المباشرة constituants immédiats .

لقد كان للألسني بلومفيلد Bloomfield اليدالطولى في ابتكاره مفهوم المكونات المباشرة هذا ، عــام ١٩٣٣ عبر نظرية تأثر في بلورتها تأثيراً بارزاً بعلم النفس السلوكي ذاك الذي كان العامل الاول في تشييد النحو الاميركي . ذلك أن السلوكية كنظرية كانت تدأب في البحث عن منهج وصولاً لتأسيس علم نفس عماده الموضوعية والدقة بعيداً عن ارادة الاستبطان ومراقبة الذات . إن العوامل الروحية والذهنية هي ، بحسب هذا المذهب ، مرفوضة رفضاً قاطعاً ، وربما كان هذا النفي اداة لردّ طابع علمي على هذا المنهج ليكون مماثلاً قدر الامكان للعلوم الطبيعية وخاصة في تفسيرها ودراستها السلوك الانساني كمجموعة مؤثرات stimulus واستجابات réponse لها . إن فعل الكلام acte de parole ، كما يرى ذلك بلومفيلد ، إن هو إلاّ نوع سلوك معين يمليه ويفرضه الموقف الذي يعمل على تجسيده واظهاره .

لا نريد هنا تشريح نظرية بلومفيلد ولكن حسبنا تلخيصها باقتضاب عبر المثال التالي : «إنّ كل من يتكلّم الانكليزية مولياً هذا الموضوع اهتماماً ، لا بدّ أن يؤكد قائلاً إن المكوِّنات المباشرة لـ Poor John ran away (أي هرب جون المسكين) إنما هي الصيغتان ran away, poor John اللتان تشكل كل واحدة منهما صيغة معقدة . وأن المكوِّنات المباشرة لـ ran away هي الصيغة ran التي ليست بأكثر من صرفيم و away التي هي أيضاً صيغة معقدة مشكلة من المكوِّنين way, a ، وأن المكوِّنات المباشرة لـ poor John إنما هما الصرفيان poor و John . إن تحليلاً مناسباً ، ونعني به التحليل الذي ينظر إلى المعنى ليأخذه بعين الاعتبار هو وحده ما يقودنا عبر هذه الطريقة إلى الصرفيمات المكوِّنة بشكل أساسي» (108) .

إن الجمل بحسب هذا المنهج لا شبه ما تكون سلسلة مستويات تحليل نميّز منها أربعة ضروب هي : المستوى الصوتيمي ، المستوى الصرفيمي ، المستوى التركيبي وأخيراً المستوى الجُملي . ولا بّد من الاشارة في هذا المقام أنّ كل بيان إنمّا ينقسم إلى جزأين ينقسمان بدورهما إلى جزأين آخرين ، وهكذا حتى ينتهي بنا التحليل إلى وحدات المعنى الصغرى التي تفضي بدورها أيضاً إلى استخراج عناصر متسلسلة hierarchisé . نضيف إلى هذا أن المقطعين الواقعين تمركزاً على يمين الفاصل ويساره إنما يشكلان المكونين المباشرين للبيان الرئيسي الذي هو قيد الدراسة والتحليل .

(أي قدّمت المعارضة البرلمانية مشروع حجب ثقة) . إن لنا في هذه الجملة أن نُبدّل a déposé une motion de censure بما يلي : désapprouve le projet de referendum (أي لا توافق على مشروع الاستفتاء) أو se disloque (أي تتفتت) أو se méfie de la majorité (أي تحترز من الأغلبية) . إننا أمام جميع هذه المتتاليات القابلة للتغيير والتبدّل الواحدة موضع الأخرى إنمّا نقدرها متماثلة نحوياً أو جملياً نظراً لوظيفتها النحوية .

إذا أردنا أكثر من هذا الذي نأخذ به من تحليل استطعنا أن نبينّ أن الجملة الصغرى مشكلة من مكونين مباشرين أو من تركيبين يرجعان إلى طبيعة متباينة ،

(108) المرجع نفسه L. Bloomfield, Le Langage, p. 153

نقول استطعنا بيان أن هناك أولاً التركيب الاسمي (ت أ) syntagme nominal ثم التركيب الفعلي (ت ف) s. verbal .

إن تتابعات من مثل Le parti démocrate, L'opposition (أي الحزب الديمقراطي ، المعارضة) تشكل كما يبدو لنا وحدات متجانسة بينما نجد أن متتالية مثل démocrate approuve (أي ديمقراطي يوافق) أو Le- approuve (أي الـ يوافق) لا تشكل تجانساً أياً تكن الحال ؛ إن ما يزيد في ايماننا بما نقول إنما هو حدسنا الأساسي بكل فعّالياته الدلالية والتحليلية . وفوق هذا وذاك ، يمكن أن نلمح في المثال التالي :

Les passagers de l'avion détourné sont rentrés dans leur pays

(أي عاد ركّاب الطائرة المخطوفة إلى بلادهم) أن Les passagers sont rentrés (أي عاد الركاب) تشكل نواة الجملة أما ما عداها فما هو إلاّ متتاليات لنا أن ندعوها توسعاً expansion . وهذا التوسع de l'appareil détourné (أي الطائرةِ المخطوفة) يُشار إليه بفعل موقعه قياساً إلى Les passagers ، فهو أولاً من طبيعة واحدة (تركيب اسمي) وثانياً لكونه يبدأ في الفرنسية بحرف الجر de الذي يمكن مقابلته في العربية بالمضاف والمضاف إليه .

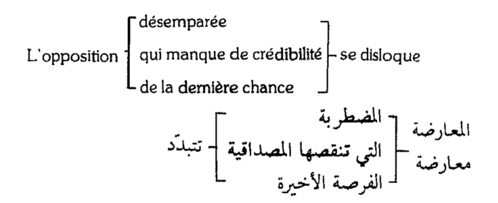
14.2.1.3.1. الجملة : مكوِّناتها الرئيسية

إن مكونيّ ما يُدعى بالبيان الأصغر énoncé minimal ينقسمان بدورهما انقساماً تحتياً الى عنصرين اثنين ضروريين وهما المُحَدِّد déterminant أولاً والاسم ثانياً .

ولكن ما المحدِّدات ؟ انها ولا شك وحدات ترتبط بالاسم ارتباطاً وثيقاً ، فهي تحدِّد فئته بموضعة اياه مكانياً وزمانياً ، فضلاً عن كونها محدودة العدد إذ انها تنحصر في أدوات التعريف والصفات واسماء الاشارة والضمائر ، ولها فوق هذا وذاك وظيفة ثانوية في التركيب الاسمي .

وما الاسم ؟ إنه قاعدة التركيب الاسمي وهو ينتمي الى فئة غير محدودة اذ ان عددها غير ثابت .

إن لنا أن نضيف الى هذين العنصرين الرئيسيين توسعاً سوف نطلق عليه اسم التوسع الاختياري وهو امّا نعتي او مبدوء باسم موصول ، وإمّا اضافي :



ان البيان الأصغر ليتألف مقطعه الثاني من التركيب الفعلي (ت ف) وللفعل هنا موضع الصدارة وقد يتفق ان يكون التركيب syntagme مؤلفاً من الفعل وحده وحسب ، مثل Le poète écrit (أي يكتب الشاعرُ) وممّا يلاحظ في هذا المقام امكانية اتباع التركيب الفعلي بتوسع اسمي او بتوسع مبدوء بجار ومجرور (ج مج) (أي : ت إ + ف ؛ أو : ت إ + ف + ج مج) فضلاً عن قدرته على أن يكون متبوعاً بأنواع مختلفة من التوسع عبر التركيب الاسمي او الاضافي من خلال حرف جر :

يكتب الشاعر قصة — Le poète écrit un roman

يكتب الشاعر الى اصدقائه — Le poète écrit à ses amis

في المثـال الاول نكون أمـام : ت إ + (ف + ت إ) ، وفي الثانـي ازاء : ت إ + (ف + ج مج) .

وممّا تجدر ملاحظته في هذه الأمثلة أن التركيب الاسمي إذ يقع توسعـاً بعـد الفعل (ت إ2) إنمّا يحلّل بالطريقة ذاتها تلك التي يحلّل بها التركيب الاسمي الأول والذي يشكل البيان .

هذا ، وقد نقع على أفعال مساعدة عبر التركيب الفعلي ذاته ، كما هي الحال في الفرنسية والانكليزية مع أفعال الكون والملك avoir, être; to be, to have أو أفعال

مثل sembler, paraître (أي بدا ، ظهرَ) الـخ . . . وبهـذه الطرائـق من استعمال الأفعال المساعدة نحظى بجمل ذات رابطة copule, copula ، الأمـر الـذي يفضي أخيرا الى أن تتموضع الاضافة او لنقـل التوسـع على يمـين الرابطـة في الفـرنسية والانكليزية بشكل إلزامي لا مفرّ منه ، وصولاً الى التركيب النعتي (ت ن) أو الى التركيبين الآخرين ، الاسمي والمجرور :

Le poète est sympathique الشاعر لطيف (ت ن)

Le voisin est un physicien أي الجارُ فيزيائي (ت إ)

La fille est dans le jardin الفتاة في البستان (ت ج مج)

اذ نحلّل نموذج التحليل هذا ، لابدّ أن يفضي بنا الأمر الى إقامة توازن بين التحليل الى المكوِّنات المباشرة والتحليل النحوي التقليدي للجملة ، أي الى مبتدأ وخبر ، أو مسند ومسند إليه . ويمكن القول هنا أن المثال الذي جاء به بلومفيلد يشكل جملة بسيطة فاعلُها هو التركيب الاسمي الذي يكوّنه الاسم John الذي يمكن للصفة poor أن تمتد توسعا به غير أن ما يُسند الى هذا الفاعل انمّا هو التركيب الفعلي المتشكل عبر الفعل ran فضلا عن امكانية التوسع به بقدرة الظرف away .

14.2.1.3.2. التمثيل الرسمي والبياني

لا شك ان ثمة طرائق عديدة تهدف الى تمثيل التحليل الى المكوِّنات المباشرة تمثيلاً بيانياً ، غير أن هذا لا يقوى على التحقق إلاّ اذا نظرنا الى الجملة من حيث كونها شكلاً متسلسلاً hierarchisé اذ تتجلى به أكثر من طريقة تمثيل ، وسوف نعرض فيما يلي بعضاً من هذه الطرائق .

14.2.1.3.2.1. التقويس

يعتبر التقويس أو ما يعرف بوضع العناصر بين قوسين Parenthétisation من الطرائق الطامحة الى تمثيل بُنية مكوِّنات الجملة . ويرجـع الفضـل في تطـوير هذه

الطريقة الى رولون ولس Rulon S.Wells (109) وهي تنهض أساسا على وضع أقواس متداخلة فيما بينها بشكل يشتمل على المقاطع التابعة أو الداخلة في تكوين تركيب واحد . واذا ما أردنا مثلاً عليها فما لنا إلاّ أن نمدّ أيدينا إلى الجملة الفرنسية التالية :

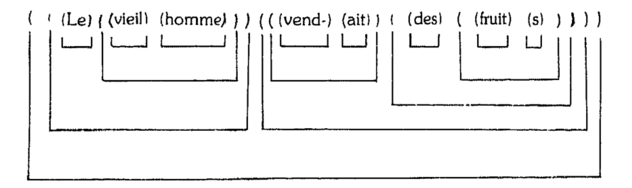
Le vieil homme vendait des fruits

(أي كان الرجل المُسنّ يبيع فواكه)

فاذا ما أردنا تمثيلاً قوسياً لهذه الجملة فإننا نخرج بالشكل التالي :

(((Le) ((vieil) (homme))) (((vend) – (ait)) ((des) ((fruit) (s)))))

ولكن اذا أجلنا النظر قليلا في هذا النمط المقدّم سابقا أدركنا بيقين كلّي أن قراءته شاقة بل مستحيلة وذلك في بعض الحالات كتلك التي قد تتسع فيها الجُملة بزيادة اضافية ما . غير اننا والحالة هذه ولتسهيل عملية القراءة ما لنا الاّ بجمع الاقواس المتداخلة زوجا زوجا .



هذا ، وزيادة في الشرح أو لنقل تبسيطا له ، يمكننا تتوج الاقواس المتزاوجة ببطاقات أو باعطائها ارقاماً دالة عليها ولنا في المثال السابق دليل على ما تذهب إليه

(((Le) ((vieil) (homme)))

P SN Art Art MN A dj A dj N N MN SN

1 2 4 · 4 5 8 8 9 9 5 2

(((vend-) (ait)) ((des) ((fruit) (s) ((((

(109) R.S.Welle, Immediate constituents, Language XXIII, P.P. 81 –117

(اي المكوّنات المباشرة)

SV	V	RV	RV	Tps	Tps	V	SN_2	Art	Art	N	RN	RN	Pl	Pl	N	SN_2
3	6	10	10	11	11	6	7	12	12	13		14	15	15	13	7

SV	P
3	1

يمكننا أن نبينّ هنا ان الرموز بالحروف انمّا تدل على مصاحباتها من كلمات ، فمن هذه الناحية فهي تدلّ على :

عضو إسمي ع . إ	MN . membre nominal	جملة ج	P phrase
اسم إ .	N . nom	تركيب اسمي ت إ	SN . syntagme nominal
جذر فعلي جذ . ف	RV . racine verbale	تركيب فعلي ت . ف	SV . syntalme verbal
جذر اسمي جذ . إ	RN . racine nominale	فعل ف	V . verbe
زمن ز .	Tps . temps	صفة ص	Adj . adjectif
جمع جع	Pl . pluriel	أداة أد .	Art . article

14. 2. 1. 3.2.2. علبة هوكيت

لعلّ من جملة الطرائق التي اقترحت في عملية التمثيل البياني ما يُعرف «بعلبة هوكيت» boîte de Hockett (110) نسبة الى صاحبها نفسه . وهذه العلبة ذات مربعات مرقمة ترمز الى مكوِّنات الجملة المحلّلة بحسب تقسيم تنازلي .

واذا ما اخضعنا الجملة ـ المثال ، ونعني بها المثال السابق لطريقة هوكيت ذاتها كان لدينا الشكل التالي :

<table>
<tr><td colspan="8">Le vieil homme 1 vendait des fruits</td></tr>
<tr><td colspan="3">Le vieil 2 homme</td><td colspan="5">vendait 3 des fruits</td></tr>
<tr><td rowspan="3">Le
4</td><td colspan="2">vieil 5 homme</td><td colspan="2">vendait
6</td><td colspan="3">des 7 fruits</td></tr>
<tr><td rowspan="2">vieil
8</td><td rowspan="2">homme
9</td><td rowspan="2">vend
10</td><td rowspan="2">ait
11</td><td rowspan="2">des
12</td><td colspan="2">fruits 13</td></tr>
<tr><td>fruit
14</td><td>s
15</td></tr>
</table>

ولكن ممّا يُلاحظ في هذا المقام عدم قدرتنا على تمثيل الجملة ترقيمياً بشكل ملائم إلاّ عبر شروط وظروف معينة ، ذلك أن مكوِّنات فئة نحوية معينة لن تحظى بالرقم نفسه بفعل اختلاف الجُمل التي تدخل فيها . ولهذه الأسباب مجتمعة فقد مُنيت علبة هوكيت بتعديلات تُسهل تمثيل تصوّر ما يعرف بـ فئة المكوِّنات ، الأمر الذي يؤدي بالجملة ـ المثال ان تتمحور على الشكل التالي :

جملة P							
syntagme nominal تركيب اسمي				syntagme verbal تركيب فعلي			
Article أداة	membre nominal عضو إسمي		verbe فعل			nominal عضو إسمي	
	adjetif صفة	nom اسم	racine verbale جذر فعلي	affixe temp-orel حرف زيادة زمن	article اداة	nom اسم	
						racine nominale جذراسمي	Pluriel جمع
Le	vieil	homme	vend	ait	des	glace	S

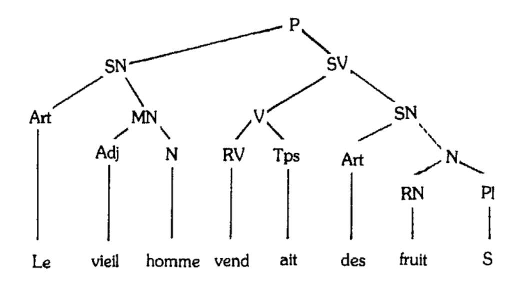
14. 2. 1.3.2.3. التشجير أو المؤشر التركيبي

أثبتت التجربة أن طريقة التمثيل بالخط البياني graphe المُشَجَّر والذي يُسمى «الشجرة» arbre او لنقل المؤشر التركيبي indicateur هي من بين طرق التمثيل أكثرها شيوعاً وقبولاً وفاعلية . إن مبدأ التمثيل المشجر هذا ينهض على ربط كل مكوِّن من مكوِّنات الجُملة بخطٍ يعتبر غصناً يلحم العنصر الذي يشكل معه مكوِّناً واحداً .

إن جذر الشجرة يرمز الى المكوِّن التابع للمستوى الأعلى في التسلسل المراد به مستوى الجملة . ثم إن كل عقدة noeud توحِّد بين غصنين انمّا تشير الى مكوِّن واحد . غير أنّ العقد النهائية ترمز بدورها للوحدات النحوية الصغرى . وعبر هذه الطريقة ، فإن المثال الذي عرضناه في الفقرة السابقة يصبح مشجراً على الهيئة الآتية .

---

(110) S.F. Hockett, A Course in Modern Linguistics, New York , Macmillan, 1958, 9 impr. 1965, 621p.



14.2.1.3.2.4 طوق «تنييــر»

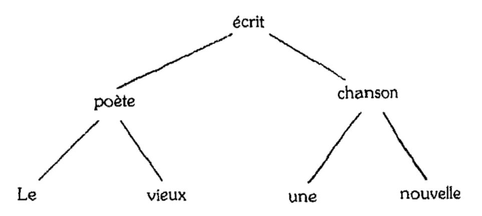
لم يحظ التقابل مسند / مسند اليه (مبتدأ/ خبر) الذي اتبعه المنطق الصوري بقبول في مجال الألسنية . وهذا أمـرٌ لم يكن لغـير الفـرنسي لوسيان تنيير Lucien Tesnière أن يثبته . ولهذا فقد اقترح بناء علم نحو عام يهدف فيما يهدف اليه إلى إبراز البُنى البيانية لكل لغة ، رامياً في ذلك إلى إقامة طريقة تحليل تكون قادرة على إفهام عمل البنية الدينامية لكل لغة (111) إنَّ الأمر ، كما يرى ، يتعلق بكشف امكانية إعداد وتهيئة بُنى هي جدُ معقدة انطلاقاً من أخرى بسيطة ، وذلك باللجوء الى جمْلة من النقلات transfert التحويلية .

ان لوسيان تنيير يعتمد في طريقته هذه على تمييز الانسياب الخطـيّ الـوحيد الاتجاه ، ونعني بهذا نسق الـوحدات للنظـام البنيوي ذي الاتجاهـات المتعـدّدة ، وذلك في السلسلة الكلامية . كما أقام تنيير نفسه ضمن كل وظيفة ، علاقة تبعية يُمَيِّز فيها علاقة المُحَدَّد/ المُحَدِّد ، مع حظوة خاصة للفعل الذي يُصبح بطريقة أو باخرى المُحَدِّد . وتُبنى هذه التبعية على أن المفعول أو المعمول أو المُتَمِّم complément يتبع

(111) Lucien Tesnière, Comment construire une sytaxe, in Bulletin de la faculté de Lettres de Strasbourg, XII, mai-juin 1934, 7.

المُتَمِّم complété أصلا ويخضع له ، وبهذا فإن المفعول أو المُحَـدِّد déterminant لا يستطيع أنْ يتحرك إلاّ من خلال الفعل اي المُحَدَّد déterminé إذ انه يقع تحت سيطرته وسطوته .

إن الجملة التالية : Le vieux poète écrit une nouvelle chanson (أي الشاعر الكهل يكتب أغنية جديدة) ، إذا ما أخضعت لهذه الطريقة فانها تُمثل بالشكل التالي الذي أطلق عليه تنيير اسم stemma أي الطوق :



إن الفعـل هو النـواة المركزية لهـذه الجُملـة ، وأمّـا poète (اي الشاعـر) وchanson (أي أغنية) فهما نواتان من درجة أخرى ذلك انهما تخضعان لحركة الفعل écrit ؛ كما ان le وvieux يتبعان poète في كل شيء ؛ وقل الأمر نفسه فيما يخصّ une وnouvelle قياساً الى chanson .

14.2.1.4. التوزيعية : حدودها

كانت التوزيعية نقطة انطلاق نحو تجديد نظري شامل انبعثت منه القواعد التوليدية والتحويلية ، غير أنها كنظرية ، لم تكن لتسلم من بعض المثالـب التـي وسمها بها بعض أهل اللغة على الرغم من أنها كانت ايجابية وفعالة من حيث كونها نظرية لغوية اتجهت الى إرساء قواعد صريحة explicite تهدف إلى بيان عمل اللغة شكلاً ودلالةً ، الأمر الذي جعلها تتميّز عماّ عُرف بتسميته بالقواعد التقليدية .

لعلّ أول ما يطالعنا من الانتقادات التي ألقيت في وجه التوزيعية أن الألسنية البنيوية ـ ومن هذا القبيل تشبه الألسنية التقليدية ـ إنّما تصدر عن تصوّر تصنيفي . وعلى الرغم من اعترافنا أنها أفادت كثيراً من فيض المعلومات الهائلة التي جمعتها القواعد التقليدية بشكل وقائع منعزلة ومُصنّفة ، غير أن هذا الصنيع التصنيفي ليس بأكثر من اعادة تنظيم للمعطيات القديمة . ولهذا ، فإنه ليشق علينا بناء نظرية كفيلة بالاحاطة بكل معطيات اللغة مدعيةً لنفسها التعميم او التفسير . وأمام هذه الأمور كلها فقد رمى التفكير الألسني الجديد إلى خلق نموذج فرضي صريح للغات .

إن التوزيعية مضافاً اليها أحد اشكالها الأكثر تطوراً وهو التحليل الى المكوِّنات المباشرة consttuants immédiats لم تكن لتقوى على تفسير جُمّاع ظواهر البيان énoncé بكل اجزائه جملاً وألفاظاً ، إذ أنها مبنية على نماذج احتمالية مستوحاة من نصوص منتهية fini . ولكن الأمر هنا لا يتعلق ، والحال هذه ، بعرض وتصنيف مجموعة وقائع بل ببناء نظرية عامة ، وايجاد نماذج فرضية modèles hypothétiques ولهذا ، فإن وصف اللغة بحسب نسقية combinatoire مرتبطة بمعالجة مادة corpus لغوية محدّدة تعتبر عيّنة من اللغة المدروسة ، أمرٌ محال ومستبعد .

إن اللغة منظوراً إليها عبر هذا المنظور التفكيري الجديد ، تتجلّ مجموعة لا متناهية قادرة وكفيلة بابراز عبقرية اللسان وإبداعه . هذا ، وإذا كنّا حراصاً على ضمّ هذه القدرةالإبداعيةـ أو القدرة على اصدار البيانات أو الجُمل ـ فلا بدّ من التفكير بنسقيّة مفتوحة combinatoire ouverte لا مغلقة ومحتبسة . يمكن أن نفسر هذا أن البنيوية قد تبنّت بل ارتضت لنفسها نماذج تُناط بمستقبل الكلام ، ولم تفكر بنماذج مرتبطة بمُرسله . وهذه النماذج التي استقرتها التوزيعية إن هي إلا مستوحاة من اللغة تحت وقع تحليل أداءات المتكلمين . غير أنّ هذه الابداعية تعني هنا أن المتحدث قادر على انتاج وفهم بيانات لم يسمعها قبلاً . وأمام هذا المأزق لابدّ للقواعد الواجب بناؤها أن تأخذ في نظرها هذه الظاهرة أولا وكفاءة المتكلّم ثانياً .

نضيف لما تقدم أن التركيبيّة La syntagmatique التوزيعية آخذة في حسابها وبشكل استثنائي ما يظهر متكررا récurrent في السلسلة الكلامية دون امكانات

التحويل المرتبطة بالمنظومة ، لعاجزة عن الإجابة مثلا لِمَ تقبل احدى الجملتين التاليتين دون أختها ، إننا نقبل مثلا الجملة : La foule applaudit la vedette (أي يصفق الجمهور للنجم) ونرفض La boule applaudit la vedette (أي تصفق الكرة للنجم) . كما أنها ؛ اي التركيبية التوزيعية ، قاصرة عن تفسير جمل مقبولة نحويا لا دلاليا ، ففي المثال الفرنسي التالي : La peur de l'ennemi إننا لا نعرف من يخاف الآخر : أهو العدو الذي يخشانا أم نحن الذين نخاف العدو ؟ ولنا في المثال العربي الآتي دليلٌ آخر على ما نذهب إليه : «زيارة الحبيب» فالحبيب زائر أم مُزور ؟

وفضلا عن كل ذلك إن النحو البنيوي غير قادر على تقديم عرض لبُنى جُمَل اعتراضية بشكل ميسور سهل ، ولنا في المثال الفرنسي التالي مثال على ما نذهب اليه : Un soir, T'EN SOUVIENT- IL? nous voguions en silence (أي ذات مساء ، أتذكر ذلك ؟ كنّا نسير بصمت) . نزيد على كل ما تقدم ، إنه لمن المحال إن لم يكن صعبا تحليل بعض المكونات المنفصلة constituants discontinus بطريقة الإبدال ، ويمكن أن نضرب مثالا على ذلك أداة النفي الفرنسية ne....pas ، او المكونات المنفصلة في العربية : لمْ . . . . قطْ ، ليس . . . . وحسب الخ . . . . فهذه المكوّنات المُنفصل بعضها عن بعض تضعف درجة التكوين البنيوي للمؤشر التركيبي indicateur syntagmatique ، الأمر الذي يدعونا الى القول إن نموذج القواعد القادر على بيان هذه العناصر المنفصلة لابدّ وأن «يخضع لقيود خاصة ، وخاصة فيما يناط بترتيب تطبيق قوانين تضعف الى حدٍ كبير قدرة هذا النموذج التوليدية»(112)

14.2.2. النحو التوليدي والتحويلي

14.2.2.1. المنهج وتصورات التحليل

رأينا من قبل أن التوزيعية لم تكن لتنأى عن بعض المثالب والانتقادات ، وأن

---

(112) نيقولا روفيه Nicolas Ruwet, Introduction à la grammaire générative, Paris, Plon, 1967, p.390 note n°30

التحليل إلى المكونات المباشرة قد مُني أيضا بشيء من تلك النواقص ، ولهذا فقد أراد نوام شومسكي Noam Chomsky الأمريكي كردة فعل منه على النزعات التجـريبية المسيطرة على الألسنية الاميركية في النصف الأول من القرن العشرين ، نقول أراد أن يؤسس ، وقد أفلح في مسعاه ، القواعد التوليدية ، ولكن بعد أن استغرقته طويلا الألسنية البنيوية خارجا من حلْبتها وقـد أستطـاع أن يقف على كل جوانبهـا جملـة وتفصيلا .

إن ما تجدر الاشارة اليه هنا هو أننا غالبا ما نقابل البنيوية (سواء الاوروبية منها ولا سيا تلك التي بُنيت على تصورات سوسير أم الاميركية التي تربطنا مباشرة بالتوزيعية) بالقواعـد التحـويلية والتـوليدية . وإذا كان الأمـر كذلك فلا بّـد من التساؤل علام تنهض هذه القواعد وأين يتبدّى ما هو جديد فيها .

14.2.2.1.1. الابداعية

إذا كان النحو البنيوي يرمي الى تصنيف العلامات الألسنية انطلاقاً من نص منتهي texte fini ، فإن النحو التحويلي سيرفض تحليل المادّة corpus وصولاً إلى بيان أن كل متكلم قادر على بعث وإصدار وإدراك عدد غير محدود من البيانات énoncés التي لم يصدرهـا أو يسمعهـا من قبـل . إن هذا هو ماندعـوه بابـداعية créativité الفردالناطق ، وبلغة أخرى ، القـدرة التـي يمتلكهـا مستخدمـاً عدداً محـدوداً من الوسائط الألسنية استخداماً بلا حدود .

من هذا التعريف الذي بيّناه سابقاً يتبدّى لنا أن أي ناطق بالعربية قادر على فهم هذه الجملة التي ربمّا لم يسمعها من قبل : «عزيزي القارىء ، لقد فكرّت بك عندما كتبت هذا المدخل إلى الألسنية» . هذا ، ويمكن لنا أن نميّز نموذجين اثنين لهذه الابـداعية ، فهنـاك اولا الإبـداعية التـي تتحـكم فيهـا القوانـين rule- governed creativity, créativité gouvernée par les règles وثانيا الإبداعية التـي تغـيرّ القوانـين rule- changing creativity, créativité qui change les règles أمّا الأولى ، ونعنـي بهـا تلك التي تخضع لقوانين اللغة فهي تقوم على إصدار جمل جديدة ، إذ أن مجمـوع

الجمل النحوية يُشكل ، في لغة ما ، عددا لا متناهيا . وهكذا ، نستطيع بدءا من جملة بسيطة حشر عناصر جديدة وصولا الى إطالة الجُملة الاساسية :

١ ـ الكتاب سهل

٢ ـ كتاب الألسنية العامة سهل

٣ ـ كتاب الألسنية العامة الذي أعدّه المؤلف سهل .

٤ ـ كتاب الألسنية العامة الذي أعدّه مؤلف معجم علوم وتفنيات التواصل سهل .

٥ ـ كتاب الألسنية العامة الذي أعدّه مؤلف معجم علوم وتقنيات التواصل ليس سهلاً كما نعتقد ذلك للوهلة الأولى .

إن امكانية التوسع هذه إنمّا تنجم متولدة من قواعد النحو وقوانينه التي تتسم بالتكرارية récursivité وبفعل هذه الصفة ، التكرارية ، يمكن تعريف القواعدبأنها «منظومة قوانين عامّة تساعد على تعداد الجُمل القواعدية ، وبمعنى آخر بأنها آلية قادرة على خلق مجموعة من الجمل لا متناهية» (113)

أمّا النموذج الآخر ، ذلك الذي نعني به ونريد نموذج الابداعية التي تغيّر القوانين وهي تتبلور متولدة من التفاعل الواقع بين اللغة من حيث هي كيان اجتماعي ، والكلام بكونه حيّز الانجازات الفردية ، ان هذه الابداعية تشمل جملة التحولات الفردية على المستويات التالية : التصويتية phonologique ، والنحوية والدلالية . نزيد على ذلك أن لهذه التحولات بفعل تكدّسها وامتدادها أثراً قد يولّد تغيرات في المنظومة اللغوية .

14.2.2.1.2. القواعد الصريحة

تعتمد القواعد التوليدية ، أي الوصف النحوي للغة ما ، نموذجاً يقوى على

(113) المرجع المذكور السابق ص ٤٥ـ٤٦ ، والتعريف مأخوذ عن

Paul Postal, «Limitations of phrase structure grammars», in Fodor- Katz, p.138

توليد وفرز كل الجُمل القواعدية grammatical للغة محدّدة ، وهي ليست بأكثر من مجموعة قوانين تتجلى بصورة تعليمات صريحة explicite يمكن تطبيقها آلياً وصولاً إلى انتاج تلك الجُمل المقبولة في اللغة اي التي هي قواعدية . ولكن ، أن تكون هذه القواعد موصوفة بالصريحة ، فهذا يعني أن القوانين المقدمّة والموصوفة بشكل دقيق صارم يمُكن لها أن تكون شكلية formel وأن يُعبّر عنها بقوانين هي أيضاً شكلية .

ويمكن أن يكون لنا في المثال التالي دليل على ما نذهب إليه : SN+SV ⟵ P

وهذا القانون يعتبر من أولى قوانين القواعد . إن قراءته سوف تتخذ الصور الآتية : إن الجملة ـ النواة P (phrase) تكتب مرة جديدة ⟵ أو تحوّل إلى تركيب إسمي syntagme SN nominal متبوعاً + بتركيب فعلي syntagme verbal SV كما نلاحظ ذلك في المثال التالي :

P L'auteur (SN: تركيب اسمي) écrit un livre (SV: تركيب فعلي)

(أي : يكتب المؤلف كتاباً) .

يمكن لنا أن نتبينّ في جملة الاعتبارات التي تطرقنا اليها من قبل أن هذه القواعد ليست قادرة على وصف الجمل التي نتقراها حقيقة في مادّة ما وحسب ، بل لعلّها غير قادرة أيضاً على خلق وتوليد جمُل نحوية سليمة لم يُفطن اليها من قبل ولم تقع موقع الدراسة والتحليل . نفسرّ هذا الكلام بطريقة أخرى فنقول : إن الأمر لا يُناط هنا بالتعرف إلى معطيات لغة ما ، أو بفحص عدد من وقائع المادّة ، كما هي الحال في البنيوية ، بل بتفسير المُعطى الألسني المُعاين . هذا ، وربمّا كان لهذا المنهج من التفسير اليد الطولى في تكوين الأصالة التي حظي بها شومسكي ، وخاصة في اعداد نماذج نظرية وفرضيات قمينة بأن تفسر الظواهر المعروفة .

14.2.2.1.3. الكفاءة / الاداء

ربمّا طاف بخاطر الألسني وظنه وهو يرى إلى القدرة العفوية متجسدة لدى

كل فرد عبر انتاجه عدداً من الجُمل غير محدود ، نقول ربمّا طاف بخاطره سؤال يرمي الى كيفية تحديد منظومة القوانين تلك التي تفضي الى هذا الركام الهائل من الجمل المتباينة والمتنوعة لدى كلٍ منا . إن لكل متكلم قدرات قدرات خاصة حظي بها منذ طفولته ، ونقصد بذلك تلك المعرفة الحدسّية والضمنية في وقت لمنظومة لغته . إن هذه المعرفة والقدرة هما ما يطلق عليهما اسم الكفاءة compétence . ولهذا ، فان القواعد ، والحالة هذه، ستحاول رصد الطبيعة السليمة لهذه الكفاءة ، عبر بناء نموذج لكفاءة المتكلّم ، شرط أن يحتوي هذا النموذج منظومة القوانين التي تربط الأصوات بالمعنى بشكل خاص ، وبكلمة أخرى ، سعيُهُ الى ترجمة الانتاج الصوتي دلالياً .

إن هذه المعرفة الضمنية والمتجسدة حسياً عبر ترجمة الفرد لها في جملة مواقفه التواصلية هي ما يُطلق عليه اسم الاداء performance . ولكن يبدو لنا ضرورياً هنا أن نلاحظ أن هذا التقابل بين الكفاءة والاداء ليذكرنابالتقابلالذي ابتعثه سوسير في «محاضراته» بين اللغة والكلام (أ ..9.3.1) مع تميّز أساسي وهو أن الكفاءة عند شومسكي ليست عملية جرد لعناصر ألسنية بل هي دينامية معيّنة تشتمل عليها منظومة قوانين قُدِّر لشومسكي أن يبلورها في نظريته .

14.2.2.1.4. القواعدية والمقبولية .

لعلّ أهم ما تفضي اليه الفقرة السابقة هو أن كفاءة المتكلم التي تتجلى حدسياً عبر ممارساته اللغوية هي التي تجعله قادراً على حُكمه على ما يسمع من جُملٍ ، أصحيحة هي أم لا ، وذلك انطلاقاً من ادراكه للغته الأصلية وممارسته إياها . إن شومسكي يُرجع الى الاداء تصوّر المقبولية acceptabilité العملياتي ، اشارة منه الى «العبارات التي هي طبيعية كلياً ويمكن ادراكها مباشرة من غير تحليل كتابي ، فضلاً عن كونها ليست بغريبة ولا مستهجنة» (114) . وفي الحق ، ان المقبولية كتصوّر هي

(114) N.Comsky, Aspects of Syntactic Theory, في الترجمة الفرنسية ، ص 21 Aspects de la théorie syntaxique

مسألة درجة ليس غير ؛ ويزيد شومسكي قائلا : «إنه ليجدر بنا عدم الخلط بين «المقبول» و«القواعدي» ، ذلك أن المقبولية تصوّر يعود الى دراسة الاداء بينما تنتمي القواعدية الى دراسة الكفاءة ، في حين ان القواعدية ليست سوى احد العوامل العديدة التي تحُدِّد بتفاعلها تصوّر المقبولية» (115)

هذا ، ولقد مُني تصوّر القواعدية بمشادات حادّة نهضت في وجهه ، وما هذا إلاّ لعدم كونها موضوعية أولا ولأنها ثانيا صادرة عن حدس الأفراد المتكلمين ، الأمر الذي جعل نيقولا روفية يشير إلى شيء مما وسمت به القواعدية وخاصة حين يقول «إن تصوّر القواعدية لا يرى شيئا آخر غير تحديد تصورٍ عَميلَ ، ضمنيا ، به الألسنيون طويلا ، وصولاً إلى تحديد أكثر دقة وعلمية ، إن هذا التصور يُسهم في تجنّب التباسات تنجم عن استعمال مفاهيم غامضة من مثل مفهوم «الجُملة الممكنة (أو الاخرى غير الممكنة) ومفهوم «الجملة الموجودة» (أو غير الموجودة) ، و «الجملة السليمة» (أو غير السليمة) . ان هذا التصوّر (أي تصوّر القواعدية) يُساعد على مقاومة وهم الموضوعية الذي يقدّم له اللجوء إلى اعتبارات الاحتمالات» (116) ولكن لن نمضي هكذا هنا بل علينا الغوص ولو قليلا حول هذا التصوّر :

١ ـ إن جمُلة قواعدية لا تُشَبَّهُ بجملة يكون تفسيرها ممكناً أو بأخرى ذات معنى . إن المثال الذي يدفعه الينا شومسكي يفضح بوضوح الفرق بين القواعدية والمعنى :

a- Colorless green ideas sleep furiously

(أي أفكارٌ خضر لا لون لها تنام بغضب) .

b- Furiously sleep ideas green colorless

يبدو لنا ان هاتين الجملتين لا معنى لهما ، ولكن نرى بوضوح ان للجملة الأولى بنية نحوية طبيعية تدخلها حيِّز القبول : إنها اذا جملة قواعدية . اما الجملة الثانية فليست هي الا «كتلة كلمات» لا يربط بينها أي رابط ، ومن هذا القبيل فهي ليست اطلاقاً قواعدية .

---

(115) المرجع السابق ص32

(116) نيقولا روفية ، المرجع المذكور ، ص41ي

٢ ـ ان جملة قواعدية لا تُشبّه بجملة حقيقية معاينة في مادة ما corpus

هذا ، ومهما تكن المادة واسعة فهي لا تحتوي الا عددا من الجُمل محددا ، اذ أنها ، تحديداً ، منتهية . ولهذا ، نرى أن لزاما على القواعد ان تكون قادرة على التنبؤ بعدد جُمل لا حصر له ، على الرغم من ان هذه الجُمل ليست مشتملة في المادة . ثم لا بد لها أيضا ان «تُسقط المادة المنتهية للبيانات المدروسة المعاينة ، تلك التي تكون في الأغلب الأعم مادة عرضية الى حد ما ، نقول لا بد من اسقاط المادة على جُماع الجمل القواعدية (ونريد بذلك مجموع ما يُقدر أنه غير منته) (117) ولكن ما يعترض سبيلنا هنا هو أن المادة تحتوي فضلاً عن التبدلات اللهجوية أو الاسلوبية تحتوي تكراراً وتردداً وأخطاء عدم انتباه ، نقول هذا بَله النواحي الذاتية التي قد تتبدى بشكل أو بآخر ، وهذه جميعا تُعزى الى دراسة الاداء .

٣ ـ ان جملة قواعدية لا تُشبّه بأخرى صحيحة :

ان شومسكي ، على ريادته في هذا المجال ، لم يبرز هذا الفارق الأخير ، ولهذا ، فنحن مسوقون للاستشهاد ، بالأمثلة التي جاء بها روفيه تدليلا وتفسيراً لتصور الصحة :

a - je n' ai rien vu

b - je n' ai vu rien   لم أر شيئا

c - j' ai rien vu

d - j' ai vu rien.

إن الجملة a بحسب القواعد المعيارية تعتبر وحدها صحيحة ، على الرغم من اعترافنا بوجود عدة مستويات للغة مرتبطة بالتبدلات الاسلوبية ، ونعني بهذا بتغيرات خطاب المتكلمين تبعا لشروط التبيين énonciation أو لما يعرف بإصدار البيان énoncé (أسلوب رفيع ، جيد ، عادي ، شعبي ، سوقي . .) .

ولكن ، لو تأملنا قليلا الجُمل السابقة ، وذلك من الوجهة المعيارية ذاتها لرأينا ان الجملة a هي وحدها أيضا قواعدية في منظور اللغة الكتابية او تلك المحكية

(117) نوام شومسكي ، المرجع السابق ، ص 17

المعتنى بها ، وان الجملةc هي وحدها قواعدية بحسب اللغة المحكية الدارجة ، غير اننا مع ذلك نستطيع القول ببساطة ان هذين النمطين من القواعد يستثنيان الجملةb والأخرىd .

٤ ـ ان جملة قواعدية لا تشبه بجملة احتمالها الاحصائي هو من درجة مرتفعة (118) اذ أن الاعتبارات او التقديرات الاحصائية لا تقوى على بناء تصور القواعدية . ثم انه ليبدو صعباً إقامة علاقة ذات معنى بينقواعدية جملة ما وامكانية ورودها في نصّ ما بشكل كبير أو صغير . ولنا في المثال الذي يرمي به شومسكي تفسير لما نأخذ به هنا :

« Le ----- est fragile» (أي : ال ـــــ سريع العطب) . يرى شومسكي انه ربما كان للكلمتين gorille (أي غوريلا) وde درجة تواتر واحدة تساوي الصفر بحسب التجربة الاجتماعية . ولكن ، وعلى الرغم من هذا ، فإن جملة le gorille est fragile على غرابتها الدلالية هي أكثر قواعدية من جملة le de est fragile

ان شومسكي بعد تعليله هذا يلخص رأيه قائلا : «ببداهة ، ان قدرة الفرد على انتاج بيانات قواعدية أو قدرته في التعرف عليها ليست مبنية على مفاهيم وتصورات مقاربة احصائية أو على تصورات اخرى هي من الطبيعة ذاتها . ان العادة في تسمية الجملة القواعدية الممكن مصادفتها او تلك التي تكون ممكنة في حدّ ذاتها قد أدت الى بعض الالتباسات»(119) .

14. 2.2.2. القواعد التوليدية : مهامها

لا قيمة للقواعد أيا تكن ان لم تكن مُلائمة adéquat للأفق الذي تنتمي اليه ، وبكلام آخر ، ان القواعد لا بد ان تخضع لشرطين اثنين يدفعان بها لتقديم وصف معمق شمولي للغة التي تنوي دراستها ، وهما : الملاءمة الوصفية والأخرى التفسيرية .

---

(118) نوام شومسكي ، المرجع المذكور ، ص18

(119) نوام شومسكي ، المرجع المذكور ص19

14. 2. 2. 2. 1 الملاءمة الوصفية

أ ـ بيان الجُمل القواعدية

ان هذا المعيار التقويمي يدل دلالة قاطعة انه لا يمكن للقواعد وذلك حتى تكون ملائمة على المستوى الوصفي الا ان تبينّ حقيقة الجُمل القواعدية دون غيرها .

ب ـ وصف الفئات القواعدية

ان الملائمة تعني قبل كل شيء صفة جوهرية لا بد ان تحظى بها القواعد حتى تكون فاعلة في ميدانها ، ولهذا فان لها ان تستخرج مراتب عبر الفئات القواعدية التي تدخل في العلاقات التركيبية (اسم ، فعل ، صفة ، ظرف الخ . .) كما يطلب اليها ايضا تحديد وتمييز مراتب اخرى من مثل مراتب الاسم كأن نقول : مذكر/ مؤنث ، مجرد / حسي ، حي/ جامد ، مشترك/ عدد، معدود / غير معدود . .

ج ـ وصف معنى الجُمل

ولكي تتم الصورة المتوخاة للقواعد فان عليها فضلاً عما تقدم ، ان تعرض وصفا لمعنى الجمل وان تبينّ مثلا ان دور كلمة oiseau (أي عصفور) في l'oiseau mange les cerises (أي يأكل العصفور الكرز) مباين عن دورها في L,oiseau est mangé par le chat (أي العصفور اكله القط) .

14. 2.2.2.2. الملاءمة التفسيرية

يبدو لشومسكي أن نمط الملاءمة الوصفية adéquation descriptive الذي سبق القول فيه آنفا ضعيف وقاصر ، ذلك أنه يمكن لقواعد مختلفة للغة واحدة ان ترقى الى درجة الملاءمة هذه ببساطة ومن غير أي تعقيد . وبكلام آخر ، نقول انه لسهل علينا ان نُسلم ايدينا الى عدد كبير من القواعد القادرة على وصف جُمل عديدة يكون قبولها ضعيفا . ولهذا فان نمط الملاءمة الوصفية هذا هو ما تتميّز به القواعد التركيبية grammaire syntagmatique . ولهذا كله مجتمعا يحلو لشومسكي ان يؤكد أنه ليجدر بنا الوصول الى درجة اكثر تجريدا وقوة وصولا الى درجة التفسير الذي نحاول بطريقة أو بأخرى ان نحدث أنفسنا بالوصول اليه . وهذا يدفعنا أخيرا الى القول : يُفترض على القواعد أن تبرز جانب اللغة التوليدي .

آ ـ وصف بعض الالتباسات

يُصر هذا المنحى على أن تأخذ القواعد التوليدية في حسابها أولاً تفسير الغموض الذي توحي به بعض الجمل التي يقدّر لها ان تدرك بأوجه مختلفة ، ولهذا ، لا بد من تعرية اللُبس في الالية التي تولد الجملة التي يختزنها الالتباس . ولنا في المثال الفرنسي الاتي ان نفسر شيئا من ظاهرة الالتباس هذه :

1- J' ai loué استأجرت

2 - J' ai loué أجرت

3 - J' ai loué une belle cuisinière (de fabrication française) (أي طباخة جميلة ، من انتاج فرنسي)

4 - J' ai loué une belle cuisinière (d'origine antillaise) (أي طباخة جميلة أصلها من جزر الأنتي)

ان كلمة cuisinière تعني في المثال رقم ٣ أداة او أنية طبخ ، في حين انها تعني طاهية في المثال رقم ٤ .

ب ـ وصف بنية متماثلة في جمل مختلفة التركيب

إن وظيفة القواعد التوليدية لا تكمن وحسب في إزاحة الغموض وتعريته في الجمل ، بل تنحو منحى اخر وهو سعيها في تفسير تصوّر أنماط الجمل وألوانها ونعني بذلك ان عليها أن تبينّ مثلا التساوي بين الجملتين الفرنسيتين التاليتين :

1 - Le pyromane a incendié la forêt

(أي : احرق محُب النار الغابة) .

2 - La forêt a été incendiée par le pyromane

(أي : الغابة أحرقها محب النار ، وهذه الصيغة تقابل صيغة المجهول في الفرنسية) أو التساوي بين الجملتين الاخريين :

3 - les deux grands sportifs que je viens de rencontrer dans le jardin ont remporte

. des médailles d'or aux jeux olympiques

(أي أحرز الرياضيان الكبيران اللذان صادفتهما في الحديقة مداليات ذهبية في الألعاب الأولمبية) .

4- Le marchand ferme sa boutique

(أي : يغلق البائع حانوته) .

ج ـ وصف بُنى متباينة في تراكيب مشابهة

إضافة الى ما تقدم لا بد للقواعد التوليدية تفسير جملتين تبدوان متشابهتين على الرغم من ان لهما بُنى مختلفة :

1 - Le président lit tous les journaux

(أي : يقرأ الرئيس كل الصحف) .

2 - Le president lit tous les jours

(أي : يقرأ الرئيس كل الايام) .

د ـ وصف قربى بعض الجُمل

وعلى القواعد التوليدية أخيرا ان تفسر أواصر القربى في جمل تبدو ظاهريا متباينة ولكنها ترتبط بخيوط من الصلة فيما بينها تنسجها نماذج مشتركة :

1 - Les touristes virennent à Paris en septembre.

2 - Les touristes ne viennent pas à Paris en septembre.

3 - Les touristes viennent – ils à Paris en septembre.

(أي «يأتي السواح الى باريس في شهر أيلول» في صيغ التأكيد والنفي والاستفهام) .

14. 2.2.3 نموذج «النظرية المثال»

كان شغف شومسكي الالسني يقوده الى البحث عن ايجاد «نظرية بُنى ألسنية دون الرجوع الى لغة معينة» مطلقاً على محاولته هذه اسم نظرية «القواعد» تلك التي يشكل النحو syntaxe عنصرها المركزي .

اننا لقادرون هنا على تمثيل الاطار العام لتفكير شومسكي هذا الذي ارتقى به الى «النظرية المثال» théorie standard بالرسم الممثل على الصفحة التالية .

14. 2.2.3.1. القواعد : مُركباتها

تنقسم القواعد الى أقسام ثلاثة هي : المركب النحوي composante

نموذج «النظرية المثال» théorie standard

syntaxiqne والمركب الدلالي sémantique والمركب التصويتي phonologique وسوف نحاول بيان كل قسم منها بشكل مقتضب على الشكل التالي :

14. 2.2.3.1. المركب النحوي

اذا أردنا تعريف المركب النحوي قلنا إنه المركب الذي يشتمل القوانين التي تقوى على تحديد جُمَل اللغة القواعدية والممكنة . غير ان النحو نفسه ليتكون متشكلا من **القاعدة** base **أولا والتحويلات** transformations **ثانيا** :

١ ـ القاعدة : وهي مُركب تحتي يحدد البنى الاساسية وهي تتألف من القسمين التاليين : المركب الفئوي composante catégorielle والفهرس lexique .

ـ المركب الفئوي : ويتعلق بالفئات القواعدية من مثل الاسم والفعل والصفة الخ . . وبالبُنى النحوية تلك التي تتموضع عبر جملة قوانين مبنية شكليا ، محددة العلاقات القواعدية القائمة بين العناصر التي تتركب منها البُنى العميقة structures profondes ممثلة برموز فئوية ان هذا المركب الفئوي يحتوي بدوره على :

١ ـ الفباء أو أبجدية رموز : فهناك رمز أوليّ يمثل الجُملة ، كما أن هناك رموزراً فئوية تمُثل الفئات القواعدية من مثل :

ت إ = تركيب اسمي ف = فعل
ت ف = تركيب فعلي أد = أداة
إ = اسم ز = زمن
حا = حاضر الخ

٢ ـ قوانين اعادة كتابة réécriture , rewriting تعمل على الرموز وتساعد على توليد متتاليات فئوية يشد بعضها البعض مؤشر تركيبي indicateur syntagmatique وهذه القوانين تقدم بشكل أوامر تهدف الى تحويل الرمز الى رمز آخر . فهكذا ، اذا كان لدينا القانون التالي : P→SN + SV ج ← ت إ + ت ف ، فان ذلك يعني ان

الرمز ج ، أو نواة الجملة ، يجب أن تعاد كتابته ← أو يحوّل الى متتالية مشكلة في تركيب اسمي syntagme nominal (SN)

ت إ ، ومتبوعة بتركيب فعلي ، ت ف ، Syntagme verbal (SV).

إن القوانين التالية ، بحسب ما تقدم شرحه :

ج ← ت إ + ت ف

ت ف ← ف + ت إ

ت إ ← أد + إ

توصلنا الى التحويلات التالية :

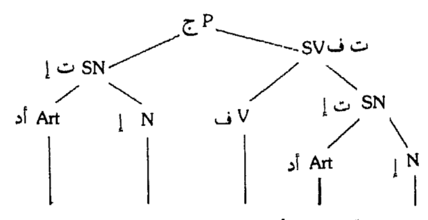
ت إ + ت ف

ت إ + ف + ت إ

أد + إ +ف+ ت إ

أد + إ+ف+ أد + إ

هذا ، ويمكننا تمثيل هذا التحويل بالشجرة arbre او لنقل بالمؤشر التركيبي التالي :



٣ـ قوانين تجزئة فئوية تحتية وهي تُسهم في التمييز بين الفئات التحتية sous-catégories في الفئة الواحدة . فإذا ما أخذنا مثلا فئة الاسم ، وجدنا فيه الفئات التحتيّة التالية :

اسم
- اسم علم
- اسم شيء
  - اسم معدود
  - اسم غير معدود

ـ الفهرس : وهو يشكل المركب التحتي الثاني في القاعدة ، وهـو مجموعـة عبارات أو كلمات (أو لنقل مداخل فهرسيّة) تكوّن معجم اللغة . إن كل كلمة تُحدّد بفعل سمات تصـويتية phonologique ونحـوية syntaxique ودلالية sémantique .
ودور القواعد الفهرسية يكمن في عملية ادخال كلمة ما في البُنية . ومن هذا القبيل ، نجد أن المدخل الفهرسي المتميّز مثلا بالسمات التالية : + مشترك + حـيّ + بشري + حسي + معدود + مذكر + ذكر + بالغ الخ . . . نقول ان مدخلا من مثـل هذا المدخل لتستقطبه كلمات من مثل «مُعَلِّمٌ» التي تتمتع بكل هذه الميز . هذا واذا كان للقاعدة أن تحدّد أنساق combinaison الرموز الفئوية ، فإن القوانين الفهرسية تسعى إلى تبديل هذه الرموز واضعة موضعها عبارات المعجم الموائمة .

إن المُركب القاعدي هذا ، ذو مستوى شكلي يُكوّن ما يدعى بالبنية او بالبُنى العميقة structures profondes للجملة ، ونعني بذلك تنظيمها المجرّد . وقـد حدّد شومسكي هذه البنية بأنها «منظومة مقولات لا تتقابل نقطة نقطة والغرض الفيزيائي المنتج فِعلا وحقيقة» (120)

ب ـ التحويلات

ليست التحويلات transformation سوى قواعد تساعد على الانتقال من المستوى المجرد للبنى العميقة الى مستوى آخر هو الشكل النهائي للجملة أو بالأحرى للبنية السطحية . فهذه الفئة التحتية التحويلية للنحو (او المُركب النحوي) هي ما يحدّد القواعد الكفيلة بتقديم بيان للبنى السطحية في تنوعها اللا محدود ، قياسا الى العدد المحدود للبُنى العميقة .

لا شك أن للتحويلات أكثر من نموذج ولكن حسبنا أن نعرض شيئا منها :
ـ التحويل بالقَلب : ويقوم على نقل مكوّن ما في الجملة الاساسية ج

(120) N.Chomsky, Cartesian Linguistics, New York. and London, Harper and Row, 1966. p.35.

ـ التحويل بالحذف : وينهض على حذف أحد مكوّنات القاعدة .
ـ التحويل بالتبديل : ويجمع بين القلب والحذف .
ـ التحويل بالجمع : وهو لا يفترض اي تغيرّ في المعنى .

ان الأمثلة وحدها هي ما يمكن أن يسهم في شرح عمل المُركب النحوي ، ولهذا فسوف نمّد يدينا اليها الآن لبيان ذلك ؛ لنأخذ المثال التالي : ان القاعدة تحدّد القوانين المساعدة على التوليدات التالية :

١ ـ المسافر يسمع شيئا — 1- Le voyageur entend une chose

٢ ـ القطار يُصفر — 2- Le train siffle

إن المركب التحويلي للنحو يحدّد جملة القواعد التي تفضي إلى :

٣ ـ المسافر يسمع أن القطار يصفر — 3- Le voyageur entend que le train siffle

٤ ـ المسافر يسمع القطار يصفر — 4- Le voyageur entend le train siffler

وانطلاقا من كون القاعدة الفئوية هي التي تحدّد الرموز ، فإننا نحصل في الجمل 2,1 على متتالية الرموز التالية :

1- Art$_{+}$ N$_{+}$ Prés$_{+}$ V$_{+}$ Art$_{+}$ N

2- Art$_{+}$ N$_{+}$ Prés$_{+}$ V

هذا ، وبفضل القواعد الفهرسية فإننا سنحظى بسلسلة من التبديلات التي تنبثق أمامنا ، ففي الجملة رقم 1 سيحل الاسم voyageur محلّ الرمز N ، والفِعل entend محلّ الرمز V . وفي الجملة رقم 2 . إن الأداة le ستتموضع موضع الرمز Art ، والاسم train محل N . نزيد على هذا إننا اذا طبقنا القواعد الفهرسية كافة ، كان لدينا البنى العميقة :

1. Le$_{+}$ voyageur$_{+}$ Tps$_{+}$ entendre$_{+}$ une$_{+}$ chose

2. Le$_{+}$ train$_{+}$ Tps$_{+}$ siffler

وهذه البَنى العميقة ستخضع بدورها لقواعد التحويلات فتقدم النموذج التالي :

3. Le + voyageur + entendre + Tps + le + train + siffler

إن دور المركب الدلالي هنا يمنح المجموع عامة معنى ما وذلك على مستوى البنية العميقة ، كما ان المركب التصويتي phonologique سوف يفسر عبر قواعد تصويتية هذه البنية العميقة ولكن على مستوى آخر هو مستوى البنية السطحية .

14.2.2 3.1.2. المركب الدلالي

يمثل المركب الدلالي المركب الثاني للقواعد ، وهو يهدف الى تبيين القواعد المساعدة على تفسير الجمل المولدة بفعل المركب النحوي تفسيرا دلاليا . وهذا التفسير المولّد يعمل على العلاقات القواعدية التي تحدّدها البُنى العميقة . ويبني هذا التفسير معنى الجملة العام انطلاقا من مدلولات العناصر النهائية المبيّنة على المؤشر التركيبي indicateur syntagmatique .

يقوم المركب الدلالي هذا على فرضية جوهرها أن «الآلية التي يُفسرّ بها الفرد الناطق كل جملة من جمُل مجموعة منتهية ، انمّا هي آلية تركيبية نصل بها الى معنى كل مكوّن معقد نحويا كوظيفة لمعاني اجزاء هذا المكوّن»(121) (انظر الشكل التالي) .

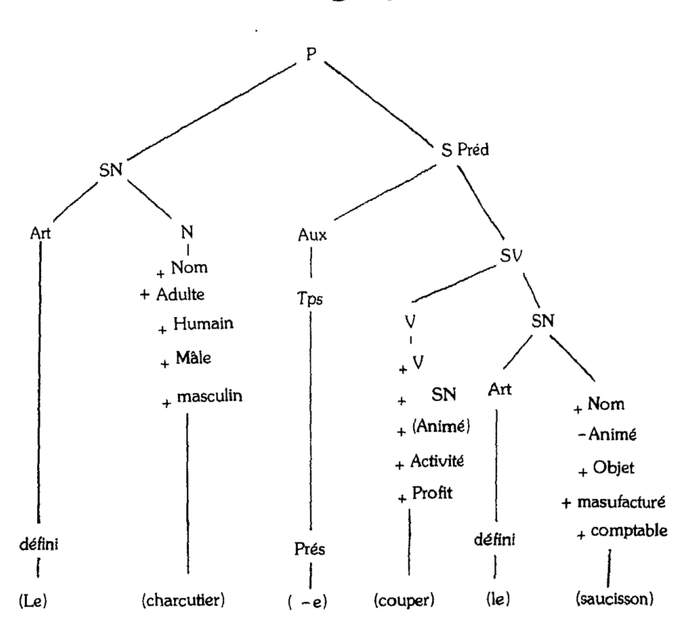
14.2.2.3.1.3. المركب التصويتي

يَعْقدُ المركب التصويتي الجزء الثالث للقواعد ، طامحا الى الكشف عن القواعد المساعدة على تحقيق الجُمل المتولدة بفعل المركب النحوي في أصوات لغة معينة . وفي هذا الجانب يبدو لنا أن المهم في نظر القواعد التوليدية هو بيان الشكل

(121) J-J. Katz, The Philosophy of Language, New York, Harpér and Row, 1966, p.152.

الصوتي لجملة ما أو للفظها وذلك انطلاقا من سلسلة فرضيات متعلقة بالبنية الخفية لهذه الجملة التي هي موضع الدراسة . وهذا المركب يمثل لدى شومسكي الحيّز الذي كان ، تقليديا ، مخصصا للصوتية phonétique والتصويتية phonologie والصرف morphologie . ومن هذا الجانب فهو يُدعي احيانا بالمركب التصويتي - الصرفي morpho phonologique نزيد على ما تقدم أن المركبين الدلالي والتصويتي ليسا سوى مركبينَ تفسيرين ليس غير .

هذا ، واذا أردنا أن نلتمس توضيحا لعمل هذا المركب الدلالي ، طفنا بالمثال الآتي الذي يقوى على بيانه بشكل جليّ واضح :



14.2.3. النحو الوظيفي

إذ ذكرت الوظيفية كتيّار ألسني ، ذكّر معها الألسنية السوسيرية التي ترجع الى مؤسسها فردينان دو سوسير . إن الوظيفية تشدّد فيما تشدد على وظيفة اللغة ، وبلغة أخرى على المرامي التي تصدر بفعلها البيانات أو الأقوال أو الجُمل . ولا غرابة في هذا ، فاللسان يطمح دائما إلى مساعدة المتكلمين أفرادا أو جماعات على تناقل المعلومات فيما بينهم .

إن الألسني لا ينقاد في مهمته الى الاهتمام بالعلائق التي تبنى بين العناصر الألسنية وحسب ، بل الى بيان ، وذلك بشكل خاص ، وظيفتها في عملية التواصل communication . ذلك أن وظيفة العناصر هي منطلق جوهر التفكير الوظيفي ، فضلا عن أن الوظيفة هي «سبب وجود البُنية» . ولهذا كلّه ؛ لابد من دراستها من خلال البُنية ذاتها . ويزيد في هذا الاتجاه من الدراسة أنّ اللغة إنّما تحدّد ببنيتها ، ومن هنا فهناك علاقة جدلية بين مفهومي البنية والوظيفة معا ، إذ أن «وجهة نظر بنيوية لابدّ من أن تفترض وجهة نظر وظيفية»(122) واذا كنا حراصا هنا على توكيد هذا الأمر فما ذلك إلاّ لأنه يُسهم في وصف هذه الألسنية بأنها بنيوية ووظيفية في وقت .

لعلّ اندريه مارتينيه هو الوجه الأكثر اشراقا في مجال المدرسة الوظيفية . ولهذا فسوف نمرّ بأبرز تمفصلات تفكيره المرتبط بالنحو ارتباطا قويا .

14.2.3.1. كيف يرى مارتينيه النحو

إذا كان للوظيفية من سمة تتميّز بها وتتجلّ عند مارتينيه فهي أنها واقعية من الدرجة الأولى ، فهو ينطلق دائما من الوقائع وعنها يصدر ، محاولا بناء نموذج تجريبي

---

(122) اندرية مارتينيه، André Martinet, Structure et langue in Revue International de Philosophie, n 73-74, fasc 3-4, 1965, p 292

استنتاجي يتفق ومعاينة الوقائع . إن هذه الواقعية هي نفسها التي قادت مارتينيه لملاحظة أن تحليل بيان ما (أي جملة ما) الى وحداته التمييزية ، اي الصوتيات phonèmes ، هو تحليل غير قابل للنقل بما هو عليه وذلك إذا أردنا تحليل وحدات البيان نفسه النحوية . ومن هذا تطرح مسألة اختيار choix المتكلّم عناصر رسالته

إن هذا الاختيار يتمّ على مستوى التمفصل المزدوج (أ . 6.2.5) فعلى مستوى التمفصل الأوّل ، يختار المتكلّم بين كلمة وأخرى : أمّا في حال التمفصل الثاني ، فانه يصطفي منتقيا ومختارا بين صوتيم وآخر . وهذا الاختيار هو ما يستطيع أن يشكل الواقع الألسني ويمثله خير تمثيل وتشكيل معا .

إن تصوّر التمفصل المزدوج هذا هو ما دفع بمارتينيه الى ايجاد مجالين اثنين للوصف الألسني ، أولهما : مجال التصويتية التي تعتمد دراسة الصوتيات وتجدولها محدّدة في ذلك سماتها التمييزية ، وثانيهما : النحو الذي يتموضع هدفه بالاهتمام بوحدات التمفصل الأول أي الوِحْدِيمَات monèmes عامدا الى جردها وتصنيفها من خلال السياقات التي تقوى على الظهور فيها ، مبيّنا ، فوق ذلك ، ما يطرأ عليها من تغيرات دلالية في سياقات مختلفة مع تحديد وظيفة كل منها في البيان (الجُملة) .

بيد أن هذه الثنائية التي قام بها مارتينيه لم تصدفه عن القبول بتصور دراستين أخريين هما : أولا الصوتية phonétique المحدِّدة للسمات غير التمييزية المصاحبة لسمات الصوتيات التمييزية ، وثانيا ثمة ما يُعرف بالصرف الذي يعرّفه بأنه «دراسة تحولات الدال / . . . / التي تتمّ في إطار الكلمة التقليدي»(123) إنّ ما دعا اليه مارتينيه وقام به له ولا شك ما يسوغه اذا ما قرّبنا التغيرات الصرفية من الدينامية البنيوية للمجموعة . وهذا يقودنا بدوره الى أن نضع أيدينا على نوعين للصرف اثنين : صرف تركيبي يهتّم بالتغيرات الشكلية للوِحْدِيمات الحاصلة على المستوى التركيبي syntagmatique ، وصرف آخر فهرسي lexical يُعالج التغيرات الشكلية المسجلّة من خلال الاشتقاق والنحت .

---

(123) اندريه مارتينيه ، عناصر في الألسنية العامة .

Eléments de linguistique générale, Paris, A.Colin, 1973, P.106.

14.2.3.1.1. الوِحديمات : فئاتها

يرمي النحو syntaxe ، فيا يرمي ، إلى وصف الوسائل التي قيد للغة أن تضعها بين يدي الفرد الناطق ليختار منها ما يناسبه من وحديمات (ج. وِحْديم monème) . إن الوحديمات هذه هي الوحدات الدلالية الصغرى التي تشتمل على دال ومدلول معا . وفي هذا المجال ، يقترح مارتينيه تصنيفا ثلاثيا لها مبنيا على تصوّره للاستقلال الصرفي autonomie morphologique :

١ ـ الوحدِيمات المتمتّعة باستقلال ذاتي antonomes ، وهي التي تكمن فيها وظيفتها مثل الوحديم hier أي أمس في : أمس ، كان عيدٌ في القرية «Hier, il y avait fête au village» ومثل demain غدا ، وسريعا الخ . . .

٢ ـ الوحِديمات الوظيفية ، fonctionnels ، ونعني بها تلك التي تقوى على الحفاظ على استقلال وحديمات أخرى تدخل معها في نسق واحد مشيرة بذلك الى وظيفتها مثل الحرف à في : اشترى هدية لخطيبته «Il a acheté un cadeau à sa filancée» ان الوِحْديم à و لـِ في العربيةيبينّ ويشير إلى وظيفة الكلمة fiancée أي خطيبة .

٣ ـ الوحديمات التابعة dépendants ، وهي الوحديمات التي يمكن لها أن تكون مستقلة من غير أن تكون مدعوة لاقامة علاقة مع بقية اجزاء الجملة ، وهذا النوع من الوحديمات له القدرة على أن يحظى بوظائف عديدة . هذا ، وإذ قلنا عنها إنها تابعة فهذا يعني «انها تتبع في اشارتها الى علاقتها مع باقي الجملة وحديما وظيفيا او موقعها قياسا الى عناصر الجملة الأخرى» (124) . وهذا هو واقع الوِحديْم village أي قرية في المثال الذي أشرنا اليه سابقا .

إن مارتينيه يطمح من جديد الى استعادة التقابل التقليدي بين ما نقترح تسميته بالدَلاليم sémantème travaill (أي الجذر تقليديًا) والصرَفيم

---

(124) اندريه مارتينيه ، المرجع نفسه ص ١١٨

ons (morphème) في كلمة travaillons أي نعْمَلُ، شفعا منه في التمييز بين الوحديمات القواعدية (الصرفيات) المنتمية الى جدول مغلق ، ونعني بلك القواعد (الأزمنة ، الأدوات ، الضمائر الخ . .) والوحديمات الفهرسية (أي الفِهْرَسَات ج فِهْرَسَة lexèmes) تلك التي تغاير الأولى بكونها منتمية الى جدول مفتوح اي الى الفهرس lexique (ما تشتمله اللغة من كلمات) .

14.2.3.1.2. المُسند

رأينا من قبل ان التحليل الوظيفي ينهض على تصنيف عناصر بيان ما أيا تكن هذه العناصر وأيا تكن درجة اختلافها ، وذلك في اطار وأفق محدّدين ، بشكل يسمح بابراز طبيعة العلاقات القائمة والموزّعة بين هذه العناصر .

إنّ النحو في نظر مارتينيه مبنيٌ حول تصوّره للمسند prédicat ، واما منهج العمل وآفاق البحث فتبنى على اصطفاء عنصر مركزي من عناصر التجربة البشرية . هذا من جهة ومن جهة أخرى إن الوحديم هو الذي يستوفى ، او هكذا قدّر له ، هذا الشرط الذي ، كما يبدو لنا ، الأساس والمنطلق في البيان انمّا يُشار اليه بتركيب اسنادي syntagme prédicatif

وفي المثال «Hier, il y avait fête au village» ان التركيب il y avait fête اي «كان عيدٌ» هو العنصر المركزي للبيان فهو وحده المُستقبِل لعلاقات التبعية كلّها ، وهو ليس بتركيب مستقل استقلالا ذاتيا وحسب ، بل هو تركيب حرٌ كذلك ذلك أنّ «المقطع il y avait fête يقوى وحده أن يكوّن الرسالة وهو ليس ملزما ان يبينّ علائقه بما يلحقه من إضافات محتملة» (125) امّا au village, hier فليس لها من دور إلاّ في منح البيان المزيد من المعلومات .

---

(125) اندريه مارتينيه ، المرجع نفسه ص ١٢٤ .

غير ان العنصر الذي تتمخض عنه تجربتنا لا يصبح رسالة ألسنية إلاّ عبر سياق ما ونعني بهذا الأخير وجود وحديمين على الأقل تقوم وظيفة كلّ منهما على تحيين الآخر ، أو على وضعه في عملية إرجاع référence مع موقف حسّي . actualisation وها نحن مرّة اخرى نصدر عن مثال مارتينيه لبيان ما نذهب اليه ، وهكذا فإنّ fête هو الوحديم الحامل للرسالة وأن il y avait هو المُحَيِّنُ actualisateur ونُفسرّ هذا الأخير بأنه العُنصر الذي يعمدُ الى تحيين الرسالة وموضعتها في المكان والزمان سياقيا .

14.2.3.1.3. التوسع

لا شك أن مارتينيه كان حذقاً وحصيفا في معالجته لتصوّر المسند اليه في التقابل التقليدي مسند اليه / مُسند ، (أو مبتدأ/ خبر) ، فهو لم ينو رفضه بل يحاول الوصول الى حلٍ آخر وذلك حينا يذهب الى دمج هذا المفهوم في مفهوم آخر هو التوسع expansion إنّ التوسع ، من الجانب المنطقي ، هو ما لا لزوم له ، وهذا يعني أنّه «كل عنصر يضاف الى بيان من غير تغييره للعلاقات المتبادلة ووظيفة العناصر الموجودة قبل إضافته» (126) وهكذا ، فالبيان الذي يبقى بين أيدينا ، وذلك بعد حذف كل ما هو توسع يعرف **بالنواة** او لنقل **بالبيان الأصغر** énoncé minimal إن هذه النواة لتتكون دائماً من وحديميين يكون احدهما مسنداً اليه والآخر مسنداً يتعارض وجميع المعقولات الأخرى .

ولبيان ذلك ما لنا إلاّ أن نعرض المشكلة عبر الأمثلة ، فالأمثلة هي وحدها القادرة على تأكيد ذلك لنأخذ المثال التالي :

يرسم الفنان لوحة — L'artiste peint un tableau

ان un tableau اي لوحة تشكل توسعاً للتركيب الاسنادي يرسم الفنان

(126) اندرية مارتينيه ، المرجع نفسه ص ١٢٨ ـ

L'artiste peint ، وartiste هي جزء لصيق بالتركيب ذاته ، اي المُحَيِّنُ ، لاتشكل أي توسع .

ولكن كيف يتمّ التوسع هذا ؟ إجابة عن هذا نقول : ثمة طريقتان اثنتان تسمحان ببلورة وتكوين التوسع وهما العطف أولاً والتبعية ثانيا .

إن التوسع بالعطف ليقوم على اضافة عنصر تكون وظيفته متماثلة ووظيفة العنصر الآخر الموجود قبله في الجملة . لنأخذ المثال التالي : «يحُبّ جاري المسرح» ففيه يمكن لنا الحصول على توسع عطفاً وذلك باضافة الوحديم «السينما» مثلاً بعد «المسرح» شرط ألاّ ننسى إلحاق الوحديم ـ واو ـ الذي يشير الى العطف وهكذا يكون لدينا : «يحبّ جاري المسرح والسينما»

امّا التوسع الآخر ، ونعني به التوسع بالتبعية ، فهو يتمّ ويتبلور عندما يفتقر العُنصر المضاف لوظيفة العُنصر النحوية الموجود قبله . وهكذا ، فإن العُنصر التبعي قد يلحق ، مضافاً ، الى السلسلة الكلامية اياً تكن النقطة التي يتموضع عليها ، فضلا عن اتخاذه اشكالاً متباينة :

يرسم الفنان
يرسم الفنان لوحة
يرسم الفنان لوحة سريعاً
يرسم الفنان العجوز لوحة سريعاً
يرسم الفنان العجوز لوحة سريعاً بريشة ناعمة
يرسم الفنان العجوز لوحة سريعاً بريشة ناعمة عندما يهبط الظلام الخ . . . .

▲ ▲ ▲

15.
الألسنية البنيوية . المدارس الكلاسيكية

ربما كانت الألسنية البنيوية المخاض الكبير للألسنية العامة ، ولكن يجدر بنا أولا أن نلج في أفق المدارس والتيارات الكلاسيكية للألسنية البنيوية الأمر الذي يستجرّنا أخيرا الى الوقوف أمام تيارين اثنين دافقين لها ، وهما أولاً الألسنية الاوروبية والأخرى الامريكية . إن المدرسة الاولى ، الاوروبية ، لتشمل في مداها على مدرسة كوبنهاغن والمدرسة الفرنسية ومدرسة براغ ، وأما الثانية فتحضن مشتملة ، التوزيعية والتوليدية في وقت واحد .

اننا مدعوون الان ، وهذا ما يفرضه صنيعنا هذا ، أن نعالج ولو قليلا ومقتضباً كل واحدة من هذه المدارس لنرى أين تتفق وأين تختلف ، راصدين بذلك نقاط الايجاب والسلبية لكل منها ، في محاولة اعتصار للحقيقة الألسنية التي رانت على جماع هذه المدارس كافة .

15. 1. الألسنية الأوروبية

يجب الاعتراف أن المداس البنيوية على اختلافها قد انبثقت كلها من بين دفتي كتاب سوسير «**محاضرات في الألسنية العامة**» أيا تكن درجة التأثر بهذا الكتاب ، وعلى كل ، اننا لقادرون بسهولة أن نضع أيدينا على مفارق ثلاث مدارس كلاسيكية للألسنية البنيوية ، تلك التي خرجت بشكل أو بآخر من الأصداء التي ولدها الكتاب الألسني الأول ، ونعني كتاب سوسير .

15. 1. 1. مدرسة براغ

كان فيليم ماتيزيوس Vilem Mathesius أوّل من رفع راية هذه المدرسة إذ دعا عام ١٩٢٦ الى تأسيس حلقة ألسنية عرفت فيما بعد بمدرسة براغ . وقد قيد لهذه المدرسة أن تستقطب جمهرة من ألمع لغويي ذلك العصر نذكر منهم الألسنيين الروسيين **نيقولاي سرغيفيتش تروبتزكوي** Nicolais. Troubetzkoy **ورومان جاكوبسون** Roman Jakobson اللذين استبدت أعمالهما بآفاق المدرسة كلها جملة وتفصيلاً ، داعيك عن الأصداء التي خلفاها في غيرها من المدارس العالمية الأخرى .

وفي «**المؤتمر الدولي الأول للألسنية**» الذي انعقد في لاهاي عام ١٩٢٨ ، عرض هذان الالسنيان طروحاتهما التي لاقت صدى بعيدا لدى الآخرين . وفيما بعد بعام واحد قدمت «حلقة براغ» هذه الجزء الأول من اعمالها ، وذلك في «**مؤتمر فقهاء اللغة السلافيين الأول**» وقد دارت أعمالها حول تسعة آفاق ألسنية كانت في واقع الحال عصارة بحوث جماعية شمولية للحلقة نفسها . وقد خصصت الأعمال الثلاثة الأولى منها لبرنامج يبينّ مراكز الأهتمام التي أولتها «الحلقة» المركز الأول في دراستها . وأمّا البحوث الستة الباقية فقد كانت متجهة الى مدار الأبحاث الألسنية في اللغات السلافية .

15. 1. 1. 1. طروحات «الحلقة»

يمكن القول ببساطة ويسر إن تصورات «الحلقة» كانت تخرج وتصدر عن جملة المقولات ، والآراء التي استقطبها الفكر السوسيري . فقد شددت هذه «الحلقة» على تعريف اللغة المنحدر من سوسير والقائل بأنها منظومة علامات ، كما شددت أيضا على وظيفة اللغة التواصلية والتركيز على منح الوصف التزامني للغة أولوية ذات بال وخطر .

هذا واذا أردنا استقراء الطروحات الثلاثة الاولى «للحلقة» لمسنا أنها تصدر في كل ما تصدر عنه عن معالجة بحوث وفق مواقف منهجية ، ويمكن ان نذكر من ذلك ما يلي :

١ ـ يشتمل الطرح الأول المفاصل الثلاثة التالية :

آ ـ انطلقت هذه المدرسة من دراسة اللغة بأنها «منظومة وظيفية» ونريد بذلك «منظومة وسائل تعبير يُناط بها غرض محدد» وبلغة أخرى نقول إن اللغة ، في شرع هذه المدرسة ، نتاج النشاط البشري وهي تنتقب بطابع الغائية ، أي أنها منظومة علامات تتفق وهدفاً معيناً واحداً . وهذه الغائية المرمي اليها إن هي الا تحقيق قصد المتكلم عبر التعبير عن تجربته الاجتماعية بكل عقدها وصولاً الى إبلاغ وإيصال هذه التجربة الى الآخرين .

ب ـ الاعتراف بمنهج التحليل التزامني للوقائع الحالية ، تلك التي تقدّم مادة متكاملة تامة ، وهذا التحليل ، في نظرها ، خير وسيلة لمعرفة جوهر وماهية وطبيعة لغة ما .

ج ـ لقد طمحت هذه المدرسة أيضا الى الأخذ بالمنهج المقارن ملحة على أنه ليجدر بل ليجب على هذا المنهج ألاّ يُستخدم لأهداف تزمنية وحسب بل لأغراض تزامنية أيضا بغية الكشف عن القوانين البنيوية للمنظومات الألسنية .

٢ ـ اما الطرح الثاني فيرقى الى المهام التي لا بد أن ننهض بها تجاه دراسة منظومة لغوية ما :

آ ـ يُصر هذا الطرح ، وخاصة فيما يتعلق بالجانب الصوتي ، على ضرورة تمييز الصوت من جانبين اثنين وذلك من حيث كونه :

١ ـ واقعة فيزيائية موضوعية متمثلة سمعياً .
٢ ـ النظر الى الصوت كعنصر في المنظومة الوظيفية .

وهو يرى أيضا أن مهام التصويتية التزامنية الجوهرية إنّما تبنى على :

١ ـ جرد الصوتيات وتعيين علاقاتها وصولا الى تمييز المنظومة التصويتية .

٢ ـ تحديد أنساق الصوتيات المحققة قياسا الى الانساق الممكنة التحقيق .
٣ ـ الحرص على تحديد درجة استخدام الصوتيات وأنساقها .
٤ ـ الاحاطة بوصف الاستعمال الصرفي للفوارق الصوتيمية (الصرف ـ صوتيمية morpho - phonologique .

ب ـ أمّا الجانب المتعلق بدراسة الكلمة ، ومجموعات الكلمات فهو يرمي إلى :

١ ـ نظرية التسمية الألسنية التي ترى أن الكلمة هي حصيلة ونتاج النشاط الانساني في التسمية ، ذلك ان الانسان هو من يقطع مجزئاً الواقع الخارجي ضمن عناصر ألسنية .
٢ ـ نظرية الطرائق التركيبية .
٣ ـ نظرية «منظومات صيغ الكلمات وصيغ المجموعات» أي الصرف . إنّ هذه النظرية لا تتقيّد بالنظريتين السابقتين بل تتقاطع معهما ، وبلغة أخرى يمكن القول أن الأمر يتعلق هنا بما يُسمى بالنظام الاستبدالي .

٣ ـ ان الطرح الثالث من هذه الطروحات ينزع إلى الاهتمام بالوظائف الألسنية أو بالاستعمالات اللغوية .

ومن هذا الذي تقدم يمكن الخروج بالنتيجة التالية وهي أن هذه الوظائف قادرة على تغيير البُنى الصوتية او النحوية كما أن لها أثرا واضحا في تعديل التركيب الفهرسي للغة ما . ولكن يجدر القول هنا : أنه لا بد علينا من التمييز وذلك من وجهة نظر اجتماعية لا فردية بين الوظيفة التواصلية والأخرى الشاعرية أو البويطيقية (أ . وظائف اللسان) .

15. 1. 1. 2. نيكولاي تروبتزكوي (١٨٩٠ ـ ١٩٣٨)

ينحدر تروبتزكوي من أرومة أمراء ، وقد تميّز منذ حداثة سنه بقدرة على التفكير مذهلة . وليس هذا بغريب اذا عرفنا أنه بين الثالثة عشرة من عمره والسابعة

عشرة استطاع أولا دراسة اثنوغرافية اللغات الفنلندية ـ الأغرية (المنتشرة في شرق أوروبا من فنلنداشمالاً الى هنغاريا جنوباً) . كما كان يحضر جلسات الجمعية الاثنوغرافية في موسكو ، وقد نشر خلال ذلك ـ وتحديدا في عامه الخامس عشر ـ أولى مقالاته ، ثم عكف على دراسة اللغات السيبيرية القديمة ولغات القوقاز الغربي .
هذا ، وما ان انهى دراساته الجامعية في الألسنية ، ونعني بها في ذلك الزمن القواعد المقارنة للغات الهندو أوروبية ، حتى غادر وطنه مُيمماً اسطنبول فدّرس في جامعتها ثم تحول منها الى صوفيا ، وأخيرا كان مكانه في فيينا حيث استدعته الجامعة ليتَسنَّم كرسي فقه اللغة السلافي . وقد كان ذلك بين عام ١٩٢٢ ـ ١٩٣٨ حين طرده النازيون على اثر استجوابات طويلة ومريرة . فضلا عن مصادرة أوراقه وكتاباته . ثم انتهى به القدر ، بعد أشهر قليلة ، بذبحة قلبية جاءت خلاصة لحياة موزعة بين العمل اللغوي الرصين والعبقرية الخلاّقة .

الحق يقال إن نتاج **تروبتزكوي** كان غزيرا وغنيا وموزعاً تحت ثلاثة وخمسين عنوانا وبلغات مختلفة . ولنا أن نذكر هنا أنَّ له ثلاثة وثلاثين عنوانا قد صيغت بالألمانية وعشرة بالفرنسية ، وسبعة في الروسية ، وثلاثة في الايطالية والانكليزية والبولونية ، أما الضربة الكبرى التي حققها في حياته ـ فضلا عما ذكر ـ انما تكمن في اخر مؤلف نشر بعد وفاته ، وفيه تتلامح حصيلة قواه التفكيرية بشكل علمي دقيق . إننا نريد بذاك كتابه «**مبادىء التصويتية**»(127) وهو كتاب موسوعي شمولي ، اذ يحتوي ، فيما يحتوي عليه ، على وصف حوالي مئتي منظومة تصويتية لجملة لغات متباينة . نزيد على ذلك ان هذا الكتاب هو الولادة الكبيرة لصنيع **تروبتزكوي** الفكري بصورة متميزة شكلا وموضوعا . ولكن يمكن القول ان مؤلفه هذا يحتضن جملة التصورات اللغوية التي صدرت عن حلقة براغ التصويتية مؤسسة بذلك ما يعرف بالألسنية «الوظيفية» ولكن علامَ تنهض نظرية **تروبتزكوي** ؟

إذا أردنا ان نضع أيدينا على الأطر التي تتموضع وتبتدى فيها هذه النظرية قلنا انها تنهض على تشكيل وإعداد مفهوم الصوتيم . «ان المحتوى الحسي للعناصر

---

(127) Grundzuge der phonologie, Prague 1939

وترجم الى الفرنسية J. **Cantineau**, **Principes** de phonologie, Paris, Klincksieck, 1949, rémpression 1957

التصويتية هو أقل أهمية من علاقاتها القائمة ضمن المنظومة ذاتها (المبدأ البنيوي للمنظومة التصويتية) ومن هذا تتأتى قاعدة المنهج : «لا بدّ من تمييز المنظومة التصويتية/ . . ./ وذلك بتخصيص العلاقات القائمة إلزامياً ، بين الصوتيات ، نريد بذلك رسم نموذج بنية اللغة المقدرة»(128) وليس هذا وحسب بل إن تروبتزكوي يذهب بعيدا في هذا المقام فيقول إنَّ الصوتيم هو «قبل كل شيء تصور وظيفي» وهو «الوحدة التصويتية التي لا تدع مجالا ، وذلك من وجهة نظر لغة معينة ، ان تُحلل ولا أن تنقسم الى وحدات تصويتية أصغر منها ومتتالية» هذا ، وعبر مقالة له ألمح تروبتزكوي الى أن «تحديد الصوتيم يعني الاشارة الى تموضعه في المنظومة التصويتية ، ان أمرا كهذا لا شك مستحيل ما لم نأخذ في حسابنا بنية هذه المنظومة»(129) .

إن تروبتزكوي يفصل الصوتية phonétique عن التصويتية phonologie وذلك انسجاما مع التمثيل البنيوي الاعتيادي للغة . «فالتصويتية هي قياسا الى الصوتية كالاقتصاد السياسي بالنسبة الى دراسة البضائع او كالعلوم المالية قياسا الى علم المسكوكات»(130) وفي نظره أن التصويتية هي بمثابة صوتية وظيفية ، وهو يرى أيضا «أن على عالم التصويتية الا يأخذ في الحسبان ، عبر ما يناط بالصوت ، الا كل ما يؤدي وظيفة معينة ومحدّدة في اللغة» . ولنا ان نعرج ، فيما بعد ، الى هذه الناحية . وعلى كل يمكن القول ان تصور الصوتيم محددا بالطريقة التي سبق ذكرها ان هو الا محرر من كل تأثير سيكولوجي ومن كل انعطاف الى عالم العواطف أو الى حدس المتكلم الألسني .

ترى ما الطرائق التي تسهم في مساعدتنا على تحديد الصوتيات ؟ يبدو لنا أن صاحب كتاب «مبادىء التصويتية» يحاول تقديم طريقة عمل ومنهج بحث . وهذه الطريقة تذهب في تصنيف الصوتيات على أساس تقابلاتها الصوتية محققة في اللغة المدروسة . ان متكلمي الفرنسية يميّزون ، مثلا بين lu (مقروء) lit (قرأ) المعترف بها

(128) «أعمال حلقة براغ الألسنية» الجزء الأول ١٩٢٩ ، ذكرها اميل بنفنيست في كتابه «مسائل في الألسنية العامة» الجزء الاول ١٩٦٦ ، ص ٩٤ .

(129) «التصويتية الحالية» في علم نفس اللسان ، باريس ١٩٣٣ ، ص ٢٣٣ .

(130) ب . ترنكا ، «مناقشة حول قضايا البنيوية» في «تاريخ الألسنية في القرنين التاسع عشر والعشرين» .

كوحدات تمييزية . وفضلا عن هذا ، فهذه الطريقة تشمل أيضا البحث عن وسيلة كيفية تحقيق هذا التقابل . إن حركة الشفتين ، في مثالنا السابق ، ووضعهما هما ما يؤدي الى التمييز بين lu و lit . ومن الملاحظ في هذا النطاق حركة استدارة الشفتين في حين تتخذان وضعية الانقباض قياسا الى وضعهما الحيادي كما نرى في تحقيق الصائتi أوe ، اننا نقول والحالة هذه ، ان التشفية labialisation ، ونعني بها حركة استدارة الشفتين كما في كلمة chou أي كرنب أو joue أي خد نقول أن هذه التشفية هي سمة تمييزية أو سديدة في اللغة الفرنسية .

من هذا الذي تقدم يتضح لنا امكانية تحديد الصوتيات بشكل دقيق ، ومع ذلك كله أنه لينظر الى الصوتيم من حيث كونه مجموعة «خصائص تصويتية سديدة» يتقابل فيها وجميع الصوتيات الأخرى . ان هذا التعريف ، كما يبدو لنا ، لقادر على إضفاء طابع الصرامة العلمية على الحدس السوسيري ذاك الذي أكّد على أن «لا وجود في اللغة إلاّ للاختلافات»(131) .

15. 1. 1. 3 رومان جاكوبسون

لا شك أن جاكوبسون Roman Jakobson يعد واحدا من ألمع الوجوه الألسنية التي تمخضت عنها الألسنية الحديثة ، اذ كانت حياته سلسلة من الدراسات الألسنية الجادّة التي طبعت عصره وما زالت ، ماثلة في بطون الكثير وأذهان الالسنيين حتى يوم الناس هذا .

ولد في موسكو عام ١٨٩٦ وأتّم دراسته في معهد اللغات الشرقية . وفي الثامنة عشرة من عمره أسس «**حلقة موسكو الألسنية**» تلك التي كانت تهدف الى دراسة شاعرية poétique الشعر وتحليله ، ومن هذا القبيل فاسمه مقترن اقترانا قويا بالمدرسة الشكلية الروسية . ثم ما لبث في عام ١٩٢٠ أن حطّ رحاله في براغ مدافعا فيها عن اطروحته لنيل شهادة الدكتوراه عام ١٩٣٠ . ومذ ذاك أسهم بشكل متميز

(131) «محاضرات في الألسنية العامة» ص١٤٥ .

في أعمال «**حلقة براغ الألسنية**» واذ يجتاح الطوفان النازي تشيكوسلوفاكيا يغادرها **جاكوبسون** دافعا بنفسه الى أرض جديدة ، انها البلدان الاسكندينافية حيث درّس في كوبنهاغن واوسلو وأوبسال . هذا ، ومع الغزو الألماني للدانمارك وللنرويج عام **١٩٤٠** يجد نفسه مضطرا ، من جديد ، لمغادرة البلاد رافعا عقيرته صوب الولايات المتحدة حيث أصبح المحرض والمؤسس «**لحلقة نيويورك الألسنية**» التي أصدرت مجلة Word التي نلمح في أعدادها الأولى من شهر نيسان عام **١٩٤٥** المقال الرائد لِـ كلود ليفي ستروس Claude Lévi- Strauss حول «**التحليل البنيوي في الألسنية والانتروبولوجيا**» . ومنذئذ غدا جاكوبسون استاذ اللغة والاداب السلافية في جامعة **كولومبيا** في نيويورك وتحديدا عام **١٩٤٧** ، ثم عمل ، من بعدها ، استاذا في جامعة هارفرد عام **١٩٤٩** . ومن ثم بدأ محاضراته في «**معهد ماساشوستش للتكنولوجيا**(M. I. T) عام **١٩٥٧** .

الحق يقال ، ان جاكوبسون كان غزيراً في علمه غنياً به ، متعددا في اختصاصاته ، وبكلمة انه ينبوع حي رافد لكثير من التيارات الألسنية الحديثة . وليس هذا بغريب اذا أدركنا ان جماع ما نشر قد ناف عن **٤٧٤** عنواناً منها **٣٧٤** كتابا ومقالا ، فضلا عن مائة من النصوص المختلفة في موضوعاتها الموزعة بين مقدمات مقالات صحفية ، شعر ولا بد من الاشارة هنا أن **جاكوبسون** لم يكن ليطمح أن يكون شخصية تركيبية في بحوثه ، بل كان رجلاً مساهما مع آخرين في علوم مختلفة وأحيانا متباعدة (ولنذكر في هذا الصدد نظريته في الاسلوب في دراسته التحليلية لقصيدة «القطط» للشاعر الفرنسي بودلير التي شاركه في صنيعه فيها كلود ليفي ستروس نفسه .

وليس هذا وحسب ، بل أن **جاكوبسون** قد طوّر النظرية الالسنية ، عبر الألسنية البنيوية المعاصرة التي كان هو نفسه أحد روّادها في براغ ، فضلاً عن مساهمته في تأسيس التصويتية مع **تروبتزكوي** .

وإذ نذكر اعماله في آفاق الشعر نُحس احساساً حقيقيا لا وهميا اننا مدينون له بأول صياغة لتعريف حديث للصوتيم . نزيد على ذلك إفادتنا اللامحدودة من مؤلفاته النظرية والتجريبية حول التصويتية الثنائية تلك التي أراد من خلالها معالجة أنواع

التقابل عامة ، تحت ما يعرف بالتقابل الثنائي opposition binaire . وله أيضا يعود الفضل كل الفضل في إعادة جميع التقابلات الصوتية الممكنة الى اثني عشر تقابلا للسمات الصوتية الاساسية ، ومع هذا وذاك يمكن كسر هذه التقابلات الى زمرتين تتضمن الأولى السمات الجهورية sonorité والثانية السمات النغمية tonalité .

١ ـ سمات الجهورية

يمكن لنا أن نحصي في النوع الأول السمات الجهورية التالية :

١ ـ صائتي / غير صائتي (وجود / غياب مصدر دوري واحد لا بداية حادّة له . صوائت وذلقيات/ صوامت واشباه صوامت)(132) .

٢ ـ صامتي / غير صامتي (وجود/ غياب عنصر صوتي خلال الطيف بكامله عزم المجموع أقصى/ أدنى . صوامت وذلقيات / صوائت وأشباه صوائت) .

٣ ـ مكثف / منفلش (وجود / غياب سيطرة ناطق(133) في منطقة مركزية من الطيف . انفتاح جهاري/ انفتاح مرنان «هيلمولتز» صوائت مفتوحة ، صوامت لهوية وحنكية/ صوائت مغلقة ، صوامت أسنانية وشفوية .

٤ ـ شديد/ رخو (انتشار العزم في الطيف وفي الزمن الأعظم/ الأصغر . شديد وقوي/ رخو ولطيف .

٥ ـ مجهور/ غير مجهور (وجود/ غياب مصدرين مجهورين ، أي تراكب صوت تناغمي مجهور/ مهموس) .

٦ ـ أنفي/ شفوي (تقليص بعض أعضاء النطق/ ادخال ناطق انفي مع عزم مركز في منطقة ضيّقة . أنفي/ شفوي) .

---

(132) ترمز العارضة المنحرفة/ الى التقابل القائم بين عنصرين .

(133) الناطق هو العضو في التجويف الفمي أو الانفي الذي يتحرك أثناء نطق الاصوات مثل اللسان او الشفة السُفلى .

٧ ـ مطّرد/ متواصل (انقطاع يسبقه أو يليه انتشار العزم في منطقة تواتر واسعة/ غياب الانتقال الواضح بين الصوت وذلك الانقطاع . انسدادي ومعطش/ متواصل وعاصر) .
٨ ـ صارّ/ غير مُرِّن (عدم انتظام شكل الموجة المجهورة الكبرى/ الصغرى . عاصر شفوي أسناني ، صفيري ، لهوي ومعطش/ عاصر شفتاني بيأسناني ، لهوي وانسدادي) .
٩ ـ مسدود/ غير مسدود (صوت نهائي أكثر/ أقلّ قساوة من الصوت المهموز/ غير المهموز) .

٢ ـ سمات النَغَميّة

١٠ ـ غليظ/ حاد (تركز العزم في التواترات الدنيا/ العليا للطيف الأمامي/ الخلفي) .
١١ ـ مطبق/ غير مطبق (وجود/ غياب انحناء نحو الاسفل لبعض (أو لكل) اعضاء النطق . وجود/ غياب التحليق ، الاطباق ، ارتداد ، تشفيّة ، استدارة) .
١٢ ـ مرفوع النغم/ غير مرفوع النغم (وجود/ غياب حركة نحو الأعلى للناطق الثاني ، أو الفمّي . وجود/ غياب التَحنّك أو التغوير .

وفي هذه التقابلات نرى أن **جاكوبسون** على خلاف **تروبتزكوي** لا ينظر بعين الاعتبار إلى السمات النطقية بل إلى السمات السمعية للصوتيات والتي تثبت تجريبياً ، أو بصرياً ، بمساعدة مِطياف خاص (جهاز تخطيط الطيف) .

كما وتجدر الاشارة إلى نظرية **جاكوبسون** في وظائف اللغة الست (أ. 5.2) التي كانت نتيجة لتفكيره الفلسفي . إن الوظيفة الألسنية وهي موضع اهتمام مميّز لمدرسة براغ ، ليست موجودة في العناصر الألسنية وحسب ، وإنّما في النشاط الألسني بمختلف أوجهه .

▲ ▲ ▲

15. 1. 2 المدرسة الوظيفية الفرنسية

ان نتحدث عن آفاق الفكر الألسني ولاسيما ما انبثقت عنه مدرسة براغ ، إن هذا لا يعني أن نلغي المدارات الاخرى التي جاءت بها المدارس الألسنية الأخرى على اختلاف منابتها ومنابعها ، بل يدعونا على العكس من ذلك أن نرفد نظرتنا بما تشقّقت عنه المدرسة الوظيفية الفرنسية التي احتلّت حيزاً مرموقاً في الدائرة المعرفية الألسنية **تحت لواء ممثليها من أمثال أندريه مارتينيه واميل بنفنيست فضلا عن جورج غوغنيم ولوسيان تنيير وغوستاف غيّوم .**

وبدءا ، **إن كلمة وظيفي** تشير إلى الألسنيين الذين اقتفوا خطى فردينان دو سوسير ، اولئك الذين صبّوا جلّ اهتماماتهم على الوظيفة التواصلية للغة ، جاهدين في البحث عن الآثار الظاهرة للخيارات المختلفة التي رُمي إليها في البيانات التي نُطق بها ونعني بذلك الـجُمل .

15. 1. 2. 1 اندريه مارتينيه والتمفصل المزدوج

يعتبر اندريه مارتينيه André Martinet أحد الأقطاب الألسنية الذين فعلوا فعلهم في تطوّر الألسنية . ولد عام ١٩٠٨ في مقاطعة السافوا الفرنسية من عائلة معلّمين ثم تابع دراسته في المدارس الباريسية وحضرّ شهادة التبريز في جامعة السوربون ، فضلاً عن متابعته محاضرات الاختصاصيين في اللغة الألمانية في «المدرسة العملية للدراسات العليا» (134) في باريس وفي جامعة السوربون . وعام

(134) Ecole Pratique des Hautes Etudes من كبريات المدارس الباريسية حيث يلقي نخبة من أبرز اساتذة الجامعات محاضرات في الاختصاصات كافة .

١٩٣٧ دافع عن اطروحته لنيل شهادة الدكتوراه حول «**الازدواجية الصوامتية من أصل تعبيري في اللغات الجرمانية**» . وفي العام التالي ، احتّل منصب كرسي التصويتية الأول الذي أسس عام ١٩٣٨ في «المدرسة العملية للدراسات العليا» الباريسية . ومنذ ذاك أمسى مشرفاً على الدراسات والبحوث متبوئاً في الوقت نفسه منصب «أستاذ ذو كرسي» في الألسنية العامة في السوربون . وقبل ذلك ، عمل في التعليم في جامعة كولومبيا الامريكية حيث كان أحد أركان حلقة نيويورك الألسنية والمدير المشارك للمجلّة التي أصدرتها هذه الحلقة بعنوان Word . ومنذ عام ١٩٣٢ وحتى عام ١٩٣٨ ، أقام مارتينيه اتصالات عبر الرسائل بزعماء التصويتية في براغ وخصوصاً تروبتزكوي . وقد توطدت عبر اسفاره إلى الدانمرك عرى الصداقة بينه وبين لويس هيلمسلييف (أ . فيما بعد) وتابع عن كثب نشوء نظرية هذا الآخير في اللِسَانيمية glossématique .

وإبان الحرب العالمية الثانية ، أسر مارتينيه ونُقل إلى معسكر الضباط الأسرى حيث قام بتنظيم واعداد أوسع وأدّق استقصاء ألسني وأكثره أصالة حول اللفظ الفرنسي المعاصرعامدا إلى استجواب ٤٠٩ من الأسرى الفرنسيين قدّموا له أجوبة تتعلّق بمئتي سؤال خطيّ . وقاده هذا الاستقصاء إلى الوصف التصويتي للغة الفرنسية الأكثر منهجية ودقةً . وعندما وضعت الحرب أوزارها ، علّم مارتينيه في الولايات المتحدة بين عامي ١٩٤٦ و ١٩٥٥ وقام باتصالات مع زعماء التيّار البنيوي الامريكي الذي ازدهر في تلك الفترة والذي يمثله ادوار سابير وليونارد بلومفيلد (أ . فيما بعد 15.2.1.2.) وفي عام ١٩٤٧ أصبح مارتينيه استاذاً ومديراً لقسم الألسنية في جامعة كولومبيا ثم قفلَ راجعاً إلى فرنسا عام ١٩٥٥ ومذ ذاك علّم الألسنية العامّة في «**معهد الألسنية**» في السوربون والذي يديره ، وفي «**المدرسة العملية للدراسات العليا**» الباريسية ، ناهيك عن اشرافه على مجلة «**الألسنية**» التي انطلقت عام ١٩٦٥ تعبيراً عن طروحات الألسنية البنيوية ووجهات نظرها مع الإلماح بأنّه كان المحرّك لمجلة «**أعمال معهد الألسنية**» حتى توقف صدورها .

ولعلّ مما أثار فضول مارتينيه اللغوي اهتمامه وعكوفه على دراسة المجالات اللغوية الثلاثة التالية :

١ ـ التصويتية العامة والوصفية
٢ ـ التصويتية التزمنية
٣ ـ الألسنية العامّة

١ ـ التصويتية العامّة والوصفية : لقد حَبَا مارتينيه في بحوثه إلى اعطاء التصويتية اهتماماً خاصاً ؛ فقد نشر بالانكليزية عام ١٩٤٩ كتابه المعنون : Phonology as functional phonetics (أي : التصويتية من حيث كونها صوتية وظيفية) . ويمكننا ، دون أي حرج ، اعتباره خير خلف صادق لتروبتزكوي في المجال ذاته ؛ إنّ مارتينيه يصرّ على تركيز فكره على الطابع الوظيفي لكل تحليل ألسني بنيوي ، ولديه ، إن التصويتية لا بدّ أن تفسر الوقائع الصوتية المشكلة للواقع الأساسي الذي يخلق بالألسنيين العكوف على دراسته لاعلى الاختلافات الممكنة لتحقيق منظومة لغوية ما . هذا ، ولا بدّ للدراسة التصويتية أيضاً من الجنوح إلى الاهتمام بالوقائع الصوتية وذلك من جانب الوظيفة الألسنية للفوارق الصوتية أولاً وعبر الطريقة التي يتمّ بها استخدام هذه الفوارق نفسها في المنظومة الألسنية ونعني بذلك مردودها **الوظيفي** .

٢ ـ التصويتية التزمنية : أمّا ما يناط بالتصويتية التزمنية ph. diachronique ، فإن مارتينية قد عمل جاهداً على تجاوز المرحلة الوصفية المحض تلك التي تكتفي وحسب بتسجيل التبدلات التي تطرأ على تطوّر اللغة الصوتي والتي تؤدي إمّا إلى حذف فارق تصويتي déphonologisation وإمّا إلى ظهور وبروز تقابل تمييزي جديد phonologisation .

إن مارتينيه لم يألُ جهداً في تقديم تفسيرات للتغيرات الصوتية معتمداً ومنطلقاً من مبادىء عامة ، يشكل كتابه «Economie des changements phonétiques» (أي «**اقتصاد التغيرّات الصوتية**) الذي ظهر عام ١٩٥٥ لحمتها وسداها . وفوق ذلك إن هذا الكتاب منفردٌ في نوعيته إذ أنه المؤلّف الوحيد في التصويتية التزمنية . وقد ألحق به مارتينيه عنواناً فرعياً آخر وهو : «Traité de phonologie diachronique» (أي «**مبحث في التصويتية التزمنية**») (135) .

(135) صدر عن دار نشر : ط ١ عام ١٩٥٥ ، ط٢ عام ١٩٦٤ ، ٣٩٦ ص ، A. Francke, Berne

يعرض مارتينية نظريته قائلاً : «إنه لا يكفي أن نسرد الوقائع بل يجب أيضاً تفسيرها وردّها إلى أسبابها» (136) ثم يذهب بعيداً ليقرّر أنه «ليس مهماً أن نضع على الظواهر بطاقة محددّة ، بل المهم أن نرصد ونفسرّ بشكل سليم آليتها» (137) . ومن بعد ، يحاول هو نفسه البحث عن البواعث الداخلية وراء كل تغيّير ، ويعني بذلك الأسباب التي تتموضع داخل المنظومة ذاتها ، وذلك قبل الولوج إلى الاسباب والتفسيرات الخارجية والتاريخية والجغرافية والسوسيولوجية .

وفي الراقع ، إن نظرية مارتينية هذه تُفسرّ سيرورة اللغة وتطورها بأسبابها المستقرة الثابتة ذاتها . فهو يَرىَ ضرورة اقامة تواصل والمحافظة عليه ، ثم تلبية حاجات تواصل جديدة تفسر وقائع هي أصلاً موجودة تزمنياً وتزامنياً . هذا شيء وشيء آخر يوطد أركانه عندما يلّح على أن النزاع يحلّ بين ضرورة وظيفة التواصل هذه التي تحافظ على وضوح التمييزات ، وبين ركود جهاز النطق . وبلغة أخرى الاقتصاد في الجهد النطقي أوالأستذكاري الذي ينزع إلى حذف هذه التمييزات ذاتها . ويضيف مارتينيه أن «الاقتصاد يشمل كل شيء : من تقليص التمييزات غير المجدية إلى ظهور تمييزات جديدة والمحافظة على الوضع الراهن . الاقتصاد إن هو إلاّ حصيلة القوى المتواجدة» (138)

٣ ـ الألسنية العامّة : إن جهود مارتينيه تتموضع في المحور الثالث والقائم حول ما يُثار من مسائل تخّص الألسنية العامّة ، نقول تتموضع في ابرازه مفهوم التمفصل المزدوج (أ . 6.2.5.) .

لقد شرع مارتينيه ، منذ الستينات ، في تطبيق التحليل الوظيفي على النحو بشكل موضوعي علمي دقيق ، غير أن رؤيته الألسنية لم تكن لتتم وتتكامل إلاّ في كتابه A Functional View of Language المترجم إلى الفرنسية تحت عنوان Langue et fonction ثم في مؤلفه الآخر «Eléments de linguistique générale» (أي «عناصر في الألسنية العامة») .

---

(136) «Economie....» ص ١٧

(137) المرجع نفسه ص ١٨

(138) المرجع نفسه ص ٩٧

ونظرات مُتَفحِّصة تكشف لنا أن آثار **تروبتزكوي** وسطوته ماثلة في تحليلات مارتينيه ، ونحن ندرك هذا جيداً إذا عرفنا أنّه طوّر الخطوط الأساسية لبُنية ووظيفة الاسناد في الجملة منطلقاً من الأسس الوظيفية التي بدأها **تروبتزكوي** نفسه . وفوق هذا ، إن مارتينيه قد استطاع أن يمنحنا النموذج الأفضل للتصنيف الألسني العام ، فهو يرى أنه لا همَّ لنا في أن «نردّ تعقيدات لغة ما إلى بطاقة واحدة (لغة عازلة ، لاصقة ، اعرابية الخ . . . .)» (139) بل الأهمّ في ذلك أن نبينّ كيفية بناء وتحسين المخطط التصنيفي الذي أقامه **سابير** .

إنّ **سابير** يرى أن «التحليل الألسني يقدّم ـ أياً تكن اللغة ـ جدولاً معقداً جداً ذا لائحة صوتيات ونموذج تنغيمي وقواعد تشتمل الصرف والنحو ، فضلاً عن فهرس كلمات»(140) الأمر الذي يجعلنا بحسب هذا المذهب قادرين على تصنيف اللغات تحت وطأة معايير خمسة .

وما دُمنا في الحديث عن جهود مارتينيه في هذا المرفق الألسني ، لا بدّ أن نذكر أنه في كتابيه **«عناصر في الألسنية العامة»** و **«نظرة وظيفية إلى اللغة»** يميّز تمييزاً واضحاً بين مختلف فئات الوِحْديات monèmes وبُنى البيانات ، مؤكداً مرّة على أخرى على أن المشكلة الرئيسية هي قبل كل شيء مشكلة **الوظيفة** من حيث كونها شيئاً مختلفاً عن الشكل . إنّ مارتينيه في كل ما يضرب يده فيه من بحوث وكتابات ، إنّما يحاول دائماً أن يتمّم النظرة الوظيفية للظواهر الألسنية متبعا الخط الذي قيد لمدرسة براغ أن ترسمه . فعمل الألسني يجب أن يكون حول محور دراسة وظيفة اللغة ، وخاصة وظيفتها التواصلية ، ووظائف العناصر الألسنية ، أكثر من النظر إليها من حيث كونها تُشكِّل بنية . وبهذا كلّه يبدو لنا أن مارتينه يشدّد على الفارق بين اللغة والمنظومات الرمزية الاصطناعية الممكن بناؤها بشكل يشابه ويماثل البنية اللغوية ، على الرغم من أن وظيفة هذه الأخيرة لتختلف كلياً عن وظيفة اللغة ومهمتها . وأياً يكن من أمر ، فليس محالاً أن نقرّب بين هاتين النظريتين ، إذ أن الرؤية البنيوية في نظر مارتينيه هي المُكَمّل المنطقي للرؤية الوظيفية .

---

(139) «نظرة وظيفية إلى اللغة» ص85 من الترجمة الفرنسية .

(140) المرجع نفسه ص85

15. 1. 2. 2 اميل بنفنيست

نظرية التبيين

إذْ نتحدث عن أعلام الألسنية الفرنسية ، نحن مضطرون لأن نشير ولو موجزاً إلى وجه مشرق آخر كان له أثر كبير في هذا المضمار ، إنّه اميل بنفنيست Emile Benveniste (١٩٠٢ - ١٩٧٦) ، ذاك الذي عُرف بضرباته الألسنية وخاصة في التيّار الألسني الفرنسي .

لقد كان بنفنيست يدور في أفق دراسة اللغات الهندو أوروبية ، فهو علّم فيها واستاذاً لها . هذا ، وقد شارك أيضاً في الاتجاه الوظيفي للألسنية متأثراً في ذلك بمدرسة براغ شأنه في ذلك شأن مارتينيه .

إن الناظر في كل ما خلّفه لنا بنفنيست من تراث ألسني يجده كثيراً وغنياً على تنوعه وتباينه ، فنحن نلمح فيه مقالات مسهبة عامة ذات وضوح في الاداء كبير . وقد حاول بنفنيست فيها ايضاح المسيرة الألسنية حتى عصره بكل كثافتها وعقدها ، كما ضَمّنها شيئاً ليس بالقليل من اقتراحاته الألسنية ، وخاصة الجانب الفرنسي منها غير أنه كان بين الحين والحين يدمغها بفلسفة لغوية استبطانية .

غير أن المسألة التي كان شغوفاً بها هي العلاقة بين اللغة والفكر ، التي استقطبت حيزاً هاماً من جهوده الألسنية ، ناهيك عن جملة المشكلات الاخرى والمتعلقة بطبيعة العلامة الألسنية في الأعراضية Sémiotique . وفوق هذا ، يمكننا اعتباره في قافلة الألسنيين ممن حاولوا أن يؤسسوا نظريات الخطاب discours والتبيين énonciation وقد عرّف هذا الأخير بأنه **«تشغيل اللغة عبر فعل استخدام فردي»** (141) وعلى كل حال ، إن بنفنيست على تموج معارفه ومداركه واسهاباته ، يظل واحداً ممن رافقوا الألسنية في مشوارها الطويل ، عملاً واداءً ، تفسيراً واقتراحاً ، إلى

---

(141) L'appareil formel de l'énonciation, in Langages, n° 17, 1970, Paris, Didier- Larousse, p.12 (جهاز التبيين الشكلي)

غير ذلك من المعارف التي كان له السبق في كشفها وتسلّم قصب السبق فيها ، وخاصة نظرية التبيين التي أشرنا إليها من قبل .

15. 1. 2. 3 جورج غوغنيم

المفردات الاساسية للغة الفرنسية

لعلّ من الجدير بنا في مدار التيّار الوظيفي الفرنسي أن نلّم ولو قليلاً بصاحب كتاب «المنظومة القواعدية للغة الفرنسية» (142) ألا وهو جورج غوغنيم (١٩٠٠-١٩٧٢) Georges Gougenheim الذي مثل تمثيلاً رصيناً الاتجاه الوظيفي عبر تطبيقه بحوثه على قواعد اللغة الفرنسية . إننا نراه ، في كتابه هذا ، يحاول تطبيق طرائق التحليل التصويتي على النحو وخاصة مفهوم التقابلات السديدة oppositions pertinentes .

لقد عمد غوغنيم عبر بحوثه المفرداتية إلى جرد المفردات الأساسية vocabulaire fondamental الأكثر استعمالاً وشيوعاً في عمليات التواصل اليومية بين أفراد الطائفة اللغوية الفرنسية ، ثم إلى ترتيبها في جداول بحسب درجة تواترها وظهورها في الخطاب اليومي .

15. 1. 2. 4 لوسيان تنيير

التحوّل

يُعدّ لوسيان تنيير Lucien Tesnière واحداً من أعلام الألسنية الفرنسية الذين

(142) Système grammatical de la Langue française, Edition d'Artrey, 1938 400 p., nouveau tirage 1962

أسهموا في بناء المدرسة الوظيفية . إن كتابة «**عناصر النحو البنيوي**» (143) عمل يشهد له بالصرامة والجدّية والبعد اللغوي ، ففيه يطوّر تنيير نظرية ألسنية أصيلة يمكن استخدامها نموذجاً في ما يُعرف بقواعد الإتباع gr. de dépendance . وفي نظريته هذه نضع أيدينا على مقاربة شائقة للوظائف القواعدية ، إنّ المؤلف يهدف فيما

يهدف إليه إلى تطوير مفهوم التحوّل translation ذاك الذي يقوم على إبدال كلمة من فئة قواعدية إلى فئة أخرى ، ونعني بذلك «تحويل نوع كلمة إلى نوع آخر» . إنّ الصفة bleu في الفرنسية إنّما تعني اللون الازرق ، ولكنّها سرعان ما تصبح اسماً إذا ما سُبقت بآل التعريف مثلاً ، كما نلاحظ هذا في الجملة التالية : Le bleu du ciel أي زُرقة السماء . فهكذا إذاً يصبح الاسم صفة عبر هذا التحويل الذي رفدنا به تنيير . ولا بدّ من الاشارة هنا أن التحوّل ليس مقصوراً على الاسماء وحدها بل يقع على الاسم والصفة والفعل والظروف .

إضافة إلى ما تقدّم يمكن لنا أن نؤكد على ما أكدّ عليه تنيير نفسه من أهمية مفهوم الوظيفة في النحو فهو يفرّق ، انطلاقاً من ذلك ، بين النحو السكوني (أي الفئات التقليدية) والآخر الديناميي (أي الوظائف بما فيها من الربط والوصل والتحول وهي «الأبواب الرئيسية التي تشمل وقائع النحو البنيوي كافة» (144) .

15. 1. 2. 5 غوستاف غيّوم

الميكانيكية النفسية

يمثل غوستاف غيّوم (١٨٨٣ - ١٩٦٠) Gustave Guillaume بكل ما ترك من

---

(143) Eléments de syntaxe structurale, Paris, Klincksieck, 1959, 672 p.

(144) المرجع السابق ص ٣٢٣

تراث ألسني جزءاً من الألسنية الفرنسية . فقد عمل طويلاً عبر آثاره التي تنتمي بشكل أو بآخر إلى المدرسة البنيوية، نقول عمل طويلاً في الحقل الألسني عامة وخاصة في تطويره النظرية اللغوية التي عرفت باسم «**الميكانيكية النفسية**» أو لنقل «**المنهجية النفسية**» psycho- systématique, psycho- mécanique . إنه ، بصنيعه هذا ، يَعدُ اللغة آلية دينامية ترتبط بوثاق قوي بنشاط الفكر أكثر منها منظومة فوارق صرف . إن الميكانيكية النفسية التي يدعو إليها صاحبنا ، إن هي إلاّ «دراسة المقاطع التي يحدّد من خلالها الفكر في ذاته وعبر نشاطه الخاص ، بعض الافعال الكبرى مقطعاً إياها ، فيما بعد ، بطريقة عرضانية وذلك بالسعي إلى مقاطع عرضانية أخرى جديدة ، وهذه الاخيرة تمنح العلامة الممثلة للحركة قيمة مختلفة ، وذلك بحسب كون المقاطع مُبكرة أو متأخرة في الحركة التي تتصدى لها» (145)

هذا ، وإذا ما تساءلنا عن أصالة فكر غيّوم اللغوي وجدناه في ذلك البعد الفلسفي في محاولته موضعة ظواهر اللغة قياساً إلى ملكة اللسان البشرية . وما ذلك إلاّ بفعلها قادرة على تشكيل مفاهيم وتصورات نجد صدى لها في البيان الممكن دراسته ومعاينته مهما اختلف في صوره وأشكاله .

نزيد على ما قدّمنا أن غيّوم قد ولّد تياراً لغوياً فكرياً دمغ الكثيرين ممن جاؤوا بعده وخاصة برنار بوتييه Bernard Pottier (ولد عام ١٩٢٤ ، وهو من كبار اساتذة الألسنية في السوربون) ، إذ قدّم هذا الأخير نظرية للبُنى النحوية وأوّل دراسة تتعلق بالدلالة البنيوية يمكننا الوقوف على قسماتها وسماتها في كتابه الرائد : «**الألسنية العامة : نظريةَ ووصفاً**» (146)

15. 1. 3 مدرسة كوبنهاغن

تأسست «**حلقة كوبنهاغن الالسنية**» عام ١٩٣١ ويمثّلها اعلام بارزون من

---

(145) محاضرات ألقاها في : ,Leçons de linguistique «المدرسة العملية للدراسات العليا» في باريس (أ . الحاشية رقم 134) ونشرتها مطبوعات جامعة لافال الكندية .Presses de l'Université' de Laral, Québec, 1971

(146) «Linguistique générale: théorie et description» Paris, Klincksieck, 1974, 338 p.

أمثال : لويس هيلمسليف ، كونـد توغيبـي ، هانس يورغـن أولـدال ، فيغو بروندال . وقد صنعت صنيع حلقة براغ اذ راحت تنشر ابحاثها بدءاً من عام ١٩٤٤ . ويمتاز ممثّلو مدرسة كوبنهاغن بتشبعهم لتراث قوي ورثوه عن علماء كرّسوا حياتهم للدراسة القواعد العامة ، مثل راسموس راسك ، ويدعو روّادها إلى الايمان بالفكر السوسيري محاولين تطوير بعض جوانب «محاضراته» بحذق وتماسك ، سواء اتعلق الامر باللغة كغرض الالسنية ومادّتها ام بالالسنية كعلم للغة . ومن بين هؤلاء الالسنيين ، لنا ان نذكر اسم لويس هيلمسليف الذي ينصب ظلله عملاقاً في جبهة هذه المدرسة .

15. 1. 3. 1 لويس هيلمسليف

اللِسَانيمية

تتلمذ لويس هيلمسليف Louis Hjelmslev (١٨٩٩ ـ ١٩٦٥) وهو ابن استاذ رياضيات ، اول ما تتلمذ على يدي اللغوي هولغر بيدرسن Holger Pedersen الذي يُعدّ من مريدي مدرسة النحويين المولـدين والمقارنـين . وفي عام ١٩٢١ درس في ليتوانيا ثم في براغ عام ١٩٢٣ ـ ثم قدم الى باريس عام ١٩٢٦ حيث تابع محاضرات انطوان مييه A.Meillet . وفي عام ١٩٣٧ خلف استاذه بيدرسن في كرسي الالسنية المقارنة في جامعة كوبنهاغن ومن الجدير بالذكر ان مراكز اهتمامه اثناء اقامته في باريس كانت تدور حول الاقطاب التالية : القواعد العامة ونظرية الحالات Théorie des Cas .

في كتابه «مقدّمات لنظرية في اللسـان» /147/ (١٩٤٣) طوّر هيلمسـليف نظريته اللسانية تلك التي سماها الـ glossématique اننا بدورنا ندعوها

---

(147) Prolégomènes à une théorie du langage. -147-
Paris, Ed. de Minuit, 1971, 236 P.

«اللسانيمية» ، انطلاقاً من مفهومين اساسيين مستمدين من الفكر السوسيري ، ونعني بهما مبدأ الكُمُون immanence ومفهوم القيمة اللذين نقدّم فكرة عنهما هنا . ان الكُمون انمّا يعني انه لا يُمكن تحليل البيان المحقّق الا انطلاقاً من سماته الداخلية . وهذه السمات هي وحدها ما يُساعد على تحديد البيان بانه «بُنية مغلقة» يمكن هكذا وصفها بعيداً عن اية آلية تاريخية . ان اللسانيمية اذن تدرس اللغة كغاية في ذاتها لا كوسيلة .

هذا ، واذا كانت الالسنية السابقة تهدف الى معرفة الوقائع التاريخية والاجتماعية والادبية والفلسفية والنفسية ، نقول اذا كانت هذه الألسنية تجاوزية transcendant من حيث اعتمادها معطيات خارجة على اللغة ذاتها ، فإنّ اللسانيمية تغاير الاولى .وهـذا يوحي بدلالة قاطعة انها تحاول استنباط الثوابت التي تصبو اليها من اللغة ذاتها لا من خارجها . فاللغة في نظرها وحدة مغلقة أو لنقل بنية في ذاتها . ومن هذا القبيل تسعى اللسانيمية إلى تحديد الصفات المشتركة بين اللغات البشرية كافة وإلى ابراز ما يجعل اللغة بشكل دائم محافظة ومشابهة لشخصيتها على الرغم من جملة التبدلات التي تطرأ عليها بين زمن وآخر .

لقد سعى هيلمسليف الى توسيع وتطوير بعض المقولات التي احتضنها كتاب سوسير («المحاضرات») . وخاصة اصراره على تصوّر اللغة كفكر منظم في مادّة صوتية اولاً ثم تعريفه اللغة بانها شكل لا مادّة ، ثانياً ، ذلك ان هيلمسليف قد نقل هذه التصورات كلّها على مستويي التعبير والمضمون معاً (أ. 9.3.4) ان مستوى التعبير يشكل جانب اللغة الخارجي ، ونعني به الغلاف الصوتي ، او الخطّي او الحركي ، وبكلمة انه غلاف اخر للفكرة التي يجسّدها . امّا مستوى المضمون فهو يوحي بعالم الفكرة التي تحتضنها اللغة تعبيراً . ان هذا يدفعنا بدوره الى ان نجد انفسنا امام التقابل بين الدال / والمدلول الذي رَقيَ الى تقابل اخر عبر مستويي التعبير والمضمون معا . انّ لكل من هذين المستويين مادةً وشكلا . وهكذا ، نجد لمستوى التعبير مادته الصوتية او الكتابية ، وربمّا مادة من طبيعة أخرى يمكن ان تكون مشتركة في جملة من اللغات الطبيعية . ولهذا ، فإن شكل التعبير او طريقة استخدامه في لغة محدّدة يتموضع على هذه المادّة ذاتها التي ينبثق منها التعبير .

ازاء ذلك نجد في مستوى المضمون مادة وشكلاً . فمادة هذا المضمون تتجسّد في كل ما يقوى على ان يكون غرضاً للفكر ، امّا شكله فلن يكون اكثر من طريقة تنضيد الافكار وتنسيقها في لغة ما . نضيف الى هذا ، ان مادة المضمون هي واحدة قياساً الى اللغات عامة . امّا الشكل ، فهو غير ذلك ، انه شيء خاص بكل لغة فضلاً عن كونه منفرداً ومتميزاً . ولايضاح هذا الذي نأخذ به هنا نقول : ان الناس ، جميعهم ، يفكرون بمفهوم «العدد» ، ولكن ناطقي الفرنسية والانكليزية والالمانية مثلاً يمنحون فكرهم شكل تقابل بين المفرد والجمع . في حين نرى اهل العربية يسعون الى قولبة فكرهم في منظومة عددية تجمع المثنى الى المفرد والجمع . وفوق ذلك ، نصادف لغات اخرى تتخذ اضافة للمفرد والمثنى والجمع ما يمكن تعريبه بالمثلّث اي triel اذ ان الجمع في هذه الغات لايبدأ الاّ بدءاً من العدد ٤ .

وبين مستويي شكل التعبير وشكل المضمون يقوم رابط محدّد يتمّ تعريفه بمبدأ الاستبدال الممكن صياغته على النحو التالي : اذا تقابل تمييز على مستوى المضمون واخر على مستوى التعبير ، فان هذا التمييز يعتبر اساسياً قياساً الى لغة محددة . هذا من جهة ومن جهة اخرى ، اذا تقابل تمييز على مستوى التعبير واخر على مستوى المضمون ، فان هذا التمييز اساسي بدوره بالنسبة الى اللغة المحدّدة ايضا .

انّ اصالة هيلمسليف تكمن ولا شك في ارادته فتح المنظومة الالسنية على منظومة منطقية . اذ كان يرمي في اللسانيمية الى انشاء نوع من الجبر قادر على جعل التحليل الوصفي للغات كافة تحليلاً شكلانياً . وبحسب هذا المنطق ، فانهّ ليمكن استخراج علاقات اللسان كلها بعضها من البعض الآخر . هذا ، ولنا ان نرى في هيلمسليف واحدا من أوائل البنيويين الذين طرحوا مشكلة تأسيس علم دلالة عام عبر اخذهم بوجود تشاكل isomorphisme بين مستويي التعبير والمضمون . واذا كان هيلمسليف من اوائل الذين طوّروا مشروع سوسير السيميائي فإن لنا اعتبار الجيدراس جول غريماس Algidras J.Greimas و رولان بارت Roland Barthes في فرنسا من جمهرة الذين حاولوا الاستمرار في فكر هيلمسليف وتطويره أيضا .

واذا اردنا رصد مؤلفات هيلمسليف الالسنية وجدنا الى جانب «مقدماته» ،

كتابي «اللسان» و «محاولات السنية» /148/ ونستطيع من خلالها ان نقف معه على كوكبة مقولاته اللغوية التي تصل احياناً حدّ «المغامرة» التي تظل تطـرح اكثـر من تساؤل في نفس مُتَعَمِّقها . ولكنه التساؤل الذي يستجرّ بدوره الى بلورة كل المفاهيم التي نتقراها في كل تراثه .

15. 2. الالسنية الامريكية

لم يكن للالسنية الامريكية ان تباين الاخـرى الاوروبية الا غداة الحـرب العالمية الثانية ، غير انها اخذت تنحو منذ عام ١٩٢٠ منحى آخر مختلفا عن خيوط الالسنية الاوروبية ، الامر الذي ادى أخيراً الى ان تحظى بسمات خاصة بها ، تجعلها متميّزة عن نظيرتها . واذا ما اردنا ان نضع ايدينا على اسباب هذا التميّز وجدنـاه كامنا في المشكلات التي تطرحها اللغات الهندية الامريكية (تلك التي تزيد على أكثر من ألف لغة) ويتكلّمها سكان امريكا الشمالية الاوائل . ومما زاد الامر صعوبة افتقار هذه اللغات الى تقليد كتابي ، الشيء الذي جعل وصفها غير ممكن الا عبـر المادة المحكيّة .

واذا ادركنا هذه الحقيقة سوغنا ارتباط البحث الالسنى فى الولايات المتحـدة بأبحاث علم الجناسة وعلم الاجتماع وعلم النفس. وفي هذا المقام، يطالعنـا اسم فرانز بواس Franz Boas (١٨٥٨ - ١٩٤٢) الذي سجلّ في مقدمته «لكتاب اللغات الهندية الامريكية» /149/ مرحلة خطيرة في تحديد منهجيّة الاستقصاء والتحليل لهذه اللغات مجتمعة . ولهذه المقدمة شان كبير فيما يتعلّق بالالسنية الوصفية .

15. 2. 1. الروّاد

لا تذكر المدرسة الالسنية الامريكية الاّ ويذكر معها هرمان اثنان من مؤسسيها

(148) Le Langage, Editions de Minuit, Paris 1966, 201 P. -148-

Essais linguistiques, Ed. de Minuit, 19761, 279 P.

(149) Handbook of american indian languages

هما ادوار سابير وليونار بلومفيلد، على الرغم من تناقضهما في اتجاهاتهما الالسنية فالاول يتسْم تياره اومذهبه بالذهنية والآخر بالسلوكية . وهما صفتان مستمدتان من علم النفس .

ينظر على النفس الى الذهنية كنظرية تولي النشاط والحياة الذهنية قدرا مركزاً وهاماً ، سعياً الى وصف وتفسير الظواهر النفسية . امّا في الالسنية فاتباع هذا المذهب يحدّدون الوحدات الالسنية وقواعد تنسيقها بفعل دلالتها ، تلك التي تُعرف محددةً ، بشكل تجريبي وحدسي معاً .

ان السلوكية هي قبل كل شيء نظرية نفسية تنهض على اسس اختبارية وهي تذهب الى تفسير الظواهر الالسنية عبر تحليل السلوكيات وحدها والممكن معاينتها عبر ردّها الى استجابات لمواقف معيّنة ، وهذه المواقف ليست بأكثر من مثيرات (مؤثرات) تحفز الى تلك الاستجابات ، اذ انّ التواصل هو نفسه عملية يمكن ان نرمز اليها بالمخطط التالي :

م ← أ (مثير ← استجابة)

ولكن هذه النظرية السلوكية لم تمرّ بهدوء بل لاقت اكثر من نقد وخاصة على ايدي الالسنيين التوليديين من امثال شومسكي .

يجدر بنا قبل ان نمضي بعيداً في استقصاء ملامح ممثلي المدرسة الامريكية ان نقف ولو عارضا لننضد البحث الالسني عامة في امريكا .

يبدو لنا ، من خلال تفحّص ما خلفته المدرسة الامريكية من اثار انها لم تكن لتهتم باتجاهات فقه اللغة او بالالسنية التاريخية او المقارنة كما هي الحال في الالسنية الاوروبية التي وقفت طويلاً عند هذه المرامي . وربمّا كان ذلك يعود الى وجود حوالي ١٥٠ عائلة لغوية من اللغات الهند وامريكية ، اي اكثر من الف عائلة محكية . اذ ان تعدّد هذه اللغات قد القى بظله على الاداريين وعلى علماء الاناسة معاً . ولم يكن امر كهذا سهلاً اذا عرفنا ان هذه اللغات لا تتمتع باي كتابة ، فهي محكية ، اذ ان مادّتها الالسنية لم تتخذ لها رامزة Code كتابية ، وفضلاً عن كل هذا وذاك ، ان من الصعب على الالسنيين ان يثقوا ثقة مطلقة بمتكلميّ هذه اللغات وصولاً الى معلومات لغوية جادّة . امام تلك العقبات لم يكن غريباً ان تتطوّر

الالسنية الامريكية على محور الانتروبولوجيا . ومن هنا اتخذت هذه الممارسة تسويغا نظريا لها في ما يعرف بالسلوكية (او علم النفس السلوكي) تلك التي اوجدت علم نفس سلوكيا وموضوعيا ينأى عن اتخاذ الاستبطان منهجا له . ومن هذا القبيل ايضا غدا علم النفس علما طبيعيا يدرس السلوك البشري الممكن تعريفه بانه مجموعة حوافز ومحرّضات اولا ومن أجوبه عليها اي من اعمال ثانيا . واللغة بفعل هذه النظرية تصبح هي بدورها حافزا وجوابا عليه في واقت واحد .

15. 2. 1. 1 ادوار سابير : الذهنية
(١٨٨٤ - ١٩٣٩)

ولد سابيرEdouard Sapir في المانيا عام ١٨٨٤ وفي الخامسة من عمره حطّ رحاله في الولايات المتحدة حيث اتمّ تحصيله العالي في جامعة كولومبيا بنيويورك . ثم شرع يؤسس شخصيته العلمية كعالم في اللغات الجرمانية ، غير انه سرعان ما تعرّف الى عالم الاناسة والالسني فرانز بواسF.Boas . فتابع محاضراته وبعدها اصبح استاذاً للانتروبولوجيا والالسنية معاً في جامعة شيكاغو فجامعة يالYale . وفي عام ١٩٢١ نشر كتابه الرئيسي : Language /150/ وتوفي عام ١٩٣٩ عن عمر يناهز الخمسين عاماً .

كان سابير رجلاً متنوّع الاهتمامات متباينها ، اذ ابدى شغفاً كبيراً بالالسنية بحصر المعنى ، فهو خبير وعالم بلغات عديدة تعود لسلالات مختلفة ، ولكنه كان مشدوداً الى اللغات الهندية الامريكية اكثر من غيرها . نضيف الى هذا قدرته الرائدة والفريدة على التنظير الفكري . وليس هذا وحسب ، بل كان ايضاً بصيراً بالانتروبولوجيا ، مغرماً بالأدب اذ كتب في الشعر منه وفي النثر ، فضلاً عن ولوعه بالموسيقى والعمل فيها . واذا قدّر لسابير ان يضع يديه على اكثر من مفرقٍ معرفي

---

(150) Language: an Introduction to the Study of Speech, New york, Harcourt, Brace and World, 1921.

وترجم الى الفرنسية : .LeLangage, Paris, Payrt, 1953, 222P وطبعة فرنسية منقّحة عام ١٩٧٠ في دار النشر نفسها .

فإن هذا لم يكن ليضير كتاباته ، اذ جاءت على توزّعاتها وتفرقها لتقدم نمطا من العمل التركيبي المترابط جسدا وروحاً ، فكراً ونظرية . وما كان هذا ليتّم لولا حدة في التفكير وتوقّد في الذاكرة .

لقد تجاوز سابير في تفكيره الالسني حدود البنيوية السوسيرية ، اذ انّ مريدي سابير قد قابلوا نتائج تحليل اللغة البنيوي باخرى غيرها تكمن في التحليل البنيوي لثقافة شعب برمته ، مادياً وروحياً ذلك الذي يتكلم تلك اللغة ومع هذا يمكن القول ان البداية لدى سابير لم تكن لتنأى كثيراً عن تصوّر سوسير . فهو يرى في اللغة كما يرى سوسير ذاته . ومن هنا ، فقد ميّز فيها منظومة فيزيائية واخرى مثالية (اي نموذج ، او مُنَمْذجَة) . وهو ايضاً يجد في اللغة كمنظومة مثالية «مبدأ حقيقيا اكثر اهمية في حياة اللغة» . ومن هذا القبيل يبدو له ان النموذج التصويتي Phonologique الذي يحدّد عدد وعمل وعلاقة العناصر الصوتية قد يثبت بلا تغيرّ ولا تبدّل زمناً طويلاً حتى ولو تحول معنى المحتوى الصوتي . ويدعم سابير هذا الرأي بقوله : «قد يتفق للغتين او للغتين اقليميتين تربط بينهما ، تاريخيا وشائج قربى ان لا يكون لهما اي صوت مشترك ، ولكن قد تتشابه نماذج منظوماتها الصوتية المثالية» غير اننا قد نجد حالة اخرى معاكسة للسابقة اذ قد يُصادف احياناً ان يكون للغتين نماذج صوتية مختلفة كلياً ، غير ان الاصوات الصادرة عنها متشابهة . ان ملاحظة من مثل هذه الملاحظة لا تتفق والمستوى التصويتي وحسب ، بل تتواءم وجميع مستويات اللغة الاخرى . ومن هنا نستطيع ان نتبينّ الحقيقة التالية وهي قدرة كل لغة على تقطيع مادة مشتركة واحدة بين لغات عديدة .

وفضلاً عماّ تقدم ، لنا ان نذكر الان الفرضية التي طرحها سابير و بنيامين لي ورف B.L.Whorf (١٨٩٧ - ١٩٤١) وهي الفرضية المعروفة «بالنسبية الالسنية» التي لا نجد اصداء لها في فكر سوسير .

انّ اللغة ، بهذه النظرية النسبية ، هي التي تفرض على المتكلمين وتحدّد رؤيتهم للعالم . واذ كان الامر كذلك فإنّه ولا شك يستجرّنا الى القول ان الفوارق بين لغات العالم على اختلافها هي ما يجعل ابناء لغات مختلفة ينتظرون الى العالم ويفكّرون فيه بطرائق مختلفة ، وبكلمة اخرى ، ان لكل لغة ان تحدّد طريقة ورؤية

خاصة للعالم . ان هذه الجملة الاخيرة كفيلة ان تجزىء فرضية «ورف» الذي تنفس براهين سابير واستعادها لحسابه . فالمقولة الاولى «ان اللغة تحدّد الفكر» انمّا تشكل مبدأ الحتمية الالسنية déterminisme ، اما الثانية القائلة : «ان كل لغة تحقق رؤية للعالم معينة» vision du monde ، فهي تعرف بمبدأ النسبية الالسنية relativité . ولكن المبدأ الاول هو الاكثر اهمية ، اذا قدّر له ان يكون صحيحاً فما الثاني الا نتيجة ضرورية له .

ما الذي نتقراه في نظرية النسبية الالسنية هذه ؟ يمكن لنا لن نجمل خيوطها على النحو التالي وذلك تسهيلاً لمن يحبّ الاطلاع عليها :

١ ـ ان لكل لغة نموذجاً واحداً يتمّ تكوينها بحسبه . وهي التي تقطع الواقع على طريقتها (أ. 7.4. و7.5) فارضة منهجها هذا على جميع متكلّميها . ثم ان اللغة هي ما يشكل الفكر ، كما ان الافراد الناطقين بلغات مختلفة يرون العالم بطريقة هي ايضاً مختلفة .

٢ ـ ثمة عُرى بين النماذج الالسنية والاخرى الاجتماعية الثقافية(151) وازاء ما نجده من فوارق فهرسية وقواعدية الزامية في لغة ما ، نجد فوارق الزامية في السلوك الذي تمثله ثقافة معيّنة . اننا عندما نتحدث عن الرابط والصلة بين اللغة والثقافة بحسب ورف، انمّا نعني بذلك التناسب Correspondance بين بنية اللغة وبنية الثقافة بشكل عام. ان هذا يقودنا للقول انه قد يكون لنا ان نعتبر التسميات لمختلف انواع الثلج مثلاً ، عند الشعوب الشمالية مثل اللابون ، كثيرة جداً ، مع الاعتراف بان مثل هذا لشيء معروف منذ القديم فضلاً على هشاشته وسطحيته ، وما قلناه في المثال السابق يمكن قوله قياساً الى سكان الجبال اولئك الذين يطلقون تسميات عديدة ومختلفة على ما يحيط بهم منها (أ. 7.4)

يبدو من كل ما تقدم على ما فيه من اقناع وعدمه اننا لا نقوى على اعتبار مثل هذه الفرضية نظرية حقا ، اذ لم نُوفق بعد بالبراهين والتجارب التي تدفعنا الى الايمان بها كنظرية كاملة . ولكن ، وعلى كل حال ، فإنها تقيم توازيا بين الظواهر الاجتماعية الثقافية غير الملموسة والبُنى الالسنية على الرغم من استحالة القيام بمثل

---

(151) لم يكن سابير يشاطر ورف هذه الفكرة حول النسبية الالسنية .

هذا التوازي ، الامر الذي يدفعنا الى تساؤلات عديدة حوله. ذلك ان مبدأ النسبية والحتمية الالسنيتين لا يفيدنا بشيء عن الطريقة التي يرتبطان بها ، ولا يساعدنا ايضا على التنبؤ بموضع التقاء هذا التوازي مع اعترافنا بوجود معطيات مقيّدة على كثافتها ، ولكنّها في نهاية الامر تبقى في حيّز النوادر التي لا ترقى الى امكانية الاستفادة منها علمياً .

ومهما يكن من امر ، فإن هذه الفرضية ، والحق يقال ، قد اثارت في السنوات العشرين والثلاثين ابحاثاً تجريبية عميقة في مجال لم يسبق للالسنيين ان امتدّت ايديهم اليه .

اذ نختم القول في سابير نجد انفسنا مدفوعين مرة اخرى الى نزعة عرف بها في بحوثه وهي نزوعه الى «الحسّ» الالسني . فهو يرى «ان البنية الصوتية كالاخرى المفهومية تشير الى الحسّ الغريزي الذي يمتلكه الانسان ازاء الشكل» ، فضلاً عن وقوعنا في مؤلفاته على عبارات مثل «العبقرية الصوتية للغة» او «العبقرية البنيوية للغة» . هذا شيء وشيء آخر لا بدّ من ابرازه هنا وهو ان الخلاصة المعتبرة التي يمكن لاعمال سابير ان تظهرها ، هي تذكيرنا بكل مسألة من المسائل التي صدفت الالسنية البنيوية عنها من غير ان تجد لها حلولاً . هذا ، واذا قدّر لنا اليوم ان نستأنس بكل ما اتحفنا به سابير فليس هذا للعموميات التي اطلقها في بحوثه بل للوقوف على العناصر المحددةالتي وفّق في طرحها كمشكلة العلاقة بين الصوت والمنظومة الصوتية ـ الصرفية .

15.2.1.2 ليونار بلومفيلد

الميكانيكية او مناهضة الذهنية

يمثل ليونار بلومفيلد Léonard Bloomfield الاتجاه الآخر للالسنية الامريكية ، وليس هذا الاتجاه الآ ضربا من ضروب البنيوية السوسيرية . انّ بلومفيلد هو القطب المناهض للذهنية mentalisme سابير ، اذ انه بتيّاره هذا قد دمغ الالسنية الامريكية

بسماته الذاتية اكثر من اي السني آخر ، فضلا عن الصدى الكبير الذي خلفته اراؤه في الثقافة الالسنية الامريكية جملة وتفصيلاً .

لقد ولد بلومفيلد في شيكاغو عام ١٨٨٧ ودرس في هارفرد ثم سرعان ما بدأ حياته العملية معيداً يدرّس اللغة الالمانية في جامعة وسكنسن ، الى ان حصل على شهادة الدكتوراه من جامعة شيكاغو عام ١٩٠٩ . وفي عام ١٩٤٠ تسنّم بدل سابير كرسي الألسنية في جامعة يال . هذا ، وابان الحرب العالمية الثانية ، اضطرت الولايات المتحدة تحت وقع المشكلات الالسنية المنوطة بحرب المحيط الهاديء من مثل فك رموز الرسائل ، ترميز الرسائل العسكرية ، اضطرت الى تعيينه في مركز الاعداد الالسني للمقاتلين ، فكان الملهم العلمي للبرنامج اللغوي المعروف بـ Intensive language Programm والمتجسد في برنامج Army Special Training Programm وفي هذا المضمار كان بلومفيلد قد كتب عام ١٩٤٢ للالسنيين المجندين في الخدمة العسكرية كراساً(152) الذي عُدَّ الاساس في تجديد تعليم اللغات الاجنبية الحيّة في الولايات المتحدة . غير ان اصابته بشلل نصفي عام ١٩٤٦ قد حجّم نشاطه الحقيقي حتى اصبح من عالم الارواح عام ١٩٤٩ .

لم يكن بلومفيلد اميرا من امراء الكلمة كسابير الذي كان منطقياً من الطراز الاول فلغته ساحرة وشخصيته تبعث في نفوس سامعيه طغياناً سافراً . ولهذا ، فان تأثيره ـ بلومفيلد ـ كان محدوداً في هذا المجال ، غير ان كتبه الالسنية قد فعلت فعلاً كبيراً في نفوس طلابه ومريديه ، خاصة اذا علمنا ان مؤلفاته كانت على اهميتها وخطورتها عديدة وتتجه اتجاهاً نحو الالسنية العامة او المنهجية فيها ، فضلاً عن نشره بحوثاً خصصّها للغة الجرمانية واللغات الهندية الامريكية ، والبولينيزيه الملاوية. وممّا يسم شخصيته الكتابية عودته الدائمة الى معالجة المشكلات ذاتها وخاصة عندما كان يدرك ان الصياغة التقليدية للمشكلات الالسنية بعيدة كل البعد عن الدقة العلمية وهي من الصفات التي سعى الى ممارستها وتطبيقها .

ان المؤلف الاساسي الذي ترجم فكره اللغوي ورؤاه الألسنية عامة هو كتاب

---

(152) Outline Guide of Foreign Language Teaching

الذي يشارك كتاب سابير في عنوانه ذاته Language / 153 / . ان مؤلف بلومفيلد هذا المكتنز حجما ومادة (قرابة ٦٠٠ صفحة) يبني اسسا السنية تقوم على مقاربة سلوكية behavioriste لوقائع اللسان المنظور اليها كاستجابات لمثيرات Stimulus . وقد كان لهذا الكتاب خطر بين في الاوساط الالسنية الامريكية إذ انها قد تَبَنّته نظرية وتطبيقا بين عام ١٩٢٥ و ١٩٥٥ . على الرغم من اعادة النظر التي مُنيت بها تصوراته في السنين الاخيرة .

ان المقاربة السلوكية كمنظور قد دفع ببلومفيلد الى الاخذ بعين الاعتبار مواقف اللسان المحسوسة وحسب ، والى اقصاء كل ارجاع référence الى الدلالة اقصاءً مبدئيا وصولا الى التعرف الى الوحدات الالسنية . وقد كان صنيعه هذا مقابلة للاتجاه الذهني mentalisme الذي يحدّد ويرى في الكلام نتاجا للفكر . ومن هذا نجد ان تطور الوقائع الالسنية المادي (الميكانيكي لا الجدلي) والسلوكي يمكن تلخيصه في عبارتي المثير والاستجابة وذلك بحسب النموذج التالي :

S - r - s - R

يمكننا تفسير هذه الرموز مقدرين ان S تمثل مثيرا خارجيا يدفع احدا ما لكلام r ، ان استجابة المتكلم الالسنية هذه تشكل بدورها مثيرا السنيا s يستجرّ استجابة له R . فمن هذا القبيل نجد ان S و R انما هما حدثان عمليان يرجعان الى العالم غير الالسني الخارج عن اللغة . امّا r و s فيشكلان ، على عكس ذلك الفعل الالسني . وزيادة في التوضيح نسرد القصة التالية وهي احد الامثلة التقليدية التي تسوقها السلوكية في امثلها .

يريدُ Jill التفاحة الموجودة على الشجرة (او لنقل حاذفين العبارة الذهنية «يريد» لنقل «جيل جائع فرأى تفاحة» وربمّا وجب ان نقول «فنشأ في جسده ظواهر محدّدة تتسبَبّ في جوعه») ولكونه غير راغب في الصعود الى الشجرة (اولانه لا يعرف ذلك) فقد طلب التفاحة من جاك . ونعني بهذا انه قام «بعدد صغير من الحركات في جوفه وفي فمه فاحدثت ضجيجا صغيرا (= تكلُّم) وليست حركات الفم هذه سوى «ردّ فعل السني» حلّ محلّ ردّ الفعل غير الالسني ذاك الذي كان ممكنا في قطفه التفاحة

(153) Language, New York, Holt, Rinehart and Winston 1933; London, Allen and Unwin, 1935
والترجمة الفرنسية Le Langage, Paris, Payot, 1970, 525p.

مباشرة ، إنّ ردّ الفعل الألسني يشكل لدى جاك ، وهو المستمع ، مؤثرا يدفع به لقطف التفاحة وتقديمها الى جيل . ونتيجة لهذا يمكن القول : ان اللسان يساعد شخصاً ما على اتمام ردّ فعل ما R وخاصة عندما يشعر شخص آخر بالمؤثر S . واذا كان لنا ان نُعمّم قلنا ان «تقسيم العمل وسير المجتمع البشري ناجمان عن اللسان (اننّا نريد بالعبارة الاخيرة «ناجم عن» اي موجود بفعل وفضل اللسان) وهكذا تزداد امكانات ردّ الفعل تجاه مؤثر ما بشكل يسترعي النظر .

قلنا من قبل ان السمة الاساسية التي تسم اثار بلومفيلد الألسنية هي موقفه المناهض للذهنية antimentalisme ، ذلك ان التنوّع الكبير للاستجابات التي يؤدي اليها مؤثر ما قد جعل بلومفيلد يرفض الحلّ الذهني الخادع ذاك الذي يردّ هذا التنوع الى عامل غير فيزيائي (الارادة ، الضمير ، الروح) وحجةّ ذلك ان التصورات والافكار والصور والمشاعر والنزعة الذاتية تلك التي تلجأ الذهنية اليها انمّا تعتبر فرضيات سابقة لكل اصدار للعلامة الالسنية . ثم ان هذه الفرضيات تفندها وتدحضها السلوكية بفعل كونها اليات غير فيزيائية . ان بلومفيلد يقرّر في هذا الصدد «ان على الالسني ان يهتم بالعلامات الالسنية ليس غير ، فليس من شأنه الاهتمام بمشكلات الفيزيولوجيا او العصبية»/154/ .

ومهما يكن من امر فإن مناهضة الذهنية هذه ليست الاّ شكلا من اشكال الموقف الوضعي في اقصى حدود تطرّفه ، وان قدر لها ان تعكس شيئا فلن يكون سوى الحتمية المطبقة في ذلك الزمن .

اننا لا نريد ان ندخل في مختلف اوجه وآمارات النظرية التي حاول بلومفيلد ان يشكلها في منحاه السلوكي هذا ، ولكن حسبنا ان نركز على المبادىء التي اثرت تأثيرا قويا في التطور اللاحق للألسنية ، اننا سنحددّ هذه المبادىء في آفاق التصويتية والمفرداتيّة والنحو والدلالية Sémantique :

١ ـ في التصويتية :

(154) الترجمة الفرنسية للمرجع السابق Le Langage, p. 35

انا لا نلمح في جهود بلومفيلد جديداً ذا بال في منحى التصويتية فهو كسوسير على اعترافه بعبقريته اللغوية واثاره فيه ، قد حاول استخراج غرض السني صرف من مجموعة الظواهر المعقدة التي تتضمنها عبارة «اللغة» ان رؤيته في هذا المجال توجز ملخصة كل مكتسبات الالسنين الاوروبية والامريكية معاً . وفي شرعه ان الدلالات والاصوات لا تشكل في حدّ ذاتها غرض الالسنية . بل ان ما يشكل هذا الغرض انمّا هو «اتحاد اصوات محدّدة بمعنى محدد» . ذلك ان الالسني يولي الاصوات أهمية بقدر ما تسهم في مساعدته على التفريق بين الدلالات اذ ان سمات الاصوات ـ ونعني بها هنا الصوتيات ـ الاساسية للغة ما ، هي نفسها التي يرتبط بها اختلاف في المعنى .

ان من بين الافكار التي طرحها بلومفيلد في التصويتية تعريفه للصوتيم الذي يذهب في تعريفه مذهباً يخالف فيه سابير الذي يُرى فيه اليوم زعيماً للواقع السيكولوجي لمفهوم الصوتيم ، ان بلومفيلد يحدّد الصوتيم بصورة تنأى كل النأي عن مفهوم النزعة السيكولوجية التي ارتفقت بسابير ، فهو يعزل ، كمدرسة براغ ، الصوتيات انطلاقاً من عملية الابدال بينها ، ولكنه مع ذلك يعرّفها بحسب توزّعها وتموضعها في السلسلة الكلامية .

٢ ـ في المفرداتية :

ان بلومفيلد يتخذ الابدال منهجا يطبّقه في دراسته للوحدات الفهرسية وهو يرى ان الاشكال التي تتحدّد فيها اصوات محدّدة مع مدلولات محدّدة اشكال السنية (في حين ان الصوتيات ليست اشكالاً السنية) ، وهو يفرز ويقسم الاشكال او الصيغ الالسنية الى اشكال متّصلة لا يمكن لفظها منعزلة كالصرفيات واجزاء الكلمة الاخرى) والى أشكال منفصلة يمكن لفظها بعيداً عن الاشكال الاخرى (الكلمات ، مجموعات الكلمات ، الخ . . .) والى اشكال اخرى معقّدة تشبه ـ ولو جزئياً ـ وهذا من وجهة نظر صوتية دلالية ، اشكالاً السنية غيرها (الكلمة ، الجملة ، مجموعة الكلمات) واخيراً الى اشكال بسيطة ليس فيها ما يشبه سابقاتها (الصرفيات) . ان بلومفيلد يستمد ، من كل ما تقدم تعريفات لكل التصورات الالسنية التي بلورها .

وخاصة تعريفاته للتصورات التي تأخذ حيزا كبيرا في صلب الالسنية مثل :
المكوّن ، الصنف ، البناء .

٣ ـ في النحو :

ربمّا كانت نظرية المكوِّنات المباشرة التي جسّدها بلومفيلد المُنطلق الجوهري للنحو الامريكي بكامله ، وأصالتها تكمن في قدرتها على جرد بعض الامكانات الشمولية العامة سعياً لبناء جملة ما بدءا من الصوتيات التي تتكّون منها الجملة . انّ لدينا من هذا المنطلق امكانات ثلاثا : فهناك أولا : النغم المتبدل modulation كما نرى ذلك في المقال الفرنسي tu voyages?, tu voyages! وتعني «تُسافر» ذلك ان هذا اللون من النغم ياخذ بنا من صيغة استفهام الى صيغة تعجب ، وثانيا التناوب الصوتي alternance phonétique ونعني به تغيرّ الصوتيات الابتدائية ، وثالثا الانتقاء Sélection وهو استخدام متباين للمكوِّنات ذاتها تلك التي تؤدي الى مدلولات مختلفة .

ويدعى الجزء المشترك بين شكلين معقّدين متجليا في شكل السني يدعى مكوِّناً Constituent, Constituant او بلغة اخرى مركبا لهذه الاشكال المعقدة : ثم ان المكوِّنات هذه تكسر الى طبقتين : مكوِّنات مباشرة C.immédiats واخرى نهائية او صوتيات . هذا ، ومن السهل تفسير تصوّر المكوِّن المباشر ذاك الذي يبدو قريبا من تصوّر سوسير للتركيب ، عبر المثال الآتي : Poor John ran away اي فرَّ جون المسكين . فالجملة هذه تقسم الى مكوِّنينَ مباشرين اثنين : ١ ـ Poor John ٢ ـ ran away . ان كلاً منهما يقسم بدوره الى مكونين مباشرين ايضا ١ ـ John و Poor . ٢ ـ ran و away الخ . . . الى ان نصل الى الصوتيات المعزولة : ran صرفيم ، و away وهو شكل معقّد تتشكّل مكوناته من الصرفيمين ـ way, a

انّ تصور المكوِّن المباشر قد ترك اثارا بعيدة في بحوث النحو الشكلي سنوات طوالا . كما استخدم بنجاح ، بعد ثلاثين عاما تقريبا في مجالات كثيرة من القواعد الالية ونماذج اللغة الرياضية .

٤ ـ في الدلالية :

لم تكن الدلاليّة la sémantique بعيدة عن فكر بلومفيلد الالسني ، اذ انه قد عمل فيها طويلا ، وكتب فيها بحوثا غير قليلة ، اذ قدّر له ان يدفع بهـذا العلـم خطوات جبارة لم تزل اصداؤها ماثلة في الفكر الالسني حتى اليوم ، على الرغم من ان الكثيرين يظنون وهما ، ان بلومفيلد لم يقترب من عالم الدلالة . ومرجع هذا الوهم عبارة كان بلومفيلد قد اطلقها مرة ، وفحواها انه «اذا اردنا ان نعطي دلالة كل شكل من اشكال اللغة (= الكلمات) تعريفا علميا صحيحا ، فهذا يعني ان علينا ان نعرف معرفة علمية سليمة كل ما يكون عالم المتحدث . ان الدراسات الحالية للمعرفة البشرية ليست بشيء انها قليلة جدا ، مقارنة مع ذلك (155) .

لقد ظنّ تلامذته توهما انه ليجدر بهم اقصاء علم الدلالة من الالسنية ، ذلك ان الدوال تظل عزيزة المنال . ونتيجة لذلك ، نرى ان الالسنية الامريكية قد بقيت ثلاثين عاما (١٩٣٠ ـ ١٩٥٥) تصمّ اذنيها لنـداء الـدلالية . وعلى كل فلا بدّ من تصحيح تفسير الجملة التي قذف بها بلومفيلد داعيا الى التبصرّ في نقطة محدّدة «ان اقامة الدلالة / . . . / هي النقطة الشـلاّء في دراسـة اللسـان ، وستبقـى هكذا ، مادامت معارفنا ليست بأكثر تقدما مما هي عليه اليوم» (156) .

ولكن وعلى الرغم مما ذكرنا سابقا ، نستطيع ابراز التعريف المشهور الذي قال به بلومفيلد تجاه دلالة شكل السني (= كلمة) . ان الدلالة ، كما يرى ، هي «الموقف الذي ينطق فيه المتكلم الشكل الالسني ، والاستجابة التي يثيرها هذا الشكل لدى السامع» (157) يبدو لنا انّ هذا التعريف السلوكي يركّز على الطريقة التي يكتسب بها الطفل معنى الكلمات التي يسمعها اذ ان لآلية اكتساب الطفل معاني الاشكال الألسنية أهمية نظرية جوهرية أولا وخطيرة هامة ثانيا .

وقصارى القـول ، لقـد كان للتيار الـذي قاده بلومفيلـد وللآثـار والـرؤى

(155) المرجع نفسه ص ١٣٢

(156) المرجع نفسه ص ١٣٢

(157) المرجع نفسه ص ١٣٢

الالسنية التي نادى بها اصداء بعيدة في افاق الالسنية الامريكية استفاد منها اللاحقون بقدر او بآخر وخاصة منهجه التحليلي الدقيق ممارسة وتطبيقا . غير أن الفعل الاكبر لجهوده اللغوية نراه واضحاً ومضيئاً في وضعه اللبنات الاولى في مدماك التوزيعية ، والتيار التوزيعي ضرب من ضروب البنيوية الامريكية الذي سيجد في كل ما صدر عن بلومفيلد عاملا اساسيا في تكوين النظرية التوزيعية بدءامن نهاية الثلاثينات وحتى بداية الخمسينات وهي ، اي التوزيعية ، موضوع حديثنا في الصفحات التالية .

15. 2. 2. التوزيعية

لم يكن للتوزيعية distribut ionnalisme ان تنبثق لولا الدور الرائد الذي قدّر لبلومفيلد ان يلعبه في الحقل الالسني الامريكي عامة ، فعنه صدرت ومن اثاره تجمّعت خيوطها تلك التي امتدت اليها ايدي الالسنيين الامريكيين اذ انهم قد ورثوا ، بقدر متفاوت ، تراثه الالسني بكليته طوال عقدين من الزمن (حتى عام ١٩٦٠) ، محاولين تأسيس المدرسة التوزيعية التي يمكن ان نجعل من بلومفيلد فتاها الاول .

لعلّ من الاسماء اللامعة التي تقفز الينا ونحن في عالم التوزيعية برنار بلوك B.Bloch وشارل هوكيت Ch.Hockett واوجين نيدا Eugene Nida وجورج تراغر G.L. Trager وكلّهم من تلامذة بلومفيلد ، او البلومفيلديين المولدين ، الذين طوتهم مدرسة يال الشهيرة . وعلى الرغم من الجهود المثمرة التي قدّموها للبنيوية الامريكية ، الاّ ان اسم زيليغ هاريس Zellig Harris هو المنظّر والمجسّد للتوزيعية بكل ابعادها ومراميها .

15. 2. 2. 1 زيليغ هاريس

ولد في روسيا عام ١٩٠٩ ثم عرج على الولايات المتحدة عام ١٩١٣ حيث

حصل على شهادة دكتوراه الـPh.D/158/ من جامعة بنسلفانيا . ومنذ ذاك عيّن معيداً بين عام ١٩٣١ و ١٩٣٨ ، فضلاً عن القائه دروساً في «التحاليل الالسنية» في جامعة ميشيغان ومن بين طلابه في السنوات ١٩٥٠ - ١٩٥٤ يتراءى نوام شومسكي الذي سيتخذ لنفسه ، فيما بعد ، منهجاً خاصاً به ، مبتعداً بذلك عن تعاليم معلّمه .

يعتبر هاريس مُنَظِر التوزيعية واحدى الشخصيات الاكثر دقة وصرامة في الالسنية الامريكية المعاصرة . غير أنّه تميّز واشتهر بكتاب كثيف ومعقّد الى حد ما هو «طرائق في الالسنية البنيوية» /159/ . وفيه يجهد في تطبيق احدى قيم الالسنية البلومفيلدية ونعني : إبعاد كل ما ليس اختلافاً شكلياً او توزيعياً للعناصر الالسنية . وفي كتاب هاريس ايضاً ، نجد محاولة ذات بال اراد بها وسم مناهج التحليل الالسني بالمنهجية الى ابعد الحدود ، وهي طرائق تنهض على تقسيم السلسلة الكلامية وتصنيف الوحدات الالسنية من حيث قدرتها على التواجد بين نقطتين من نقاط التقطيع . وبكلام آخر ، انها طريقة شكلية لتقطيع السلسلة الكلامية الى وحدات تمييزية تحدّدها العلاقات التي تقيمها هذه الوحدات في محيطها الالسني .

15.2.2.2. التحليل التوزيعي

لقد اختط التيار التوزيعي الذي تعمّق الساحة الالسنية الامريكية حوالي عام ١٩٣٠ منهج تحليل لم يرق الى مستوى النظرية بالمعنى الذي تقدّمه لنا هذه الكلمة «نظرية» بشكل عام .

إنّ طرائق التوزيعية الاختبارية انمّا تبعث بالملاحظة التي يهجس بها ويتناولها الالسني عبر دراسته اللغات الهندية الامريكية . ذلك انّ الالسني في صنيعه هذا يفكّ رموزاً من غير ان يطمئن قبلاً الى جملة من المعلومات المسبقة التي تفيده في غرض

(158) وتعني Doctorate in philosophy وتقابل دكتوراه الحلقة الثالثة الفرنسية Doctorat de III Cycle والكانديدات السوفياتية .

(159) Methods in Structural Linguistics, University of chicago Press, 1951.

دراسته . ومن هذا القبيل ، يتبدى النص كواقع وحيد يَبرُز ويظهر امام الالسني الذي يعمد الى تفكيك رموزه والوقوف على دلالاتها. ويَخْلُقُ بنا ان نذكر هنا ان ظهور هذا الموقف إنّما ابتعثته المهمة التي انيطت بالالسنيين ، ابان الحرب العالمية الثانية ، وصولاً الى فك رموز الوثائق العسكرية .

وليس هذا هو كل شيء ، فثمة بواعث اخرى يمكن ان تساعدنا على تفسير نشوء هذا التيّار الالسني . فمن ذلك مثلاً غياب الدراسات الفقه لغوية او المقارنة او التاريخية في القواعد ، وضخامة عدد اللغات الهندية الامريكية التي تمتد في انسابها الى اكثر من مئة وخمسين اسرة لغوية .

ان هذه الامور مجتمعة قد طرحت أكثر من تساؤل على علماء الاناسة وعلى الاداريين لحل مشكلات هذه اللغات ، الامر الذي ادّى اخيراً الى ان تتخذ التوزيعية القطب الاكثر امتداداً في غيرها من الالسنية الامريكية .

ان التوزيعية تهدف اولاً الى وصف بنية اللغة، ولكن ما الأسس النظرية وما المنهج الذي ارتسمته لنفسها حتى تقوى على النهوض بمهمتها بشكل سليم معافى ؟ اننا سنحاول ان نجزىء القول في الأسس اولاً ، والمنهج ثانياً حتى يأتي عملنا هذا متكاملاً في شبكة خيوطه وعقده .

آ ـ الأسس النظرية

إنَّ دارس التوزيعية ، نظرية ، يجد بسهولة ويسر ان الأسس التي تقوم عليها ليست ببعيدة عمّا قرّره سوسير في كتابه «**محاضرات في الالسنية العامة**» :

ـ إذ أن اللغة هي غرض الدراسة الاوّل مقابلة بالكلام .

ـ ولا بدّ لهذه الدراسة من ان تكون تزامنية (من الملاحظ ان الالسنيين الامريكيين كانوا عاكفين على دراسة لغات غير مكتوبة) .

ـ وفوق ذلك ، ان اللغة في شرع التوزيعية مؤلفة من وحدات تمييزية يظهرها

التقطيع او التقسيم ، ولكن ما يشدنا اليه في هذا المنعطف ان سوسير راح يطرح نظرية العلامة الالسنية بينما نجد ان التوزيعيين قد تناولوا المسائل التي يطرحها التحليل ونعني بذلك كيفية الوصول الى الصرفيات اي العلامات الالسنية واستخراجها .

ـ ان كل لغة تشكل منظومة خاصة ،

ـ تتحدّد فيها العلامات الالسنية بعلاقاتها داخل المنظومة ، وبكلام آخر ، بالعلاقات التي تبنيها والعناصر الاخرى داخل المنظومة الالسنية ذاتها .

ب ـ المنهج

تعتمد التوزيعية منهجاً ينهض على طريقة شكلية وصولاً الى تقطيع السلسلة الكلامية على مستويات مختلفة كالمستوى الصوتيمي والمستوى الصرفيمي والمستوى النحوي ، قاصدة بذلك ردّ هذه السلسلة الى وحدات لا تُحدَّد بوظائفها وانمّا بمواقعها في السلسة ذاتها . ان الامر منوط هنا بوصف عناصر اللغة او لنقل بنيتها بشكل استنفاذي شامل ، كل ذلك بقدره هذه العناصر على الترابط فيا بينها .

ان التحليل التوزيعي ينطلق ، وصولاً الى هذا الوصف من :

ـ معاينة مادّة Corpus التي تعني مجموعة منهية لبيانات énoncé او جمل اصدرها فعلاً متكلّمون فهذه البيانات هي مادة التحليل المعتمدة من حيث كونها صفة مميّزة للغة المدروسة ، غير ان تحديد هذه المادة لا بدّ من ان يخضع للمعايير التي تضمن للمادة تمثيليّتها (= عيّنة من اللغة) représentativité وتجانسها homogénéité

ـ ولا يُعار المعنى ادنى انتباه ، مكتفين بالشكل ، ذلك ان المعنى لا يستخدم الاّ تأكيداً على ان بيانين هما مثلاً متشابهان او مختلفان .

ـ وما ان تُحدَّد المادّة حتى يؤتى الى تقطيعها ، غير ان ذلك لا يتمّ الاّ اذا قام المُحَلِّلُ بتقريب اجزاء لبيانات مشابهة يمكن لنا ان نقارنها ، وهذه المقارنة تسعى الى تحديد الصرفيات ، إنّ طريقة التبديل Commutation كما يقول اندريه مارتينيه انمّا

ستخدم «لتصنيف وحدات اللغة بحسب درجة التشابه الكبرى في توزيعها» . وفضلا عن ذلك انّ هذه المقارنات تهدف الى استخلاص ما يمكن استخلاصه من تجمعات متماثلة ومتشابهة .

ـ هذا ، وإذا ما فرغ التحليل التوزيعي من مشكلة التصنيف هذه ، جاء ليبني ويكشف عن المحيطات الالسنية التي تحاصر الوحدات الالسنية المستخرجة . ان محيط وحدة السنية محدّدة اي سياقها ليتشكل من الوحدات التي تسبقها او تليها .

ـ وينتهي التحليل اخيرا الى جملة قوانين انساق الوحدات على اختلافها وتباينها ، مع الذكر والالماح الى ان انماط الوحدات هذه تتم عبر ما يعرف بتقنية الاستبدال الاختبارية (اي التبديل) .

ولتوضيح ذلك ، نضرب المثال التالي وهو متتالية الصوتيات الفرنسية الاتية l'étudiant اي الطالب ، معتبرة ومقدّرة وحدة لا تجزأ اي عنصرا السنيا . ان هذه المتتالية يتمّ تحديدها انطلاقا من بيانات ذات معنى :

L'étudiant travaille	الطالب يعمل
L'étudiant fait des recherches	الطالب يقوم بابحاث
L'étudiant est satisfait	الطالب راض

نقول ان المتتالية تحدّد عبر السياقات التالية travaille ، وfait des recherches وest satisfait وبداية الجُملة . وقد تكون جميع سياقات وحدتين السنيتين مشتركة فيما بينها مثل **أخت و خالة في :**

١ ـ انهّا . . . جارنا

٢ ـ . . . . عُمر

٣ ـ ليس له الاّ . . . واحدة

وفي هذه الحالة ، نرى ان هاتين الوحدتين تعودان او تنتميان الى صنف توزيعي واحد ، او لنقل انهما متساويتان توزيعياً ، واذ لم يكن لوحدتين اي سياق مشترك نقول انها في حالة توزيع مكمّل distribution Complémentaire ، (.12.1.3) .

وقد نجد لوحدتين بعض السياقات المشتركة فهما من هذا القبيل متساويتان جزئيا من حيث توزيعهما ، مثال ذلك في الفرنسية rien (لا شيء)
وpersonne (لا احد) :

تساوي

. . . موجود	Il n'y a ...
. . . يأتي	... ne vient
لا أرى . . . آخر	Je ne vois ... d'autre

لا تساوي

لم أر . . .	Je n'ai vu ... (personne)
لم أر	Je n'ai... vu (rien)
لم يتكلّم الى . . .	Jl n'a parlé à ... (personne)

نستخلص مما تقدم ان المنهج التوزيعي بتقطيعه بيانات المادّة يقودنا الى المكونات المباشرة . اذ ان مبدأ اظهار هذه المكوّنات يذهب الى القول بامكانية تحليل كل بيان عبر مستويات متعددة بشكل متتالي ، ثم الى ابراز العناصر المكونة لكل مستوى ، بدءا من الجملة وانتهاء بالصرفيم الذي يعتبر الوحدة الصغرى من وحدات التمفصُل الاول ، ونريد بذلك الوحدة التي لا نستطيع ان نردّها الى عناصر اصغر منها . ولتوضيح ما نذهب اليه ، نلتمس البيان الفرنسي التالي كمثال يكشف وجه المسألة :

Le boeuf exténué tirait la charrue sous la pluie

(الثور التعب كان يجرّ العربة تحت المطر)

نبدأ اولا بالتعرّف على الوحدات الدلالية ابداليا . فمن هذا المنطلق يمكن ابدال كلمة Pluie (اي مطر) بكلمة neige اي ثلج اوgrêle أي بَرَد . أمّا اداة التعريفla فيمكن كذلك ابدالها باسم الاشارةCette وحرف الجرsous بـdans او بـ malgré اي على الرغم من الخ . . . وبهذ الطريقة نتمكن من تعداد تسع وحدات السنية (اي كلمات) وهي وحدات لا تتموضع بحرية تامة في ترتيب هذا البيان او

الجملة اذ ان ثمة انساقا (او ترابط وحدات) غير ممكنة لا تفضي الى تراكيب مقبولة . ان حدسنا يُنبّهنا الى ان المتتالية : التعب كان يجرّ exténué tirait لا يمكن ان تشكل تركيبا . وكذلك الامر بالقياس الى charrue sous اي العربة تحت . غير ان المتتاليات tirait la charrue, boeuf exténué اي ثور تعب وكان يجرّ العربة او Sous la pluie اي تحت المطر ، تشكل تراكيب مقبولة ومأخوذا بها . وللتثبت والتأكد من صحة تشكيل التركيب ، يلجأ المُحَلِّل الى معيارين شكليين هما : الابدال والتقليص :

آ ـ الابدال

ان المتتالية tirait la charrue يمكن ابدالها بفعل واحد مثل peinait (اي . كان يجهد) او souffrait (اي كان يتألم) دون ان يفقد هذا البيان ـ المثال وحدة ضرورية ولازمة من بنيته :

Le boeuf exténué peinait sous la pluie

كما يمكن ابدال المتتالية sous la pluie بظرف مكان ، وليكن là (أي هناك) . في حين لا يمكن لاية وحدة ان تحلّ محلّ المتتالية charrue sous, exténué tirait (اي : التعب كان يجرّ ، عربة تحت)

ب ـ التقليص

ويمكننا كذلك حذف الصفة exténué (تَعِب) دون ان يحدث تغيير في اية وظيفة من وظائف الوحدات الاخرى في البيان :

Le boeuf tirait la charrue sous la pluie

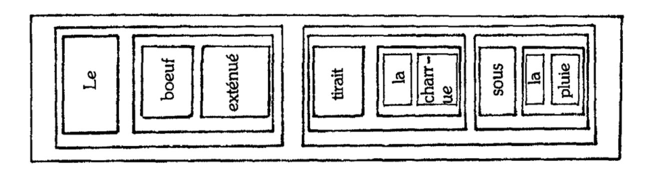
وهذا دليل على ان الوحدة exténué والوحدة boeuf تشكل تركيباً واحدا ، اننا نُسمي عملية الحذف هذه تقليصاً réduction

هذا من جهة ومن جهة اخرى ، فنحن قادرون على تمثيل المثال السابق في

المخطط التالي المُسمى بـ «عُلبة هوكيت» حيث ترمز كل علبة الى مكوّن مباشر ، مع العلم انها قد تشتمل على علب اخرى داخلها :

<table>
<tr><td rowspan="3">Le
4</td><td rowspan="2">boeuf
6</td><td rowspan="2">exténué
7</td><td rowspan="2">tirait
10</td><td>la
12</td><td>charrue
13</td><td rowspan="2">sous
14</td><td>la
16</td><td>pluie
17</td></tr>
<tr><td colspan="2">la charrue
11</td><td colspan="2">la pluie
15</td></tr>
<tr><td colspan="2">boeuf exténué
5</td><td colspan="3">tirait la charrue
8</td><td colspan="3">sous la pluie
9</td></tr>
<tr><td colspan="3">Le boeuf enténué
2</td><td colspan="6">tirait la charrue sous la pluie
3</td></tr>
<tr><td colspan="9">Le boeuf exténué tirait la charrue sous la pluie
1</td></tr>
</table>

ويمكن ايضا تمثيل هذا البيان بالشكمل التالي :



ج ـ خاتمة

إن قارىء التوزيعية بطرائق تحليلها يحُس بشيء غير قليل ممّا يلفها من التعقيدات التحليلية التي تنبثق من حين الى آخر . ولكن أن نقول ان كثافة من الصعوبات قد ألقت بظلها على هذا المذهب ، لا يعني ان نجرده من سمة القبول والبساطة احياناً ، ذلك انّ الالسنية التوزيعية تنهض على بعض الافكار غير المعقّدة الممكن فهمها وادراكها بيسر وطمأنينة ولهذا ، سوف نحاول كشف وتبصر هذه الافكار وبيان الخطوط الكبرى لما يعرف بالتحليل الصنافي taxinomique ، ونعني بهذا الاخير وجود أكبر عدد ممكن من الوقائع التي نقوى على معاينتها كشرط ضروري

لكل بحث علمي يدخل عالم اللغة ايا كانت . ومن هذا ، فإننا نضع ايدينا على المحاور التالية :

- اكتشاف المادّة ،
- التحليل العلمي الدقيق للمعاودات récurrences - (160) .
- بناء تصنيفات على اسس شكلية وتوزيعية ؛
- تحليل اللغة التركيبي .

انّ وصّاف اللغة ومحلّليها وان لم ينجحوا في سعيهم في القبض على الملامح الصافية للتقنية التوزيعية ، فإن هذا لا يعني بأي شكل من الاشكال ان التحليل التوزيعي كفكرة يحمل في ذاته سبب خيبته . ذلك اننا اذ نجابه لغة لا نعرفها او لنقل مجهولة بالقياس لنا ، فإن منهجنا ازاءها سيكون ولا شك قريبا من المنهج التحليلي للتوزيعية ، فضلاً عن ان دراسة العناصر التوزيعية هي الوسيلة الوحيدة التي نقوى بها على الوصول الى ما نهدف اليه في كل مجالات وسائل فكّ الرموز الألسنية .

وعلى كلٍ ، وعلى الرغم من المعطيات التي نقع عليها في الحقل التوزيعي ، فإننا قادرون على التماس حدود هذا المنهج :

- فهناك اولاً مفهوم الصرفيم ذاته الذي يطرح غير مشكلة كبيرة ، كما يتبدى ذلك لنا في التقطيع التقليدي للكلمات في المستوى الخطيّ (au - a le اي الى ، وكذلك في الدوال المنفصلة كاشارة النفي الفرنسية ne ... pas في قولنا il ne travaille pas اي لا يعمل) .

- ان مفهوم المنظومة ، ثانياً ، واسبندالية اللغة هي فرضيات لا بدّ من التثبت منها وليس هي واقعاً تجب دراسته .

- وثالثا ، غياب القيمة الدلالية التام ، في حين نجد ان العمليات الاستبدالية الي ينهض بها المخبِر الالسني informateur تتعمد افتراض المعنى بشكل قبلي ، نزيد على ذلك ان المُحلِّل اذ يقوم بعمليات الاستبدال تلك «يعي» جيدا لماذا لا يدخل العنصر س في اطار العنصر ع مثلا

---

(160) أي للوحدات التي تتردد في المادّة

تلك هي اهم الحدود التي تتبدى لنا من خلال الملامح العامّة للمذهب التوزيعي .

15.2.3. القواعد التوليدية

مع مجيء نوام شومسكي ، يتبدى افق جديد آخر في الالسنية الامريكية العامة ، ويبدو ان وجوده كان امرا لا بدّ منه ان لم يكن منتظرا فهو قد امدّ الالسنية بتصور وليد لم يسبق إليه من قبل وقد تمظهر متجسدا في ما عُرف باسم التوليدية générativisme التي سعت جاهدة لسدّ ثغرات التوزيعية ونواقصها .

لعلّ اول ما يطالعنا في التوليدية نفورها من التحديد المفرط جدا التي قدّمته التوزيعية للمجال التجريبي المتخذ غرضا للدراسة . اذ ان اللغة ليست مادّةcorpus (اي عيّنة) وحسب ؛ فما المادّة سوى مجموعة بيانات منتهية ، بينما تبقى اللغة قادرة على اصدار عدد لا حدود له من البيانات التي تتوالد جمُلها حينما نسمح لنفسنا بإدخال عدد كبير من جمل مختلفة (كالجمل الموصولية مثلا) في بيان ما . ومن هنا فنحن نتبينّ قصور التوزيعية كمذهب عن ادراك قدرة اللغة هذه التي لا تفنى ولا تزول .

وممّا عيب على التوزيعية ، كما يرى ذلك اهل التوليدية ، اكتفاؤها بالوصف واحجامها عن التفسير . وربمّا كان للتوزيعيين في هذا المجال عذرهم فهم يعتبرون قواعد اللغة ، ايا كانت ، مجرد تصنيف للمقاطع (الصوتيات ، والصرفيات ، والتراكيب) الممكن وجودها في المادّة . امّا التوليدية فترى ان هدف العلم يجب ان يتجاوز الوصف والتصنيف الى التفسير والبيان ، ومن هنا ، فقد كان شومسكي مدافعا لا يردّ في تثبيت وبلورة نظريته التي تهدف قبل كل شيء الى تفسير المادّة اللغوية فضلا عن الوصف والتصنيف .

15.2.3.1. نوام شومسكي

ولد نوام شومسكي Noam Chomsky عام ١٩٢٨ ودخل جامعة بنسلفانيا حيث حصل على شهادة الماجستير عام ١٩٥١ ثم شهادة دكتوراه الـ Ph.D. عام ١٩٥٥ بعد مناقشته بحثه وهو بعنوان : «Trans formational analysis» (التحليل التحويلي) . ولقد تشبّع شومسكي بتعاليم معلّمة هاريس الذي كان تلميذا لبلومفيلد المناهض للذهنية (كما رأينا ذلك سابقا) . وحوالي عام ١٩٥٥ كان رومان جاكوبسون استاذا في جامعة هارفرد فتأثر به شومسكي اذ كان جاكوبسون ، كما اشرنا الى ذلك ، متعدد الاختصاصات والاتجاهات (المنطق ، الرياضيات ، نظرية الإعلام ، علم النفس ، الحركية ، الترجمة الالية) . وفي عام ١٩٥١ ، قدم شومسكي الى هارفرد والتحق «بمعهد ماساشوستس للتكونولوجيا Massachusetts Institute of Technology (M.I.T.) حيث ساهم بنشره بحوث مع اعضاء فريق جاكوبسون ومساعديه . وفي عام ١٩٥٧ نشر كتابه Syntactic Structures - /161/ . وفي هذا الكتاب اثبت شومسكي مكانته كزعيم للتيّار المناوىء للهيمنة البلومفيليدية . ثم راح يعزّز فكره ويرفده بينابيع الفلسفة . ومن هنا استغرف مؤلفات الفيلسوف الفرنسي ديكارت /162/ وقواعد دير رهبان «بور رويال» /163/ . وفي عام ١٩٦٢ ، وخلال انعقاد المؤتمر الدولي التاسع للالسنيين في كامبريدج ، استطاع شومسكي ان ينتزع اعتراف الآخرين به كصاحب نظرية متميزة .

/161/ «البُنَى النحوية» Syntactic Structure, La Haye, Mouton 1957. ونجد ترجمة فرنسية له : Structures Syntaxiques, Paris, Le Seuil 1969, 141 P. نذكر القارىء ان فصولا هامة من هذا الكتاب قد اهملت او تمّ تعديلها اذ ان فكر مؤلّفها في حالة تطوّر مستمّر .

/162/ الفّ شومسكي كتابا بعنوان «الالسنية الديكارتية» «Cartesian Linguistics»

/163/ انظرا لحاشية رقم 38 .

واذا ما اردنا تعمّق الفكر اللغوي الشومسكي ، فما لنا الاّ مراجعة مؤلفاته الالسنية وخاصة كتابه المعنون Aspects of The Theory of Syntax (164) ثم كتابه الآخر : Language and Mind أي «اللسان والفكر» (165) غير ان ذلك لا يجلّنا عن قراءة الدراسة التي كتبها شومسكي حول كتاب سكينر «السلوك الشفهي» (166) اذ يهاجم فيه شومسكي السلوكية كمذهب السني بلا هوادة كما وتتبدىّ فيه اسس تفكير شومسكي وخاصة ما يتعلق بمسائل تعلّم اللغة والفطرية ، ذلك ان شومسكي يرى ان الانسان يولدُ متسلحا ببعض آليات فطرية تخضع فيما بعد ، عبر الزمن ، لشروط النضج السليم . يقول شومسكي : «ان البشر الاكثر بلاهة قادرون على تعلمّ الكلام بينما يعزّ ذلك على القردة الاكثر ذكاءً» غير ان ما جاء به شومسكي هنا قد لقي هجوما عنيفا على يدي عالم النفس السويسري جان بياجيه Jean Piaget الذي انتقد شومسكي في ما يخصّ مشكلات اللسان والتعلم ، ومشكلات الالسنية كتفسير لسير الفكر وعمله .

ان الرجوع الى فرضية شومسكي حول مسألة الفطرة او الفطرية لدى الانسان امرٌ لا بدّ منه في هذا المقام وخاصة اذا اردنا تتبع تصوراته للمسألة الالسنية عامة ولفكره معا . يرى شومسكي ان الفرد يتمتع لدى ولادته بآلية فطرية نُحسها عند كل فرد ناطق وبها يتعرف الى اللغة التي يتحدث بها محيطه اللغوي والتي لا بدّ له من التكيّف معها . ثم ان هذه الآلية لتنطوي على السمات الالسنية التي تشترك بها اللغات البشرية عامة . ومن هذا الجانب ، يرى شومسكي ان مهمة الالسنية تتحدّد

---

(164) Cambridge, Mass., MIT Press, 1965, 251P. وترجمته الفرنسية بعنوان Aspects de la théorie Syntaxique, Pris, Seuil, 1971, 284 P.

(156) New York, Harcourt, Brace and World, 1968, 88P. والمترجم إلى الفرنسية : Le Langage et la Pensée, Paris, Payot, 1970, 145P.

(166) Burrhus Frederick Skinner, Verbal Behavior, New York, Appleton- Century- Crofts, 1957

بقدرتها على تحديد الصفات الاساسية التي تشتملها القواعد على اختلافها . وبكلام آخر ، ان الامر ليناط هنا باكتشاف شموليات Universaux اللغة . ان تحقق امر كهذا يظل مستحيلا ما لم نرد التنوع الكبير للبنى السطحية للغة ما الى البُنى العميقة المحدودة من مثل الفئات والوظائف والقواعد . ومن المعروف عند شومسكي ان لكل جُملة بنيتين ثنتين . الاولى سطحية ونعني بها التنظيم النحوي للجملة كما تتبدى لنا سمعا او رؤية ، والثانية عميقة ونريد بها تنظيم الجملة على مستوى اكثر تجريدا ، كل ذلك قبل النهوض بعمليات التحويل تلك التي يتّم بها الانتقال من المستوى المجرد الى الآخر المحسوس .

قلنا من قبل ان شومسكي قد قال بالآلية او الآليات الشمولية الفطرية لدى الفرد وهي القادرة والكفيلة على نقل البُنى العميقة للتجربة غير الالسنية الى بُنى اللغة السطحية . وهذا الانتقال انمّا يتم بفعل كفاءة المتكلّم Compétence ، اما الاداء Performance فهو التحقيق الفعلي لهذه القدرة ـ الكفاءة . لا شك ان هذين التصورين كفاءة / اداء ليذكراننا بالتقابل السوسيري لغة / كلام (أ 9.3.1.) ولكن الاختلاف بين الاثنين هو ان الكفاءة كتصور عند شومسكي مرتبطة بمظهر اللغة الخلاّق ونعني بذلك قابلية المتكلم ، عفويا ، على توليد وفهم عدد كبير من الجُمل التي لم يصدرها ولم يسمعها من قبل . ان هذا يقود مباشرة الى الاعتراف بقدرة على الخلق تتحكّم بها قواعد اللغة وترتبط بالكفاءة اولا ، وبوجود قدرة اخرى خلاّقة مرتبطة بالاداء تنحو بهذه القواعد الى التغيير .

وفضلا عمّا تقدّم لا بدّ من التقرير ان تصوّر الكفاءة مرتبط بتصور آخر هو **القواعدية** grammaticalité النابع من قدرة كل متكلّم اخذ بزمام لغته الام على الاطلاق احكامه على ما يسمعه من بيانات مختلفة ، محددا مدى مطابقتها لفهرس اللغة وقواعدها . ومن هذا القبيل نجد ان البيان التالي : **«الألسنية الطلاّب يحُبّ»** جملة غير قواعدية في حين ان قولنا : **«يحُب الطلاب الالسنية»** جملة قواعدية متطابقة وقواعد العربية كليا .

إذ نكمل هذه الفقرة من الحديث على نظرية شومسكي وفكره الالسني ، يجدر بنا ان نلمح في نهايتها الى تصوّر التحويل transformation وهو العمليات المحدودة

المساهمة في مساعدة المتكلم على تحويل البُنى العميقة الى بُنى سطحية . ولتفسير وبيان هذا الامر ، نأخذ المثال التالي المشهور :

Dieu invisible a crée le monde visible

خلق الله غير المرئي العالم المرئي

ان وقفة قصيرة اما هذا البيان تجعلنا ندرك انه يتضمّن جملا ثلاثا مجردة ، تعبر كل منها على حكم بسيط ، حتى ولو اكتفى الشكل السطحي باشارته الى العلاقة الاسنادية . انّنا نجد فيه ان البنية العميقة مقدّرة ضمنيا ونحن لا نتمثلها الا فكريا او ذهنيا ، ولكن البُنى السطحية انمّا تنجم عن التحويلات التالية :

١ ـ الله غير مرئي
٢ ـ خلق الله العالم
٣ ـ العالم المرئي

وهذه العمليات التحويلية هي وحدها ما يسعفنا في ايجاد البنية السطحية :

«الله غير المرئي خلق العالم المرئي»

15.2.3.2. القواعد التوليدية

عرفت الالسنية بين عام **١٩٦٠ ـ ١٩٦٥** منعطفا جديدا في مسيرة تطورها ، وكان ذلك على يدي شومسكي بتصوّره الالسني الجديد للغة وبحصره مجال دراسته في النحو . وربمّا كان هذا التصور ردا لما مُني به التيّار التوزيعي من مثالب ونواقص ومطبات (أ . 14.2.2.)

لقد انطلق شومسكي في تصوّره من محاولة اعتمدت «نظرية البُنى الالسنية من دون الرجوع الى لغة معينة ومحدّدة» . وكان دافعه في ذلك انّ على الالسنيين تحديد الصفات الاساسية الملازمة في القواعد» (167) ثم عُرف هذا التصور الوليد

(167) Structures syntaxiques, p.13

بالقواعد التوليدية grammaire générative التي ارتبطت بشومسكي ارتباطا متميزا في الاوساط الالسنية ، وليس هذا بغريب فهو رائدها ومنظرها فكرا وتطبيقا .

يتبدّى لنا بوضوح ، وذلك عبر تفحّص آثار شومسكي ان القواعد التوليدية هذه كانت هاجسه الاول ، ثم إن اصالته ، كألسني ، تتجلّى في عدم اكتفائه بوصف اللغة كما كان ذلك ديدن المدارس البنيوية السابقة ، وانمّا في شرحه لها . اذ كانت الالسنية ومدارسها تطمح من قبل الى تكديس اكبر عدد ممكن من الوقائع وصفا وتصنيفا ـ والتصنيف taxinomie هو ما يميّز هذه المدارس ـ وصولا الى ايجاد تنظيم ما تشتمل عليه الوقائع المدروسة ذاتها .

وأمام هذا التيّار وقف شومسكي بشموخ ليغيّر منظور الالسنية محاولا دفع الابحاث اللغوية من التصنيف الى التنظير . ان هذه النقلة التي جاءت على يدي شومسكي انمّا تضع الالسنية في مسيرة تطوّر العلوم عامة . وقد اشار الالسني البلجيكي والاستاذ في جامعة باريس نيقولا روفيه Nicolas Ruwet الى هذه الزاوية راصدا اياها في مؤلفاته وخاصة في قوله : «انطلاقا من عدد محدود من المعاينات ، يرى العلم الحديث ان الامر يتعلق منذ الآن ببناء نظريات عامة ونماذج فرضية تهدف الى تفسير الوقائع المعروفة ، والتنبؤ بوقائع اخرى جديدة ، أكثر ممّا يتعلق بجمع وتصنيف وقائع جديدة» (168) ومن هذا الجانب ادرك شومسكي ان الالسنية التقليدية والاخرى البنيوية قد جمعت قدرا معلوماتيا كافيا . ولهذا ، يجدر بنا الانتقال من مرحلة التصنيف التي اعتمدتها الالسنية السابقة الى مرحلة بناء نماذج فرضية صريحة للغات واللسان .

ان القواعد التوليدية تنطلق اذا من اللغة بحثا عن المبادىء التي تحكمها وتديرها . وهي بهذا تنطلق من فرضية وجود تشابهات بين اللغات تدعى «شموليات اللسان» Universaux du langage ومن هذه الاخيرة لنا ان نذكر : التمفصل المزدوج ، العدد الصغير للصوتيات في كل لغة (والذي يتراوح بين ٢٠ و ٥٠ صوتيا) ، ثم الفئات النحوية (الفعل ، الاسم ، الصفة ، الظرف الخ . . .)

---

(168) N. Ruwet Introduction à la grammaire générative, Paris, Plon, 1967, 451 P.

واخيرا العلاقة مبتدأ / خبر الخ . . . هذا ، وبفضل وجود بُنى عمومية وشمولية فطرية يستطيع الطفل مثلا اكتساب المنظومات الخاصة ونعني بها اللغات المختلفة ، وذلك بمراقبته وملاحظته للجُمل المنطوقة في محيطه اللغوي . وهكذا يستطيع الطفل في نهاية الامر استخلاص مبادىء تشكّلها . وهذه المبادىء تساعده وتسعفه في فهم (=فك ترميز) واصدار (= ترميز) عدد لا متناه من الجُمل القواعدية اي من الجمل المبنية بحسب قواعد اللغة .

تهدف القواعد قبل كل شيء الى بيان كل الجُمل القواعدية ليس غير . ولهذا ، يرى شومسكي انّه لا بد من الاهتمام والحرص على الوصف النحوي كمكوّن اساسي من مكوّنات اللغة . وهذا الوصف سيتّخذ شكل آلية توليدية يمكن بها وصف وقائع النحو كلها بمنظومة قواعد rules règles وهذه المنظومة ، كما يبدو ، لا تنأى كثيرا عن المنظومة الشكلية بل هي تصاقبها الى حد ما . وفوق ذلك ، تحتوي هذه الآلية على عدد محدد من القواعد règles ومن الرموز (169)

لا بد من الاشارة في هذا المضمار ان قابلية الخلق هذه لعدد غير متناه من الجمل هي ما يميّز آلية اللغة . فنحن ، عندما نتكلّم ، لا نكرر نماذج جمل مسموعة من قبل بل نخلق مولدين جملا اخرى جديدة .

وكما قلنا ، ترتبط هذه الآلية بالكفاءة وتعتبر آلية منتهية ، اي مكونة من عدد من القوانين محدّد ، وهي قادرة على توليد عدد من الجمل لا حصر له . نزيد على ذلك ان الاستخدام الذي يمارسه الفرد في لغته انمّا يتعلق بالاداء . ومن هذا الجانب ، ليست القواعد التي تحدّدها القوانين وتشكلها إلاّ التجسيد الصريح الفعلي لهذه الكفاءة الكامنة والدفينة في ذهن كل منا . واخيرا ، فإن القواعد هي التي تحدّد

---

(169) يشكل الرمز عنصر تدوين المجردات والقواعد rules المستخدمة لتوليد الجُمل مثل : . . . N,V, P, SN, SV, V, P.P., M, Inf, Art التي ترمز على التوالي الى : Nom, Verbe, Phrase, syntagme nominal, Syntagme verbal, verbe, Participe Passé, mode, infinitif, article, أي : إ = اسم ، ف = فعل ، ج = جملة ، ت = إ = تركيب اسمي ، ت ف = تركيب فعلي ، ف = فعل ، ص = صيغة ، م = مصدر ، تع = ال التعريف ، م . إ = مجموعة اسمية الخ . . .

نماذج الانساق Combinaison الممكنة للوحدات الالسنية في الجُمل . ولشرح هذا التصور ، نسوق المثال التالي الذي يرمز الى قواعد ما :

ج← إ + ت ف	P → SN + SV
ت إ← تع + إ	SN → Article + N
ت ف← ف + م إ	SV → V + GN
ف← يَتَبعُ ، يجُرُّ	V → Suit, tire
أ← صبي ، كلب ، سيد	N → garçon, chien, monsienr
تع← ال	Art → le

Z

ـــ إن هذه الرموز والقوانين تُعيد كتابة rewriting, réecriture) ويرمز بالسهم الى اعادة الكتابة) القسم الموجود الى يسار السهم في اللغة الاجنبية او الى يمينه في العربية ، وذلك على الشكل الموجود مقابل السهم . ان اشارة + تعني ان المكوِّنين SN + SNV مثلا (أي ت أ + ت ف) ، في حين ان الفاصلة تشير الى الخيار الذي يمكن القيام به بين العناصر الموجودة على يمين السهم (او يساره في العربية) ، وانطلاقا من قوانين هذه القواعد ، نستطيع ايجاد ثماني عشرة جملة :

الصبيُ يَتْبَعُ الكلبَ	Le garçon suit le chien
	Le garçon suit le monsieur
	Le garçon suit le garcon
الصبي يجرّ الكلبَ	Le garçon tire le chien
	Le garçon tire le monsieur
	Le garçon tire le garçon
	Le chien suit le garçon
	Le chien suit le monsieur
	Le chien suit le chien
	Le chien tire le garçon
	Le chien tire le monsieur

Le chien tire le chien

Le monsieur suit le garcon

Le monsieur suit le chien

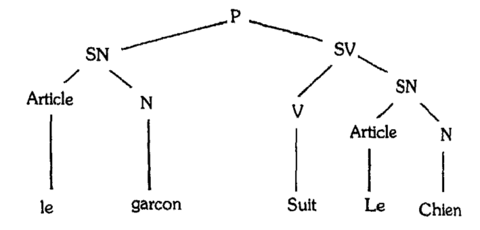
Le monsieur suit le monsieur

Le monsieur tire le garçon

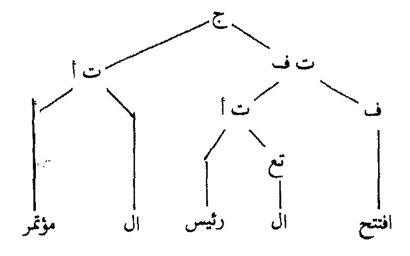
Le monsieur tire le chien

Le monsieur tire le monsieur

كما يمكن لنا تمثيل الجملة السابقة بالتشجير التالي ، والذي يدعى مُشَجَّرا arbre او المؤشر التركيبي indicateur syntatagmique



وتمثيل الجملة العربية : «افتتح الرئيس المؤتمر ، بالمُشجَّر التالي :



فهرس الأعلام

***

فهرس المصطلحات والمفاهيم

RÉFÉRENCES BIBLIOGRAPHIQUES

ARRIVÉ, M. et CHEVALIER, J. Cl. (1970) : *La Grammaire*, Paris, Klincksieck.

AUSTIN, J. L. (1962) : *How to do Things with Words*, Cambridge, Mass., Harvard University Press ; trad. fr., 1970. *Quand dire, c'est faire*, Paris, Le Seuil.

BALLY, Ch. (1909) : *Traité de stylistique française*, Heidelberg-Paris, Klincksieck, 3e éd. 1951.

— (1932) : *Linguistique générale et linguistique française*, Paris, Leroux ; 4e éd. Berne, Francke, 1965.

BARBEY, G. (1971) : *L'Enseignement assisté par ordinateur*, Paris, Casterman.

BARTHES, R. (1953) : *Le Degré zéro de l'écriture*, Paris, Le Seuil.

— (1957) : *Mythologies*, Paris, Le Seuil.

— (1964) : « Rhétorique de l'image », et « Eléments de sémiologie ». *Communications, 4.*

— (1967) : *Système de la mode*, Paris, Le Seuil.

— (1968) : *Le Degré zéro de l'écriture* (rééd.) suivi de *Eléments de semiologie*, Paris, Gonthier.

BASS, B. M. (1960) : *Leadership, Psychology and Organizational Behavior*, New York, Harper.

BATTRO, A. M. (1966) : *Dictionnaire d'épistémologie génétique*. Paris, P.U.F.

BELASCO, S. et VALDMAN, A. (1968) : *Applied linguistics and the teaching of French*, University Park, Pennsylvania, Nittany Press.

BENVENISTE, E. (1966-1974) : *Problèmes de linguistique générale* vol. 1 et 2, Paris, Gallimard.

BIROU, A. (1966) : *Vocabulaire pratique des sciences sociales*, Paris, Ed. Ouvrières.

BLANCHE-BENVENISTE, Cl. et CHERVEL, A. (1969) : *L'Orthographe*, Paris, Maspéro.

BLOOM, B. et Coll. (1970) : *Taxonomie des objectifs pédagogiques : domaine cognitif*, Montréal, Education nouvelle, C.D.N.

BLOOMFIELD, L. (1933) : *Language*, New York, Holt, Rinehart and Winston ; trad. fr. : *Le Langage*, Paris, Payot, 1970.

BOAS, F. (1940) : *Race, Language and Culture*, New York, Macmillan.

BRÉAL, M. (1877) : *Essai de sémantique*, Paris, Hachette.

BRIGHT, W. (1966) : *Sociolinguistics : Papers of the UCLA Conference on Sociolinguistics*, La Haye, Mouton.

BRØNDAL, V. (1948) : *Les Parties du discours*, Copenhague, Munksgaard.

BRUNOT, F. et BRUNEAU, Ch. (1949) : *Précis de grammaire historique de la langue française*, Paris, Masson.

BÜHLER, K. (1934) : *Sprachtheorie. Die Darstellungsfunktion der Sprache*, Iéna ; 2e éd., Stuttgart, 1965.

BURNEY, P. (1955) : *L'Orthographe*, Paris, P.U.F.

BURNEY, P. et DAMOISEAU, R (1969) : *La Classe de conversation*, Paris, Hachette et Larousse.

BUYSSENS, E. (1960) : *Vérite et langue. Langue et pensée*, Bruxelles, Institut de Sociologie.
— (1965) : *Linguistique historique*, Paris, P.U.F.
— (1967) : *La Communication et l'articulation linguistique*, Paris, P.U.F.

CATACH, N., GOLFAND, J. et DENUX, R. (1972) : *Orthographe et lexicographie*, Paris, Didier, 2 vol.

CHEVALIER, J.-Cl., ARRIVÉ, M., BLANCHE-BENVENISTE, Cl., PEYTARD, J. (1964) : *Grammaire Larousse du français contemporain*, Paris, Larousse.

CHOMSKY, N. (1957) : *Syntactic Structures*, La Haye, Mouton ; trad. fr. : *Structures syntaxiques*, Paris, Le Seuil, 1969.
— (1959) : Compte rendu de l'ouvrage de Skinner, « Verbal Behavior », dans *Language, 35* ; trad. française dans *Langages, 16*.
— (1965) : *Aspects of the Theory of Syntax*, Cambridge, Mass., M.I.T. Press ; trad. fr. : *Aspects de la théorie syntaxique*, Paris, Le Seuil, 1971.
— (1972) : *Studies on Semantics in generative grammar*, La Haye, Mouton.

COOK, W. A. (1964) : *On tagmemes and transforms*, Washington, Georgetown University Press.
— (1969) : *Introduction to Tagmemic Analysis*, New York, Holt, Rinehart and Winston.

C.R.E.D.I.F. (1967) : « Code de terminologie linguistique », *Revue de phonétique appliquée, 4*.

DÉCOTE, G. (1967) : *Vers l'enseignement programmé*, 3e éd., revue et augmentée, Paris, Gauthier-Villars.

DECROLY (1929) : *La Fonction de globalisation et l'enseignement*, Hamelin.

DE LANDSHEERE, G. et BAYER, E. (1969) : *Comment les maîtres enseignent* (*Analyse des interactions verbales en classe*), Bruxelles, Ministère de l'Education Nationale, Administration des études, document n° 21.

DELATTRE, P. (1966 a) : « Les dix intonations de base du français », *French Review, XL, 1*.
— (1966 b) : *Studies in French and Comparative Phonetics*, The Hague, Mouton.
— (1969) : « An Acoustic and Articulatory Study of Vowel Reduction in Four Languages », *International Review of Applied Linguistics, VII 4*.

DENES, P. B. et PINSON, E. N. (1963) : *La Chaîne de communication verbale*, Montréal, Les laboratoires du Téléphone Bell.

DERRIDA, J. (1967) : *L'Ecriture et la différence*, Paris, Le Seuil.
— (1967) : *De la grammatologie*, Paris, Ed. de Minuit.

Dictionnaire alphabétique et analogique de la langue française (*Robert*), Paris, Société du Nouveau Littré, 1958-1964, 6 vol. Tome 7, Supplément, Paris, Id. 1970.

Dictionnaire de la linguistique, Paris, P.U.F., 1974.

Dictionnaire de linguistique, Paris, Larousse, 1973.

Dictionnaire du français contemporain, Paris, Larousse, 1966.

Dictionnaire encyclopédique des sciences du langage, Paris, Le Seuil, 1972.

DUBOIS, J. (1965-1969) : *Grammaire structurale du français : I, Nom et pronom ; II, Le Verbe ; III, La Phrase et les transformations*, Paris, Larousse, 3 vol.

— (1969) : « Enoncé et énonciation », *Langages, 13*.

DUBOIS, J. et DUBOIS-CHARLIER, F. (1970) : *Eléments de linguistique française, syntaxe*, Paris, Larousse.

DUBOIS, J., GIACOMO, M., GUESPIN, L., MARCELLESI, C., MARCELLESI, J. B., MEVEL, J. P. (1973) : *Dictionnaire de linguistique*, Paris, Larousse.

DUBOIS, J., IRAGARAY, L., MARCIE, P., HECAEN, H. (1967) : « Pathologie du langage », *Langages, 5*.

DUBOIS, J. et SUMPF, J. (1969) : « L'analyse du discours », *Langages, 13*.

DUCROT, O. (1969) : « Présupposés et sous-entendus », *Langue française, 4*.

— (1971) : « Langue et pensée formelle » et « L'expression, en français, de la notion de condition suffisante », *Langue française, 12*.

— (1972) : *Dire et ne pas dire, Principes de sémantique linguistique*, Paris, Hermann.

— (1974) : *La Preuve et le dire*, Paris, Repères-Mame.

DUCROT, O. et TODOROV, T. (1972) : *Dictionnaire encyclopédique des sciences du langage*, Paris, Ed. du Seuil.

DU MARSAIS, C. Ch. (1730) : *Traité des tropes*, Paris.

EBBINGHAUSS, H. (1885) : *Uber das Gedächtnis : Untersuchungen zur experimentellen Psychologie*, Leipzig, Dunker et Humblot.

EHRLICH, S. (1968) : *Les mécanismes du comportement verbal*, Paris, Vrin.

FAURE, G. (1968) : « Accent, rythme et intonation », *Le Français dans le monde, 57*.

FECHNER, G. T. (1860) : *Œlemente der Psychophysik*, Leipzig, Breitkopf et Härtel.

FILLMORE, Ch. J. (1968) : « A Case for Case » in *Universals in Linguistic Theory* (E. Bach et R. Harms, eds.), New York, Holt, Rinehart et Winston.

— (1975) : « Quelques problèmes posés à la grammaire casuelle », *Langages, 38*.

FISHMAN, J. A. (1968) : (éd.) *Readings in the Sociology of Language*, La Haye, Mouton.

— (1971) : (éd.) *Advances in the Sociology of Language*, La Haye, Mouton.

FREUD, S. (1960) : *Psychopathologie de la vie quotidienne*, trad. fr. et rééd., Paris, Payot.

— (1962) : *Introduction à lq psychanalyse*, trad. fr. et rééd., Paris, Payot.

FRIES, Ch. (1952) : *The Structure of English : an Introduction to the Construction of English Sentences*, New York, Harcourt and Brace et Londres, Longmans.

FUCHS, C. et LE GOFFIC, P. (1975) : *Initiation aux problèmes des linguistiques contemporaines*, Paris, Collection « Langue,

Linguistique, Communication », Hachette.

GAK, W. G. (1959) : *L'orthographe française*, Moscou, 2e éd. (trad. française à paraître chez Didier).

GALISSON, R. (1966) : *L'écho, cinquième moment de la classe de langue*, Paris, B.E.L.C., 9, rue Lhomond.

— (1969 a) : « Le dialogue dans l'apprentissage d'une langue étrangère », *Le Français dans le Monde, 63.*

— (1969 b) : *Petit lexique d'initiation à la linguistique appliquée et à la méthodologie de l'enseignement des langues* Paris, B.E.L.C., 9, rue Lhomond.

— (1970 a) : « Analyse sémique, actualisation sémique et approche du sens en méthodologie », *Langue Française, 8.*

— (1970 b) : *L'apprentissage systématique du vocabulaire*, Paris, Collection Le Français dans le monde — B.E.L.C., Hachette/Larousse.

— (1971) : *Inventaire thématique et syntagmatique du Français fondamental*, Paris, Collection Le Français dans le monde — B.E.L.C., Hachette/Larousse.

— (1972-1974) : « Que devient la linguistique appliquée ? Qu'est-ce que la méthodologie de l'enseignement des langues ? », *Etudes de Linguistique Appliquée, 7 et 14.*

— (1973) : « Pour une méthodologie de l'enseignement du sens étranger », *Etudes de Linguistique Appliquée, 11.*

— (1975 c) : « Lexicographie différentielle à l'Institut de la Mission Laïque Française de Thessalonique », *Etudes de Linguistique Appliquée, 18.*

GLEASON, H. A. (1955) : *An Introduction to Descriptive Linguistics*, New York, Holt, Rinehart and Winston ; nouv. éd. 1961 ; trad. fr. : *Introduction à la linguistique*, Paris, Larousse, 1969.

GODEL, R. (1957) : *Les Sources manuscrites du « Cours de linguistique générale » de Ferdinand de Saussure*, Genève, Droz et Paris, Minard.

GOUGENHEIM, G. (1938) : *Système grammatical de la langue française*, Paris, d'Artrey.

— (1970) : *Etudes de grammaire et de vocabulaire français*, Paris, Picard.

GOUGENHEIM, G., MICHÉA, R., RIVENC, P., SAUVAGEOT, A. (1964) : *L'Elaboration du français fondamental* (d'abord paru en 1956 sous le titre *L'Elaboration du français élémentaire*), Paris, Didier.

GREIMAS, A. J. (1966) : *Sémantique structurale*, Paris, Larousse.

— (1968) : « Pratiques et langages gestuels », *Langages, 10.*

— (1970) : *Du sens*, Paris, 1970, Larousse.

GROSS, M. (1968) : *Grammaire transformationnelle du français syntaxe du verbe*, Paris, Larousse.

— (1968) : « L'emploi des modèles en linguistique », *Langages, 9.*

— (1971) : « Grammaire transformationnelle et enseignement du français », *Langue française, 11.*

GUBERINA, P. (1965) : « La Méthode audio-visuelle structuro-globale », *Revue de Phonétique Appliquée, 1.*

— (1972) : « Sur la notion de structuro-global », *Revue de Phonétique Appliquée, 21.*

HARRIS, Z. S. (1951) : *Methods in Structural Linguistics*, Chicago, Un. of Chicago Press ; rééd. : *Structural Linguistics*. 1963.

— (1962) : *String Analysis of Sentence Structure,* La Haye, Mouton.
— (1963) : *Discourse Analysis Reprints,* La Haye, Mouton.
— (1970) : *Papers in Structural and Transformational Linguistics,* Dortrecht, Reidel.

HIGER, K. (1969) : « L'analyse sémantique du signe linguistique », *Langue française, 4.*

HJELMSLEV, L. (1943-1968) : *Prolégomènes à une théorie du langage ;* publié en 1943, Copenhague, Akademisk Forlag, sous le titre *Omkring Sprogteoriens Grundlaeggelse ;* trad. en français, Paris, Les Editions de minuit, 1968.
— (1963-1966) : *Le Langage* ; publié en 1963, Copenhague, Berlingske Forlag, sous le titre *Sproget* ; trad. en français, Paris, Les Editions de minuit, 1966.
— (1971) : *Essais linguistiques,* recueil de textes écrits par Hjelmslev entre 1937 et 1957 ; trad. en français, Paris, Les Editions de minuit.

HOCKETT, C. F. (1958) : *A Course in Modern Linguistics,* New York, Macmillan.

HÖRMANN, H. (1967) : *Psychologie der Sprache,* Berlin et Heidelberg, Springer Verlag ; trad. fr. : *Introduction à la psycholinguistique,* Paris, Larousse, 1972.

JAKOBSON, R. (1963) : *Essais de linguistique générale,* Paris, Ed. de Minuit ; 2ᵉ volume publié en 1973.

JAKOBSON, R. et HALLE, M. (1963) : *Fundamentals of Language,* La Haye, Mouton.

JESPERSEN, O. (1904) : *How to Teach a Foreign Language,* Londres, Swan Sonnenschein.

— (1937) : *Analytic Syntax,* Copenhague, Munksgaard ; trad. fr. (1971) : *La Syntaxe analytique,* Paris, Ed. de Minuit.

KATZ, J. J. et FODOR, J. A. (1963) : « The structure of a semantic theory », Language XXXIX 2 ; trad. fr. « Structure d'une théorie sémantique avec applications au français ».
— (1964) : *An integrated theory of linguistic description,* Cambridge, Mass. ; trad. fr. : *Théorie globale des descriptions linguistiques,* Paris, Mame (1973).

KRISTEVA, J. (1969) : *Recherches pour une sémanalyse, Sêmeiôtikè,* Paris, Le Seuil.

LABOV, W. (1966) : *The Social Stratification of English in New York City,* Washington, D.C., Center of Applied Linguistics.

LÉON, P. R. (1962) : *Laboratoire de langues et correction phonétique,* Paris, Didier.
— (1971) : *Essais de phonostylistique,* Paris, Didier.

LÉVI-STRAUSS, Cl. (1958) : *Anthropologie structurale,* Paris, Plon.
— (1973) : *Anthropologie structurale deux,* Paris, Plon.

LYONS, J. (1968) : *Introduction to Theoretical Linguistics,* Cambridge, Cambridge University Press ; trad. fr. : *Linguistique générale. Introduction à la linguistique théorique,* Paris, Larousse, 1970.

— (1970) : *Chomsky,* Londres, Collins ; trad. fr., Paris, Seghers, 1971.

MACKEY, W. F. (1967) : *Language Teaching Analysis*, Bloomington-London.

MALMBERG, B. (1954) : *La Phonétique*, Paris, P.U.F.
— (1963 : *Structural Linguistics and Human Communication*, Berlin, Springer.
— (1964) : *New Trends in Linguistics*, Stockholm ; trad. fr. *Les Nouvelles tendances de la linguistique*, Paris, P.U.F., 1966.
— (1968) : (éd.) *A Manual of Phonetics*, Amsterdam, North Holland ; trad. fr. : *Manuel de phonétique générale*, Paris, Picard, 1974.
— (1971) : *Les Domaines de la phonétique*, Paris, P.U.F.

MARCELLESI, J. B. (1971) : « Linguistique et société : présentation », *Langue Française, 9.*

MAROUZEAU, J. (1931) : *Lexique de la terminologie linguistique*, Paris, Geuthner ; 3e édit. augmentée et mise à jour, 1961.
— (1940) : *Précis de stylistique*, Paris, Masson.

MARTINET, A. (1955) : *Economie des changements phonétiques. Traité de phonologie diachronique*, Berne, Francke.
— (1960) : *Eléments de linguistique générale*, Paris, A. Colin. 2e éd. 1967.
— (1962) : *A Functional View of Language*, Oxford, Clarendon Press ; trad. fr. : *Langue et fonction*, Paris, Gonthier-Denoël, 1969.
— (1965) : *La Linguistique synchronique*, Paris, P.U.F.
— (1968) : (dir.) *Le Langage*, Encyclopédie de la Pléiade, Paris, N.R.F.
— (1969) : (éd.) *La Linguistique : guide alphabétique*, Paris, Gonthier-Denoël.

MATORE, G. (1953) : *La Méthode en lexicologie. Domaine français*, Paris, Didier ; nouv. éd., 1973.

MATRAS, J. J. (1948) : *Le Son*, Paris, P.U.F.

MITTERAND, H. (1960) : *Les Mots français*, Paris, P.U.F., « Que sais-je ? ».
— (1963) : « Observations sur les prédéterminants du nom », *Etudes de linguistique appliquée, 2.*
— (1968) : « Le vocabulaire du visage dans Thérèse Raquin », *Nouvelle Critique*, numéro spécial « Linguistique et Littérature ».
— (1969) « Français écrits et français littéraires », *Le Français dans le Monde, 69.*

MORRIS, Ch. W. (1946) : *Signs, Language and Behavior*, Englewoods Cliffs, N. J., Prentice Hall.
— (1964) : *Signification and Signifiance*, Cambridge, Mass., M.I.T. Press.

MOUNIN, G. (1963) : *Les Problèmes théoriques de la traduction*, Paris, Gallimard.
— (1965) : « Un champ sémantique : la dénomination des animaux domestiques », *La Linguistique, 1.*
— (1968) : *Clefs pour la linguistique*, Paris, Seghers.
— (1970) : *Introduction à la sémiologie*, Paris, Ed. de Minuit.
— (1972) : *Clefs pour la sémantique*, Paris, Seghers.
— (1974) : *Dictionnaire de la linguistique*, Paris, P.U.F.

MULLER, Ch. (1964) : *Essai de statistique lexicale : l'Illusion comique*, Paris, Klincksieck.
— (1968) : *Initiation à la statistique linguistique*, Paris, Larousse.

OGDEN, C. K. et RICHARDS, I. A. (1923) : *The Meaning of Meaning*, Londres, P. Kegan.

ORIOL, T. et MURY, G. (1968) : *La Connaissance, Traité de philosophie*, Classes terminales et Lettres supérieures, Paris, Didier.

OSGOOD, C. E. et SEBEOK, T. E. (1965) : *Psycholinguistics : A survey of theory and research problems*, Bloomington, Indiana University Press.

PEIRCE, Ch. S. (1958) : *Selected Writings*, New York, Doves.
— (1960) : *Collected Papers*, Cambridge, Mass., Harvard Univ. Press, 8 vol.

PERROT, J. (1953) : *La linguistique*, Paris, P.U.F., « Que sais-je ? ».

PEYTARD, J. et GENOUVRIER, E. (1970) : *Linguistique et enseignement du français*, Paris, Larousse.

PIAGET, J. (1947) : *La psychologie de l'intelligence*, Paris, A. Colin.
— (1959) : *La naissance de l'intelligence chez l'enfant*, 3e édit., Neuchâtel, Delachaux et Niestlé.
— (1962) : *Les relations entre l'affectivité et l'intelligence dans le développement mental de l'enfant*, Paris, C.D.U.
— (1967) : *Biologie et connaissance*, Paris, Gallimard.
— (1968) : *Le structuralisme*, Paris, P.U.F., « Que sais-je ? ».
— (1969) : *Psychologie et pédagogie*, Paris, Denoël.
— (1970) : *L'épistémologie génétique*, Paris, P.U.F., « Que sais-je ? ».

PORCHER, L. (1973) : *L'Ecole parallèle*, Paris, Larousse.
— (1975) : *Monsieur Thibaut et le bec Bunsen*, Paris, CREDIF (E.N.S. de Saint-Cloud).

POTTIER, B. (1962) : *Introduction à l'étude des structures grammaticales fondamentales*, Publ. Faculté des Lettres de Nancy.
— (1963) : *Recherches sur l'analyse sémantique en linguistique et traduction mécanique*, Pub. Faculté des Lettres de Nancy.
— (1965) : « A propos des structures grammaticales fondamentales », *Le Français dans le monde, 32*.
— (1967) : *Présentation de la linguistique*, Paris, Klincksieck.
— (1973) : (dir.) « L'Ethnolinguistique », *Langages, 18*.
— (1973) : *Le Langage*, Paris, Denoël, Coll. « Les Dictionnaires du Savoir Moderne ».
— (1974) : *Linguistique générale, théorie et description*, Paris, Klincksieck.

PRIETO, L. (1964) : *Principes de noologie : fondements de la théorie fonctionnelle du signifié*, La Haye, Mouton.
— (1966) : *Messages et signaux*, Paris, P.U.F.

QUEMADA, B. (1968) : *Les Dictionnaires du français moderne (1539-1863), Etudes sur leur histoire, leurs types et leurs méthodes*, Paris, Didier.
— (1974) : « Remarques de méthode sur une recherche d'indices d'utilité du vocabulaire », *Le Français dans le Monde, 103*.

REVZIN, I. I. (1962) : *Les Modèles linguistiques*, en russe, Moscou ; trad. fr. Paris, Dunod, 1968.

REY, A. (1965) : « Les dictionnaires : forme et contenu », *Cahiers de lexicologie, 7*.
— (1968) : « Un champ préfixal : les mots français en *anti* », *Cahiers de lexicologie, 12*.
— (1969) : « Remarques sémantiques », *Langue française, 4*.
— (1970) : *La lexicologie*, Paris, Klincksieck.

RICHTERICH, R. (1973) : « Définition des besoins langagiers et types d'adultes », in TRIM, J. L. M. et all. : *Systèmes d'apprentissage des langues vivantes par les adultes*, Strasbourg, Conseil de l'Europe.

RICŒUR, P. (1961) : « Civilisation universelle et cultures nationales », *Esprit, 10.*

ROULET, E. (1969) : *Syntaxe de la proposition nucléaire en français parlé. Etude tagmémique et transformationnelle*, Bruxelles, AIMAV.

— (1972) : *Théories grammaticales, descriptions et enseignement des langues*, Paris, Nathan et Bruxelles, Labor.

— (1974) : *Linguistique et comportement humain. L'analyse tagmémique de Pike*, Neuchâtel, Delachaux et Niestlé.

RUWET, N. (1965) : « Sur un vers de Charles Baudelaire », *Linguistics, 17.*

— (1967) : *Introduction à la grammaire générative*, Paris, Plon.

— (1972) : *Théorie syntaxique et syntaxe du français*, Paris, Le Seuil.

— (1972) : *Langage, musique, poésie*, Paris, Le Seuil.

SAPIR, Ed. (1921) : *Language : an Introduction to the Study of Speech*, New York, Harcourt, Brace and World ; trad. fr., *Le Langage*, Paris, Payot, 1953.

— (1949) : *Selected Writings in Language, Culture and Personality*, Berkeley, University of California Press ; trad. fr. *Anthropologie*, Paris, Ed. de Minuit, 1967, 2 vol.

— (1968) : *Linguistique* [articles traduits de l'américain], Paris, Ed. de Minuit, 1968.

SAUSSURE, F. de (1916) : *Cours de linguistique générale*, Lausanne, Payot, nouv. éd. 1972.

SAVARD, J. G. (1970) : *La Valence lexicale*, Paris, Didier.

SCHANE, S. A. (1967) : « La phonologie générative », *Langages, 8.*

SEARLE, J. R. (1969) : *Speech-Acts, An Essay in the Philosophy of Language*, Cambridge, University Press ; trad. fr. : *Les Actes du langage. Essai de philosophie du langage*, Paris, Hermann, 1973.

SHANNON, Cl. E. et WEAWER W. (1949) : *Mathematical Theory of Communication*, Urbana, Illinois University Press.

SIMON, J. (1954) : *Psychopédagogie de l'orthographe*, Paris, P.U.F.

SKINNER, B. F. (1953) : *Science and Human Behavior*, New York, Macmillan.

— (1957) : *Verbal Behavior*, New York, Appleton Century Crofts.

— (1961) : « Teaching Machines », *Scientific American*, nov. 1961.

SPITZER, L. (1928) : *Stilstudien*, Munich, Hueber ; trad. fr. : *Etudes de style*, Paris, Gallimard, 1970.

STRAKA, G. (1965) : *Album phonétique*, Québec, Les Presses de l'Université Laval.

TESNIÈRE, L. (1959) : *Eléments de syntaxe structurale*, Paris, Klincksieck.

TODOROV, T. (1966) : « Recherches sémantiques », *Langages, 1.* « Les anomalies sémantiques », *Langages, 1.*

TOGEBY, K. (1966) : *Structure immanente de la langue française*, Paris, Larousse.

— (1967) : (directeur), « La glossématique », *Langages, 6.*

TRIER, J. (1931) : *Der deutsche Wortschatz im Sinnbezirk des Verstandes,* Heidelberg, Carl Winter.

TRIM, J. L. M., RICHTERICH, R., VAN EK, J. A., WILKINS, D. A. (1973) : *Systèmes d'apprentissage des langues vivantes par les adultes,* Strasbourg, Conseil de l'Europe.

TROUBETZKOY, N. S. (1939) : *Grundzüge der Phonologie,* Prague ; trad. fr. : *Principes de phonologie,* Paris, Klincksieck, 1949.

ULLMANN, S. (1952) : *Précis de sémantique française,* Berne, Francke.

— (1962) : *Semantics : an Introduction to the Science of Meaning,* Oxford, Blackwell.

VANDER BEKE, G. E. (1928) : *French Word Book,* New York, American and Canadian Committees on Modern Languages.

VENDRYES, J. (1929) : *Le Langage, Introduction linguistique à l'histoire,* Paris, La Renaissance du livre ; nouv. éd., A. Michel, 1968.

VAN EK, J. A. (1975) : *The Threshold Level,* Strasbourg, Conseil de l'Europe.

VINAY J. et DARBELNET J. (1958) : *Stylistique comparée du français et de l'anglais,* Paris, Didier.

WAGNER, R. L. (1947-1955) : *Introduction à la linguistique française,* Genève, Droz et Lille, Giard ; *Supplément bibliographique, ibid.,* 1955.

— (1967, 1970) : *Les vocabulaires français ; t. I, Définitions, les dictionnaires - t. II, les tâches de la lexicologie synchronique, glossaires et dépouillements. Analyse lexicale,* Paris, Didier.

WEINREICH, U. (1953) : *Languages in Contact,* New York, Linguistic Circle of New York ; réimp. La Haye, Mouton, 1963.

— (1968) : « Uni-linguisme et pluri-linguisme », in MARTINET, A. (dir.) : *Le Langage,* Encyclopédie de la Pléiade Paris, N.R.F.

WHORF, B. L. (1956) : *Language, Thought and Reality : Selected Writings,* New York, Wiley.

— *Linguistique et Anthropologie. Les origines de la sémiologie,* Paris, Denoël-Gonthier, 1969.

WILKINS, D. A. (1973) : « Contenu linguistique et situationnel du tronc commun d'un système d'unités capitalisables », in TRIM, J. L. M. et al., *Systèmes d'apprentissage des langues vivantes par les adultes,* Strasbourg, Conseil de l'Europe.

— (1974) : « Facteurs sémantiques, situationnels et linguistiques dans une approche conceptuelle de l'établissement d'un programme », *Etudes de linguistique appliquée, 16.*

المؤلف : يوسف غازي

أستاذ جامعي سوري ، تلقى علــومه في لبنان ، يحمل إجازة في الأدب الفرنسي ، وشهادة دبلوم في التربية ، وماجستير في اللغة الفرنسية ، ودكتوراه الحلقة الثالثة من السوربون ، ودكتوراه للحصول على لقب «تلميذ مجاز» من المــدرسة العملية للـدراسات العليـا في باريس ، ودكتوراه دولـة في الألسنيـة الفرنسيـة من السوربون .

من كتبه :

● بالعربية :

- تقديم وترجمة كتاب فردينان دوسوسير :

«محاضرات في الألسنية العامـة» دار نعمان للثقافـة ، جونية - لبنـان ١٩٨٣ بالاشتراك مع مجيد النصر

- ترجمة سلسلة من قصص للأطفال

- ترجمة روائع الاديب الجزائري نور الدين عبه

● بالفرنسية :

- Vocabulaire du discours médical

دار نشر ديدييه للتبحّر ، باريس ١٩٨٥ Didier Erudition

- Pour comprendre la linguistique

Presses Universitaires du Monde Arabe ، باريس ١٩٨٥

● قيد الطباعة :

- معجم «علوم التواصل وتقنياته»

(فرنسي/ انكليزي/ عربي)

- معجم «العلوم الطبيّة»

(فرنسي/ انكليزي/ عربي)

«Introduction à la dictionnairique arabe»



مطابع ألف باء الأديب
دمشق